أضواء على الخطابة الإسلامية

تأليف

دكتور
عبد القادر سيد عبد الرؤوف
أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية
كلية أصول الدين بالقاهرة بجامعة الأزهر

الطبعة الثانية

١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

إهداء

إلى روح والدى رحمهما الله تعالى رحمة واسعة بما بذلا من جهـد ومشقة ، وأدخلهما فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

أهدى هذا الكتاب

عبد القادر سيد عبد الرءوف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين خلق الإنسان، علمه البيان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كرم الإنسان بالعقل، وميزه بالمنطق، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أفصح العرب لساناً، وأبينهم منطقاً، وأوضحهم خطاباً، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اتبع طريقه واستن سنته إلى يوم الدين.

وبعـد:

فإن الخطابة الدينية ذات تأثير نفسي وتوجيه اجتماعي أصيل، وذلك لما لها من منزلة كبيرة ومكانة عظيمة في النفوس، حيث أنها تهز أوتار القلوب، وتملك مفاتيح العقول.

وتعتبر الخطابة الدينية أبرز وسيلة وأقوى طريقة في ميدان التبليغ، ونشر الدعوة الإسلامية، لما تحدثه من تأثير قوي، ولما تحققه من نتائج طيبة بين أفراد المجتمع المسلم.

وقد صدع الرسول ﷺ بالحق بعد أمر الله تعالى له بالتبليغ، ووقف أمام الناس خطيبا على جبل الصفا ليبشرهم وينذرهم قائلا لهم: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

وظلت الخطابة الدينية من أهم وسائل الدعوة إلى الله عز وجل، في

صدر الإسلام ، فوجدنا الخطابة تؤدي دورها على خير ما يكون ، فكانت خير وسيلة لنشر الدعوة الإسلامية .

وإذا كان رقي الخطابة في صدر الإسلام ، بسبب تقليد العرب للقرآن الكريم والسنة النبوية ، فإن الرقي في العصر الأموي زاد وتقدم تقدماً هائلاً ، حتى أتيح النثر وتم تفتح وازدهرت اللغة خصوصاً بعد أن رتب صلوية ومن خلفه أئمتاً يخطبون الناس في المساجد ، بعد أن كان الوعظ الديني مقصوراً على الأئمة .

كذلك ازدهرت الخطابة في العصر العباسي الأول ، وكان الخلفاء يعتزون كون الملك في هذا المجال ، ويجمعون بين الولاية والصلاة ، وكان الوعظ الديني في العصر العباسي الأول ، هدفا يرمي إليه الخطباء ، ومقصداً يقصدونه .

وفي العصر الحديث نلمس دور الخطابة الدينية واضحاً ، وذلك عندما تلم بالناس الملمات ، وتكثر الفتن والإنحرافات ، فلا يجد الناس ملاذاً إلا خطباء المساجد وأئمتهم يحتمون بهم ، ويهرعون إليهم ويلجأون .

ومن هنا تظهر أهمية الخطابة الدينية في المجتمع ، والعناية بها قديماً وحديثاً لما لها من أثر طيب وتأثير بليغ في حياة الناس .

وهذا الكتاب ، أضواء على الخطابة الإسلامية ، يبين ما للخطابة الدينية من أهمية بالغة في حياة المجتمع .

هذا والكتاب يشتمل على :

مقدمة وسبعة عشر مبحثاً وخاتمة :

المقدمة : وتشتمل على أهمية الموضوع وحاجة الناس إليه .

أما المبحث الأول فيشتمل على : تعريف الخطابة لغة واصطلاحاً .

والمبحث الثانى : أهمية الخطابة والغاية منها .

- « الثالث : أهمية الخطابة للدعوة الإسلامية .
- « الرابع : علم الخطابة وصلته بالعلوم الأخرى .
- « الخامس : أقسام الخطابة .
- « السادس : الخطابة الدينية .
- « السابع : طرق تحصيل الخطابة .
- « الثامن : مراحل اعداد الخطبة وتكوينها .
- « التاسع : الخطيب وأهميته واعداده وصفاته .
- « العاشر : بين الخطبة وأشباهها من فنون القول .
- « الحادى عشر : الخطابة فى صدر الإسلام .
- « الثانى عشر : الخطابة فى العصر الأموى .
- « الثالث عشر : الخطابة فى العصر العباسى .
- « الرابع عشر : فى العصر الحديث .
- « الخامس عشر : المستمعون .
- « السادس عشر : رسالة المسجد فى الإسلام — فى العصر الحديث .
- « السابع عشر : نماذج من الخطب العملية .

الخاتمة :

وإنى لأرجو الله أن يتقبل هذا العمل ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتحقق من هذا الكتاب الثمرات المؤملة منه .

والله الهادى إلى الصراط المستقيم وهو من وراء القصد .

المؤلف

د/ عبد القادر سيد عبد الرءوف

المبحث الأول

التعريف بالخطبة الدينية

تعريفها فى اللغة :

يقول صاحب مختار الصحاح : خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً ، وخطب على المنبر خطبة بضم الخاء وخطابة ، وخطب المرأة فى النكاح خطبة بكسر الخاء يخطب بضم الطاء فيهما ، وخطب من باب ظرف : صار خطيباً[1] وخاطبه مخاطبة وخطابا وهو الكلام بين متكلم وسامع ومنه اشتقاق ، الخطبة بضم الخاء وكسرها ، فيقال فى الموعظة : خطب اليوم خطبة بضم الخاء فهو خطيب والجمع الخطب وخطب المرأة من القوم إذا طلب أن يتزوج منهم ، والإسم الخطبة بكسر الخاء فهو خاطب ، وعلى هذا فيقال من الخطبة بالضم خاطب وخطيب ومن الخطبة بالكسر خاطب فقط[2] .

وجاء فى لسان العرب : خطبت على المنبر خطبة ، بالضم ، وخطبت المرأة خطبة بالكسر[3] .

وجاء فى أساس البلاغة : خاطبه أحسن الخطاب وهـو المواجهة

---

(١) مختار الصحاح للرازى مادة خطب .

(٢) المصباح المنير ، المفردات فى غريب القرآن للاصفهانى مادة خطب أيضا .

(٣) لسان العرب لابن منظور مادة خطب .

بالكلام وخطب الخطيب خطبة حسنة ، وخطب الخاطب خطبة جميلة(١).

ولو نظرنا إلى كلمة خطب نجد أن معناها يدور حول :

١ — الرغبة فى الزواج .

٢ — ملكة البيان وفصاحة اللسان .

والذى يهمنا فى هذا المقام من المعنيين السابقين هو المعنى الثانى حيث إنه موضوع بحثنا وقد عبر عنه الشيخ على محفوظ بعبارة قوية موجزة حيث قال : الخطابة فى اللغة : توجيه الكلام نحو الغير للإفهام(٢).

الخطبة فى مفهوم الإصطلاح :

يعرفها الشيخ على محفوظ بقوله : أنها ملكة الاقتدار على الاقناع واستمالة القلوب ، وحمل الغير على ما يراد منه(٣).

ويعرفها الشيخ محمد أبو زهرة بقوله : أن الخطابة صفة راسخة فى نفس المتكلم يقتدر بها على التصرف فى فنون القول ، لمحاولة التأثير فى نفوس المستمعين ، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم واقناعهم(٤).

ويعرفها ثالث بقوله : فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته(٥) .

ويعرفها رابع بقوله: علم يقتدر بتطبيق قواعده على مشافهة المستمعين

---

(١) أساس البلاغة للعلامة الزمخشرى مادة خطب .

(٢) فن الخطابة صـ ١٣

(٣) فن الخطابة صـ ١٤

(٤) الخطابة صـ ١٩

(٥) فن الخطابة د/ أحمد الحوفى صـ ٩

بفنون القول المختلفة لمحاولة التأثير في نفوسهم وحملهم على مايراد منهم بترغيبهم واقناعهم(١).

ويعرفها خاص بقوله : فن مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائية ، تشتمل على الإقناع والإستمالة(٢).

من خلال هذه التعريفات السابقة نستطيع أن نقول:

إن الخطبة لاتخرج عن الأمور الآتية :

١ — فهي عبارة عن نقل الأفكار من الخطيب إلى جمهور المستمعين.

٢ — اقناع المستمعين منطقيا بطريقة التعبير الجيد بهذه الأفكار.

٣ — جذب قلوب المستمعين وميلها إلى هذه الأفكار ليعملوا بمقتضاها فالخطابة مرماها التأثير في نفس السامع ومخاطبة وجدانه وإثارة إحساسه للأمر الذى يراد منه ، ليذعن للحكم ، إذعانا ويسلم به تسليما(٣).

وهذا كله يستدعي من الخطيب أن يكون عنده المقدرة على الكلام وهذا لايكون إلا بالتحضير والإبتكار المبنى على التفكير السليم والتنسيق المبنى على الترتيب والتمهيد على توضيح الأفكار لسامعيه.

---

(١) علم الخطابة د/ أحمد غلوش صـ ٩
(٢) الخطابة في موكب الدعوة د/ محمود عمارة صـ ٩
(٣) الخطابة الشيخ محمد أبو زهرة ١٩

المبحث الثاني

أهمية الخطابة والغاية منها

الخطابة أهمية كبيرة وغاية ذات شأن خطير، وهي إرشاد الناس إلى الحقائق وحملهم على ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، والخطابة معدودة من وسائل السيادة والزعامة، وكانوا يعدونها شرطا للإمارة، فهي تكمل الإنسان وترفعه إلى ذرى المجد والشرف حيث أن الخطيب يرشد السامع إلى ما يحتاج اليه من أمور دينه ودنياه، ويقيم له مراسيم لتقويم عيشه، والاستعداد إلى ميعاده، وحسبها شرفاً إنها وظيفة قادة الأمم من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن على شاكلتهم من العلماء العاملين، وعظماء الملوك وكبار الساسة وفوائدها عظيمة، فهي التي تعرف صاحبها كيف يمتلك القلوب، ويستميل النفوس، ويحرك العواطف ويهيج الخواطر نحو ما يريد وهي التي ترفع الحق وتخفض الباطل، وتقيم العدل، وترد المظالم، وهي التي تهدي الضال إلى سواء السبيل وتفض النزاع وتقطع الخصومات بين المتخاصمين[1].

ومن هنا تظهر أهمية الخطبة ومكانتها في الإسلام فهي تدور في فلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله عز وجل بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، كما أنها تبغي السعادة للمدعوين في الدنيا والآخرة بهدايتهم إلى طريق الله المستقيم، كما أنها تتعلق بأشرف أجزاء الإنسان روحه ونفسه وعقله وضميره فغاية الخطابة صلاح المعاش والمعاد والفوز بسعادة الدارين، وفضلها عظيم وشرفها جسيم، إذ هي

---

(1) فن الخطابة الشيخ علي محفوظ ص ١٥، ١٦ بتصرف.

تتعلق بطب الأرواح وعلاج النفوس ، لتصل إلى السعادة وذلك لأن الإنسان مركب من جسم وروح ، وكلاهما عرضة للأمراض والعلل فهو محتاج إلى طبيبين ومتشوف إلى علاجين ، علاج لجسمه ، وعلاج لروحه وأفضل الطبين ما أصلح أشرف الجزءين من هذا الإنسان(٢) .

كما أن الخطابة هي الدعامة التي قامت عليهـا الانقلابات العظيمة والثورات الكبيرة فقد جاء الإسلام ليدعو إلى ترك كثير من القديم وبخاصة عبادة الأصنام والأوثان ويجمع الناس على عبادة إله واحد ويدلهم على مكان العادات الإسلامية التي يجب أن تحـل محل عاداتهم الجاهلية ، فكان لابد أن تنفك الألسنة من عقالها ، وتندفع هذه الألسنة تنطق بعبارات ملتهبة وتوقظ القلوب الحائرة ومن هنا كان ظهور الإسلام ودعوة الرسول ﷺ إلى هـذا الدين الحق كان انقلابا سياسيا ودينيا واجتماعيا وفكريا ليس في العرب وحدهم بل في كل العالم وهنا تظهر أهمية الخطابة وثمرتها الطيبة .

وتظهر أهمية الخطابة في مجال المنازعات وفض المشاكل والقضاء على الخصومات ، فبالخطابة يتحول المتحاربون إلى متحابين ، والمتعادون إلى متعاونين متحدين والمختلفون إلى متآلفين متعانقين .

---

(٢) هداية المرشدين ص ٧٢

المبحث الثالث

أهمية الخطابة للدعوة الإسلامية

لقد أمر الله عز وجل رسوله ﷺ بتبليغ الدعوة فقال تعالى: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين»(١).

وقال تبارك وتعالى: «ما على الرسول إلا البلاغ»(٢).

وكما أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتبليغ أمر المسلمين كذلك بوجوب التبليغ فقال جل فى علاه: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون»(٣).

كما قال تعالى: «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون»(٤).

مما تقدم يتبين لنا أن الدعوة الإسلامية لابد لها من دعاة يدعون الناس إليها ويردون على خصومها بالحجة والبرهان والمنطق القويم وعرضها على المستمعين الضالين أو المنحرفين عرضاً حسناً تستمال به الوجدان وتقتنع به العقول والقلوب ولن يكون ذلك إلا إذا وجدت الألسنة القوالة القادرة على الإقناع بالحجة والموعظة الحسنة ، وكانت الدعوة الإسلامية من أعظم البواعث على إنطلاق الألسنة من عقالها فأثارت الخطابة من مكمنها

---

(١) المائدة: ٦٧ (٢) المائدة: ٩٩

(٣) آل عمران: ١٠٤ (٤) التوبة: ١٢٢

وأقرت وفتحت العقول بأحكامها فتفنن خطباء الإسلام فيها واختلبوا الألباب بسحر بيانها[١] .

وإذا نظرنا إلى الدعوة الإسلامية نجد أنها جاءت فى قوم اشتهروا بالفصاحة والبيان والبلاغة ، قوم القول صناعتهم ، والبلاغة جل عنايتهم فكان لا بد من مقابلة القول بأبلغ منه ، والكلام بأروع منه ، فكانت الخطابة الأداة الأولى للدعوة الإسلامية ، وكانت السلاح المتين فى الرد على الخصوم ومقارعة الحجة بالحجة .

إن الدعوة الإسلامية كما أحدثت إنقلاباً لا مثيل له فى المجتمع البشرى قد أحدثت فى مجال الخطابة إنقلاباً خطيراً ، فنبتت على حواشيها خطابة دينية فى صورها المختلفة وأخرى فى السياسة والحكم والحرب والاجتماع وجدل الأحزاب والطوائف كأقوى وأروع ما تكون الخطابة[٢] .

ولو نظرنا إلى الرسول ﷺ وهو إمام الدعاة والخطباء نجد أنه بلغ دعوة ربه أتم بلاغ وأكمله ورسم المنهج السليم لأمته من بعده فى تبليغ الدعوة كما بينه الحق سبحانه وتعالى فى قوله : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »[٣] .

فكان صلى الله عليه وسلم يأتى الناس فى جامعهم ومجالسهم ومواسمهم ويدعوهم إلى الإسلام بأبلغ القـــول وأحسن الكلام ولننظر إلى خطبته الموجزة عندما نزل عليه قول الله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين »[٤] .

---

(١) الخطابة الدينية د / عبد الغفار عزيز ص ١٧

(٢) الخطابة فى صدر الإسلام د / محمد طاهر درويش جـ ١ ص ١٨١

(٣) النحل : ١٢٥ (٤) الشعراء : ٢١٤

لجمع النبي ﷺ عشيرته وقال لهم : إن الرائد لايكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ماغررتكم، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها الجنة أبداً ، أو النار أبداً »(١).

وكذلك فعل الرسول ﷺ مع رسله ، الذين كان يرسلهم إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام، فكان عليه الصلاة والسلام يرسل إليهم من اشتهر بالخطابة والبلاغة وعرف بالفصاحة وقوة الإقناع وكان عليه الصلاة والسلام يكلف القادر على الخطابة أن يقوم بواجب تبليغ الدعوة تجاه الغير بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

فالخطابة فى الإسلام مظهر الحياة المتحركة فيه ، الحياة التى تجعل هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب ، ويثب من فكر إلى فكر ، وينتقل مع الزمان من جيل إلى جيل ، ومع المكان من قطر إلى قطر(٢) .

والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم نهجوا منهج الرسول ﷺ فى الخطابة ، واستنوا بسنته ، فباتت الخطابة فى عهدهم عنفوان شبابها ، فالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بما اشتملا عليه من أساليب رائعة ومعان جميلة وعبارات رائعة رقيقة أعانهم على الخوض فى الخطابة والتفوق فيها، ولم تكن الخطب فى مجتمعهم تتقيد بوقت معين بل كلما دعت

---

(١) الخطابة للشيخ أبو زهرة ص٢١٣

(٢) مع الله الشيخ محمد الغزالى ص ٣٠٦

الحاجة إلى القول اجتمعوا فألقيت عليهم الخطبة إستشارة أو وعظاً أو تذكيراً أو إعلان أمر من الأمور .

والخطبة وسيلة جيدة للتبليغ وتكون عادة لجمع من الناس قد يعرفهم الداعي أو يعرف بعضهم فقط ويشترط للخطبة الناجحة أن يكون لدى الداعي معنى أو معان معينة يريد بيانها ولفت الأنظار إليها ، ومن المستحسن أن يكون موضوع الخطبة ماله علاقة بأحوال الناس مع ربط ذلك بمعاني العقيدة الإسلامية كأن يكون الذين يخطب فيهم ممن تكثر فيهم العصبية القبلية فيحدثهم عن أضرارها وحكم الإسلام فيها[1] .

ومن هنا كانت أهمية الخطابة للدعوة الإسلامية حتى جعلها الإسلام شعيرة من شعائره .

يقول الشيخ محمد الغزالي :

ودعماً للحق في أنحاء الجماعة جعل الله الخطابة من شعائر الإسلام .

فني كل أسبوع يحتشد المسلمون في المسجد الجامع ليسمعوا داعية إلى الله يذكر به ويعلم دينه .

وفي كل عيد يجتمع الرجال والنساء في الميادين الرحبة وفي المصليات المحيطة بالقرية ليسمعوا التوجيه المناسب بعد صلاة العيد .

وفي كل موسم جامع للحجيج تلتقي وفود الأمة الإسلامية المترامية الأطراف حول (عرفة) لتستمع إلى خطاب خطير يتناول شئونها ويشرح قضاياها ومبادئها[2] .

---

(١) أصول الدعوة د / عبد الكريم زيدان ص ٤٥٦

(٢) مع الله الشيخ محمد الغزالي ص ٣٠٨

وكفى بالخطبة شرفاً أنها شرعة فى الجمعة ومندوبة فى الجماعة ، وما تركها رسول الله ﷺ حتى لحق بالرفيق الأعلى ثم قام بها الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم ومن بعدهم خير قيام . ولقد حفظ التاريخ لنا كثيراً من ذلك مما يدل دلالة واضحة على أهمية الخطبة للدعوة وحاجة الدعوة إليها ومن ذلك مثلا .

من خطبة لرسول الله ﷺ إذ قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه « أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم إن المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت ، والذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار[١] .

إن من ينظر فى هذه الخطبة النبوية يرى الجوانب الكبيرة والشمول الواضح للخطبة الدينية مما يجعلنا نرى ضرورة شمولها للوعظ ، وهكذا نستطيع أن نقول إن رسول الله ﷺ جمع مزايا الخطيب الممتاز ، حيث كان يلامس بخطبه عقول الناس وعواطفهم ، ويتخير المناسبات ، ويتكلم فيها ، ولا يكثر منها ، مراعاة لعدم قدرة أصحابه على تحملها .

وعلى الجملة فإن الخطابة ضرورية للدعوة ولا غنى عنها ومن هنا فالواجب علينا أن نقوم بها ونعد لها رجالا قادرين على أدائها الأداء السليم وأن نخلص النية لله رب العالمين ونقصد من ورائها نشر الخير لأمتنا وللإنسانية جمعاء .

والخطيب الحكيم يستطيع بما وهبه الله عز وجل من نور الحكمة وقاطع الحجة وساطع البرهان أن يصحح القلوب وينبه العقول ويطهر

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة صـ ٢٣١ دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م

النفوس حتى ترجع عن غيها وتعود إلى الاعتـــدال وتتحلى بالفضائل والكمال ، وتتخلى عن النقائص والرذائل ، وتعيش بنور العلم وحلاوة الإيمان .

ولو نظرنا إلى عصر بنى أمية نجد أن الخلافات بينهم وبين مناوئيهم كانت سببا من أسباب إنصراف بعض العلماء عن خـــوض المعارك الكلامية ، السياسية أو الحربيـة ، والإنصراف إلى العبادة والنسك ، وإرشاد الناس ووعظهم ودعوتهم إلى الابتعاد عن هـذه الخلافات ، ودعوتهم إلى وحدة الأمة وتماسكها ، وإلى إرشادهم لأمور دينهم ودنياهم من غير تعصب لجماعة ، أو الإنضمام إلى طائفة عـــددة وقد كان دافع هؤلاء ، سيطرة الدين على قلوبهم ونفوسهم ، وبعضهم إنصرف إلى دراسة العقائد والتعمق فى بحثها ، وكون له رأياً فيها دعا إليه وحث عليه ، ومنهم من عكف على مناقشة الخارجين على الإسلام الهادمين لبنائه ، والرد عليهم بتقديم الحجج والأدلة ومن هؤلاء الحسن البصرى وواصل بن عطاء ، وذلك ولا شك كان سببا من أسباب ظهور الخطابة ودواعيها ، وموضوعاً من موضوعاتها . كما أن الفتوحات فى هذا العصر لم تنقطع فوجه الأمويون الجيوش إلى كثير من بلدان العالم ومن الطبيعى أن تحتاج الجيوش إلى خطب تدفع همم الجند ، وتحرضهم على الجهاد فى سبيل الله تعالى ، كذلك التزم الأمويون بنشر دعوة الإسلام فى كل بلاد الدنيا ومن هنا فتحت فى عصر معاوية بلاد فى شمال أفريقيا والسند وبعض أفغانستان ، وفى عهد عبد الملك وإبنه الوليد تم الاستيلاء على شمال أفريقيا والأندلس وامتد السلطان الإسلامى إلى بلاد البنجاب فى الهند ... وكل هـــذه الحروب تحتاج إلى الخطابة والبيان والحماس[1] .

أما فى العصر العباسى الأول فقد ازدهرت الخطابة الدينيـة والوعظ

(١) أصول الخطابة العربية د/ عبد الغفار عزيز ص ١٠١

الدينى ، وقد شارك الخلفاء العلماء فى هذا المجال ، وجمعوا بين الولاية والصلاة ، وكان الوعظ الدينى فى هذا العصر ، هدفا يرمى إليه الخطباء ، ومقصداً يقصدونه ، وبالنسبة للخلفاء ، فإنهم كانوا يعتقدون فى أنفسهم أنهم قادة الأمة فى دينهم ودنياهم ، بل كان بعضهم يرى أنهم أقدر على فهم أمور الدين من عامـــة الناس ، ومن أجل ذلك كانوا يضعون أنفسهم موضع المرشدين القادة فى الدين والدنيا ويزعمون أنهم أعلم الناس بأمور الدين ومن ذلك خطبة هارون الرشيد فقد جاء فيها :

عباد الله إنكم لم تخلقوا عبثا ، ولم تتركوا سدى ، حصنوا إيمانكم بالأمانة ، ودينكم بالورع ، وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء فى الخبر أن النبى ﷺ قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهـــد له ، ولا صلاة لمن لا زكاة له » إنكم سفر مجتازون ، وأنتم عن قريب تنقلون ، من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهـــدى بالإنابة ، فإن الله تعالى ذكره ، أوجب رحمته للمتقين ، ومغفرته للتائبين ، وهداه للمنيبين[٢] وهذا يبين إلى حد كبير أنهم كانوا يهتمون بالوعظ الدينى ، ودعوة الناس إلى التعلق بالآخرة ، وعدم الإفتتان بالدنيا والتعلق بزخارفها الزائلة .

كما يروى الطبرى فى تاريخه أن إبن السماك وهو من أشهر دعاة هـذا العصر وقد عرف بأنه واعظ الرشيد ، كان يلقى على الرشيد بعض المواعظ فيبكيه بكاء شديداً ، ومما يؤثر عنه أنه دخل على الرشيد يوماً فقال: عظنى : فقال: يا أمير المؤمنين ، إتق الله وحده لا شريك له واعلم أنك واقف غداً بين يدى الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين

---

(١) أصول الخطابة العربية د/عبد الغفار عزيز ص ١١٥
(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ١٠٢ لإبن عبد ربه .

لا ثالث لها ، جنة أو نار[1] فبكى هارون الرشيد حتى أخضلت لحيته
وعلى كل حال فإننا نستطيع أن نقول إنه رغم الخلل الملحوظ الذى أصاب
القيادة فى هذا العصر ، ورغم الانحراف الواسع الذى عم هذا العهد ،
إلا أن العمل للإسلام ظل مستمراً على مستوى الأفراد والجماعات

وانطلق الدعاة والمربون والمصلحون يؤدون واجبهم ، حتى أسلم
ثلث الهند ، وجمهور كبير من أهل الصين ، ولم يؤثر فيهم ما حدث لبعضهم
من التعذيب والإضطهاد مثل ما حدث للإمام أحمد بن حنبل رضى الله
عنه من الخليفة المأمون العباسى بسبب إمتناع الإمام أحمد بن حنبل عن
القول بخلق القرآن وما حدث للإمام مالك من قبل الوالى على المدينة
جعفر بن سليمان بن على بسبب جرأته على الخلفاء. ومن هنا ظلت الخطابة
الدينية مزدهرة ، وكان للخطباء دور عظيم فى إرشاد الناس وتوجيهم
فى المساجد ، وقد ترك الخطباء أنفسهم على سجيتها ، فى الخطب المنبرية
الشاملة لأحوال المجتمع .

أما الوعاظ فكانوا يجلسون لمواعظهم داخل المساجد أو خارجها ،
وكانوا يجلسون أيام الجمع بعد الصلاة فى أيام رمضان ولياليه ، ويكون
إقبال الناس عليهم بقدر فصاحتهم وقدرتهم على الإقناع واستثارة
عواطف الناس وكانوا يتفننون فى إلقاء المواعظ واستدراج الناس إليهم
برقة كلامهم وحسن أصواتهم .

وكان هؤلاء الوعاظ يستمدون وعظهم دائماً من الذكر الحكيم ،
وأحاديث الرسول الكريم — ﷺ — وأقوال الصحابة رضى الله عنهم
ومن سبقوهم من الوعاظ ، وقد أشاعوا فى وعظهم الإيمان الشديد بالله
عز وجل ، والثقة الوليدة بأن ما عند الله تعالى خير وأبقى .

واستمرت الخطابة الدينية فى نموها وازدهارها نظرياً وتطبيقياً ،

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٦ صـ ٥٣٨

حتى عصرنا الحاضر ، حيث صارت مادة علميـــة تدرس على المستوى الجامعي في كليات أصول الدين والدعوة ، وقسم الإعلان بجامعة الأزهر ، وفي معاهـد التمثيل تدرس الخطابة تحت عنوان فن الإلقاء ، بل صارت موضوعات الخطابة أكثر من ذلك فأصبحت مجال بحث لنيل درجة الماجستير ودرجة الدكتوراة ، بل يبحث في موضوعاتها الباحثون ويكتبون فيها إنتاجاً علمياً يؤهلهم لنيل درجة الأستاذية في تخصص الدعوة والثقافة الإسلامية والإعلام العام ويكفي هذا دلالة على رفعة شأن الخطابة وعلو قدرها ، وأهميتها بالنسبة الدعوة الإسلامية ، وسوف نوضح الأمر أكثر عند الكلام عن الخطابة في صدر الإسلام ، والخطابة في العصر الأموي ، الخطابة في العصر العباسي ، والخطابة في العصر الحديث — إن شاء الله تعالى — .

المبحث الرابع

علاقة علم الخطابة بالعلوم الأخرى

من المعلوم أن علم الخطابة له علاقة وثيقة بغيره من العلوم الأخرى ، حيث يستمد منها ، ويعتمد عليها ، لأن هدف الخطابة الإقناع ، والاستمالة . ولا يستطيع الخطيب أن يحقق ذلك إلا إذا أحاط بالأدلة وأنواعها والبشر ونفوسهم . والمجتمع وطريقة تغييره ، فالخطابة لا تنسب إلى جنس خاص ، وإنما تستفيد من غيرها من العلوم كى تمهد التغير وتحقق الهدف المنشود منها وهو تحقيق الخير والسعادة للإنسان فى هذه الحياة ، وهذه العلوم هى :

١ — العلوم الإنسانية :

(ا) المنطق : علم المنطق له صلة وثيقة بعلم الخطابة ، من حيث أن المنطق خادم له ، وكثير من قوانين الخطابة يعتمد على المنطق فى مبادئه ، لأن المنطق لا يبحث عن القوانين التى تعصم الذهن فقط ، بل يستنبط أيضاً ما يرشد الذهن إلى الأخذ بالقوانين التى تساعد الخطيب على أدلة مهمته ، وتمد قوانين الخطابة بمناحى التأثير ، وطرق الإقناع . ومن هنا فالمنطق ألزم العلوم الخطابة ، وبينهما من وشائج القربى ، وتداخل المسائل ، وتقارب المناهج ما سهل على الأقدمين عدهما علماً واحداً .

وعلى ذلك فالخطابة لا تخلو من المنطق أبداً ، ففيها القياس بأنواعه ، وفيها كثير من أجزاء المنطق كالجدل والبرهان والرسم وهذا ما حدا بالأقدمين أن يجعلوا الخطابة جزءاً من المنطق .

(ب) علم النفس :

لا يستطيع الخطيب أن يصل إلى غايته ، وهى إقناع السامعين وحملهم على المراد منهم إلا إذا استطاع أن يثير حماستهم ، ويخاطب إحساسهم . ويتصل كلامه بشغاف قلوبهم ، ولا يمكنه ذلك إلا إذا كان عليما بما يثير شوقهم ويسترعى انتباههم ، وعليما بطبائع النفوس ، وأحوالها وغرائزها ، وسجاياها ، ولا يكون ذلك إلا بدراسة علم النفس .

فعلم النفس هو الذى يرشد الخطيب إلى معرفة الأمراض النفسية التى تسود المجتمع إن كانت فطرية أو مكتسبة ، فيضع يده على الداء ليستأصله بمعارفه ومداركه .

ولا يستطيع الخطيب ذلك إلا بعد دراسة نفسية الجمهور ، الذى يخاطبه ومعرفة سلوكه وخصائصه والعوامل التى تؤثر فيه ، والدوافع التى تحركه ، وكلها من موضوعات وخصائص علم النفس . فإذا درس الخطيب هذه الخصائص استطاع أن يغير أنماط السلوك السائدة فى جمهوره إلى ما هو أفضل ، واستطاع أن يستميل قلوب الناس نحوه ، وأن يصل إلى غايته وغرضه ، وأن يقود الجماعة إلى ما يريد ، ولذلك كانت دراسة علم النفس بأنواعه المختلفة من الدراسات التى لا يستغنى عنها القائمون بالخطابة .

ويجب على الخطيب أن يضع فى اعتباره تفاوت الناس المستمعة إليه ، وطريقة التأثير فيهم ، فما يؤثر فى أصحاب النفوس المطمئنة ، قد لا يؤثر فى أصحاب النفوس اللوامة ، وما يؤثر فى النفوس المطمئنة واللوامة ، قد لا يؤثر فى النفوس الأمارة بالسوء ، فأصحاب النفوس المطمئنة يتمتعون بالصحة النفسية الكاملة ، لما يتميز به كل واحد منهم بالشخصية المتكاملة السوية ، ولما يتميز به سلوك الفرد فيهم بأنه سلوك بناء ، وليس سلوكا هداما .

أما أصحاب النفوس اللوامة فإنهم يتمتعون بصحة نفسية غير كاملة لأنهم لا يستقرون على حال واحدة، فهم يترددون بين فعل الخير والشر، لذلك فهم في منزلة وسطى بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء.

والنفس اللوامة تلوم صاحبها على ارتكابه للعمل السيء. كما أنها تحاسب صاحبها على التقصير في العمل الصالح.

أما النفس الأمارة بالسوء فهي التي تأمر صاحبها بالشر والسوء وتزين له فعل الفحشاء وارتكاب المنكر وترك المعروف لأنها اختارت طريق الخطأ والتخبط في الظلام.

ومن هنا يلزم الخطيب كما يقول الشيخ على محفوظ أن يكون عالماً بأحوال الناس خبيراً بأمراض الإجتماع، ليدعو ويرشد كل فريق بما يناسبه، فإن كان يجهل أحوال الناس وعللهم، أخطأ كثيراً في إصلاح القلوب، وعلاج النفوس، وكان كمتطبب جرب دواء في مرض خاص فنجح، فصار يصف ذلك الدواء بعينه لكل مريض، وخطر ذلك على الأبدان جسيم، فكذا على القلوب.

(ج) علم الإجتماع:

قال الفارابي: إن الخطيب إذا أراد بلوغ غايته، وحسن سياسة نفسه في أموره، فليترخ طباع الناس وتلون أخلاقهم، وتباين أحوالهم.

وقال أفلاطون: لكل أمر حقيقة، ولكل زمان طريقة، ولكل إنسان خليقة، فعامل الناس على خلائقهم، والتمس من الأمور حقائقها، واجر مع الزمان على طرائقه.

وعلم الإجتماع بفروعه المختلفة يفتح الطريق أمام المصلحين الإجتماعيين لكى يقوموا بما يريدون عمله من إصلاح ، على أساس علمى صحيح .

ومن هنا نرى أن علم الإجتماع يفيد علم الخطابة كثيراً فالمجتمع هو المقصود بعملية التغيير ، والناس هم مادة هذا المجتمع ، وهم المقصودون ، والمراد ترغيبهم واقناعهم والتأثير فيهم .

والخطيب الجيد هو الذى يهتم بحال الناس ، ويجعل ظاهرة من ظواهر المجتمع الفاسدة موضوعاً لخطبته فيتناولها بالإصلاح .

كظاهرة شرب الخمر أو السرقة أو الإغتصاب مثلا فهذه ظواهر إجتماعية فاسدة يجب أن يبين خطرها على المجتمع وهى مهمة تقع على الخطيب ، الذى يتناول هذه الظواهر ويفندها من خلال آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ وبهـذا نرى قوة الإتصال بين علم الإجتماع وعلم الخطابة .

وعلى الجانب الآخر نرى أن علماء الإجتماع إذا أرادوا نشر شيء من الأشياء يهرعون إلى دور العبادة لكى يوضحوا للناس هذا الأمر ، لأنهم يعلمون أن الناس يأتون إلى دور العبادة طائعين مختارين ، وهذا الأمر لا يكون إلا من خلال الخطابة ، إذا تبين هذا علمنا أى صلة قوية وأى علاقة متينة تربط بين علم الخطابة وعلم الإجتماع .

ولكن لا ينبغى على الخطيب أن يقتصر على المعرفة بتلك العلوم فقط ، بل هناك من العلوم الإنسانية ما يحتاج إليها الخطيب كدراسة علم التاريخ والجغرافيا والأخلاق والجمال ، وغير ذلك من العلوم الإنسانية التى ترتبط بالخطابة ارتباطاً وثيقاً .

إن الخطيب الناجح هو الذى يحيط بسائر العلوم الإنسانية ليتمكن من الإحاطة من مخاطبة الإنسان بشكل ناجح ومفيد ، ويقصد الداء وهو يعرف دواءه ويستميل الناس حوله .

٢ — العلوم الإسلامية :

من المعلوم أن العلاقة بين الخطابة وبين العلوم الإسلامية مع كثرة موضوعاتها وتعدد تخصصاتها علاقة قوية ، إذ العلوم الإسلامية هى أسس الخطابة ومحور ارتكازها ، وعمودها الفقرى ، بل مصـــدر غذائها ومنهل ريها .

ذلك لأن الخطيب فى المجال الإسلامى لابد وأن يكون ملماً بأنواع المعارف الإسلامية المتعددة ، حتى يستطيع أن يؤدى رسالته بأمانة وإخلاص، ولن يستطيع ذلك إلا إذا كان عالماً بما يقول حافظاً للأدلة التى يحتاج إليها ، لأن فاقد الشىء لا يعطيه ، وهل يصف الدواء إلا من يعرف الداء ؟ وهل يعلم الناس من يجهل العلم ؟ الجواب كلا، بل لابد أن يكون على معرفة وعلم بهذه العلوم حتى يؤدى مهمته بنجاح ويسير فى طريقه إلى الأمام على بصيرة وعلم وهدى .

إن الخطيب فى المجال الدينى لا بد أن يكون ملمـــاً بالعلوم الإسلامية :—

(ا) القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة :

يجب على الخطيب أن يكون حافظاً للقرآن الكريم ، فهو الزاد الأول للخطيب ، منه يستمد الأدلة ، ومنه يستمد المعرفة لحقيقة دعوته لأن الآية القرآنية لها وقعها لدى المستمعين ، أيضاً يجب على الخطيب أن يكون

على قدر كبير من المعرفة بالأحاديث النبوية الشريفة وأن يحفظ الكثير منها ، لأن الأحاديث النبوية هي المبينة للقرآن الكريم ، المفصلة لمجمله ، ومن رياضها تكونت ثروة الفقه الإسلامي ولا يستطيع الخطيب مهما أوتي من البيان والفصاحة أن يستغني عن القرآن الكريم والسنة النبوية ، فهما أصل مصادر التشريع في الإسلام . وهما ميزان العدل الإلهي الصادق ، وعلى هديهما يستطيع المصلحون في كل وقت أن يقيسوا أعمال الأفراد والجماعات والأمم ، ولا يكون الإعتدال الكامل في الأخلاق والمعاملات والعبادات إلا بالكتاب الكريم وسنة الرسول ﷺ .

وقد عرف العرب مكانة القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ من الخطابة ، وكيف استفادت منهما استفادة كبيرة ، فكانوا يستحسنون أن يكون في الخطبة آي من القرآن الكريم ، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وحسن الموقع .

وقد خطب عمران بن حطان في مجلس من المجالس فلما سمعه من كان في المجلس قالوا : هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن .

لذا وجب على الخطيب أن يكون حافظاً للقرآن الكريم مجوداً له عالماً بعلومه ومعارفه ، وكذلك حفظ قدر كبير من أحاديث الرسول ﷺ ، فكم من خطيب رفعه القرآن الكريم بحفظه له — مكاناً علياً ، وكم من خطيب انصرف عنه الناس لعدم حفظه القرآن الكريم ، كما عليه أن يدرس علومه وتفاسيره .

(ب) مقارنة الأديان :

الواجب على الداعية الخطيب ذى البصر النافذ والبصيرة المنيرة أن يقف على الأمور من حوله يرقبها ويلاحظها ويدقق النظر فيها حتى يعلم الحق من الباطل ، والثمين من الغث ، والخير من الشر ، والهدى من الضلال والرشد من الغى ، فإذا علم ذلك استطاع أن يدفع الباطل ويرده فى دعوته وأن يناصر الحق والصواب على النهج القيم الذى رسمه الله تعالى للدعاة إليه فى قوله تعالى: «قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى»[1]

ولا يستطيع الخطيب الوصول إلى ذلك إلا إذا كان على علم وبصيرة بالأديان والملل والنحل الأخرى التى توجد فى المجتمع الذى يعيش فيه ، لأن دراسة هذه الأشياء مهمة جـــداً وهى بالنسبة للخطيب من الأشياء الضرورية ، التى لا يستغنى عنها فى دعوته فدراستها تنير له الطريق وتجعله على بينة من أمر هؤلاء .

(جـ) معرفة الأحكام الفقهية :

الخطيب الناجح ، هو الذى يعطى لمستمعيه علماً وديناً ، علماً صحيحاً ، وديناً حقيقياً ، لأن هدفه النجاح فى دعوته ورسالته ، ولا يستطيع الوصول إلى ذلك إلا إذا كان على علم بهذه الأحكام الفقهية واستنباطها من مصادرها الصحيحة ، حتى يكون صادقاً فى قوله ، واثقاً من فتواه وإلا فالأخبار الكاذبة غير مقبولة وليس لها مكان هنا قال ﷺ « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »[2] .

---

(١) سورة يوسف : ١٠٨

(٢) صحيح مسلم جـ ١ ص ٦ باب التحذير من الكذب على الرسول ﷺ

ومن هنـــا نستطيع معرفة العلاقة بين علم الخطابة وبين علم الفقه وأصوله .

(د) التاريخ الإسلامي :

على الخطيب إذا أراد النجاح والتقدم أن يكون على معرفة بالتاريخ الإسلامي من خلال السيرة النبوية الشريفة وغيرها من كتب التاريخ ، لأن من خلال هـــذه الدراسة يستطيع الخطيب أن يقف على الماضي والحاضر ، وأن يقف على المتغيرات في المجتمع المسلم ماضيه وحاضره ، ويستطيع أن يحدث الناس في غزوات الرسول ﷺ ، وجهاد المسلمين ضد أعداء الإسلام ، وأن يستخلص العبر والعظات التي يحتاج إليها في خطبه ووعظه .

من خلال ذلك نرى أن علم الخطابة يستفيد من كل العلوم الإنسانية والإسلامية ، حيث يأخذ الخطيب من كل على قدر حاجته ، فالخطابة الدينية تحتاج إلى مصادر غير التي تحتاجها الخطابة السياسية أو القضائية ، أو الحفلية ، أو العسكرية .

وهكذا نجد هذا العلم كالبستان واسع الجنان ، يقطف منه الجاني مايحتاج إليه من الزهور والرياحين .

المبحث الخامس

أقسام الخطابة

قسم اليونان قديماً الخطابة إلى ثلاثة أقسام تبعاً لأصول الزمان : من ماض ، وحاضر ، ومستقبل ، وسموها (التثبيتية) ، أو البيانية ، والشورية والقضائية .

فالأولى : تختص بالزمن الحاضر لمدح فترغيب أو ذم فتنفير .

والثانية : تتعلق بالمستقبل لحمل السامعين على جلب النفـــع للأمة أو دفع الضر عنها ، أو الحض على الحرب أو السلم ، وسن القوانين التى تسير عليها الأمة .

والثالثة : تختص بالماضى والغاية منها الدفاع عن متهم بتبرئته أو الحكم عليه بإدانته وهى من اختصاص المحامين ، ورجال النيابة .

وهذا التقسيم وضعه أرسطو فى كتابه المعروف بالخطابة ، ولعله لم يتعرض للخطابة الدينية لندرة استعمالها فى أمته ، ثم تطورت أحوال المعيشة المدنية والسياسية والدينية مما دعا إلى تبديل ذلك التقسيم وصار المعول عليه هو تقسيم الخطابة إلى : سياسية ، وقضائية ، وعسكرية ، ودينية وحفلية .

وإليك بيان هذه الأقسام :

الخطابة السياسية :

هى التى تلقى فى المجالس النيابية أو الشورية أو النوادى العمومية التى ينظر فيها النواب ورجال الشورى فى شئون الدولة وأمور الرعية لسن القوانين العادلة وتنظيم الدوائر الرسمية كالمالية ، والعدل ، والحربية ، والمعارف ومايناط بكل منها .

أهمية الخطابة السياسية :

لهــذه الخطب شأن كبير فإن عليها مدار حياة الأمة ورقيها مادياً وأدبياً والعمل فى الحرب والسلام وتكون فى الدول الدستورية الحرة سواء أكانت جمهورية يديرها نواب الأمة ، أم ملكية يخضع ملكها للدستور ، وهى من أصعب أنواع الخطابة لأن حركات الأمة نتيجة مدو جزر منشؤه سيطرة الأفراد على الجمهور ، أو الجمهور على الأفراد.

الصفات التى يجب توافرها فى الخطيب السياسى :

١ — أن يكون ذا دراية تامة بالقوانين الدولية ، والحقوق الشخصية والمدنية ملماً بأسرار الدولة الداخلية والخارجية وأحوالها المادية والأدبية لصلة ذلك بحياة الأمة فى صعودها وهبوطها فيتسنى له إظهار العدل ونصرة الحق وإدراك الصواب والعمل على ما فيه سعادة الأمة ورقيها .

٢ — أن يكون طلق اللسان ليستطيع أن يستعمل الأساليب الجلية المؤثرة فى الناس فى أى ناحية من النواحى التى تهم البلاد والعباد .

٣ — أن يكون مخلصاً فى محبته لوطنه بريئاً من كل أنانية وغرض شخصى أو تحيز لنصرة إنسان أو خذلانه فلايرى الحياة أمامه إلا حياة الأمة .

٤ — أن يبتعد عن الأمانى المريضة التى يمكن تحقيقها ، ومعنى ذلك أن لا يكون كذاباً دجالا حتى لا يظهر كـذبه ودجله وتضيع شخصيته وهيبته فى نظر الناس .

٥ — أن يكون شجاعاً يستطيع أن يملك نفسه عند الغضب ويرد على خصومه الرد المقنع ويقيم عليهم الحجة والدليل .

٦ — أن يكون حر الضمير فلا يملكه شخص أو هيئة فيقول ما يراه صالحاً مفيداً لوطنه بصرف النظر عن أى اعتبار آخر .

٧ — أن يدرس آراء المعارضين ليقوم بتنفيذها ويبين للناس ما فيها من عدم نفع وقلة جدوى وما فى مذهبه من مزايا ومنافع تعود على الناس بالخير والفائدة .

نموذج للخطابة السياسية :

من الخطب السياسية الجيدة خطبة للزعيم سعد زغلول قالها فى موضوع المفاوض مع المستعمر الإنجليزى ، وكان للأحزاب الأخرى مواقف متضاربة ، والنزاع بينهم شديد ، وهو فى خطبته هذه يؤكد لمستمعيه أنه لن يفرط فى شىء من حقوق البلاد مهما كان الثمن فقال :—

« إن الثقة التى شرفتنى الأمة بها لا يمكن أن تنعدم إلا فى واحدة من حالتين :—

إحداهما أن تعدل الأمة نفسها عن طلب حريتها واستقلالها وترضى الحماية وإنى أعيذها من هذا الخبال ، والثانية أن يكون موضع ثقة الأمة قد خالف مبدأها . فبدلا من أن يسعى للاستقلال سعى فى غيره وعمل لسواه ، وفى هذه الحالة لا يصلح أن يكون جزاؤه سحب الثقة منه فقط بل

يجب أن تحكم الأمة عليه بالإعدام ، ويكون حكمها من أعدل الأحكام ، وإنى أبيح دمى إذا رأيتم منى انحرافاً عن قصدكم ، أو تساهلاً فى حقوقكم أو خروجاً عن حدود المهمة التى عاهدتكم على القيام بها . وما عدلت ولن أعدل عنها مادام فى عرق ينبض ، أو نفس يتردد ، وإنى أحارب كل شخص يسير ضد هذه الخطة ويضع العقبات فى طريقها ، مهما كانت رابطته معنا ، وحالة من الصداقة لنا ، ولقد قاطعت كثيراً من أصدقائى لا لأسباب شخصية بل غيرة على القضية العامة ، وحرصاً على التمسك بحقوق الأمة ، فكل من رأيت فيه تهاوناً فى السعى ، وتواكلاً فى العمل ، أو تساهلاً فى الحق . وأعيتنى الحيلة فى إصلاح شأنه قطعت بينى وبينه كل صلة ولو كانت أقوى الصلات وأمتنها أفعل ذلك غير آسف لأن حقوق الأمة لا تقبل مجاملة ولا مسايرة لصاحب .

وبنظرة فاحصة لهذه الخطبة نجد أنها تدور حول حرص الزعيم سعد زغلول على مصالح الأمة ، وقد قدم الأدلة الكافية على ذلك من أنه وطنى يحب وطنه ويدافع عنه ضد المعتدين ولو كلفه حياته وكل هذا من غير أن يجرح أحـــداً من خصومه بل على العكس من ذلك دعاهم إلى الوقوف بجانبه والمطالبة بالاستقلال وأنه لن يفرط فى هذه القضية ولن يدع أحداً يقف فى طريقه حتى ولو كان من أعز الأصدقاء لأنه لا يجامل أحداً على حساب أمته .

والخطبة قوية فى أسلوبها وحجتها وتعبيرها وكل هـذا يرجع إلى نشأة سعد زغلول وتربيته الأزهرية فقد أثرت فيه تأثيراً كبيراً .

الخطابة القضائية

هى التى يلقيها رجال المحاماة أمام المحاكم القضائية أهلية كانت أو شرعية أو المجالس الحسبية لمساعدة العدالة على القصاص من الجانى وتبرئة البرىء ، وكـــذا ما يلقيه رجال النيابة أمام القضاء لإدانة الجنـاة .

أهمية الخطابة القضائية :

الفصل فى الخصومات على وجه الحق أمر عسير ، وحل معضلات القضايا ومعرفة الحق من الباطل ، وتحرى العدالة الحقيقية أمور فوق طاقة قدرة البشر ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أهميـة هـذا النوع من الخطابة فى قوله لنفر من الأنصار جاءوا ليختصموا إليـه فقال عليه الصلاة والسلام لهم : « إنما أنا بشر مثلكم وإنكم تختصمون إلى ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً ، فإنما أقطع له قطعة من النار »[1] .

فهذا الحديث الشريف يبين أن المحامى اللبق يستطيع أن يخدع القاضى وأن يلبس الباطل ثوب الحق ، ومن هنا يدعو إلى إيقاظ الضمائر وتحذير الناس من الحيد عن الحق ، وعلى القاضى أن لا يخـــدع ببلاغة الخطيب وأن يبحث القضية التى أمامه من الوجهة القانونية البحتة بحثاً دقيقاً يوصله إلى الحق وإقامة العدل بين الناس .

---

(١) صحيح الإمام مسلم جـ ٢ ص ٦٠ .

صفات الخطيب القضائى :

لما كان رأس مال الخطيب القضائى هو ثقة الناس به كان لسلوكه الشخصى تأثير كبير فى نجاحه وفى أعماله وإقبال الناس عليه لذلك لابد أن يتصف بالآتى :

١ — أن يكون عفيفا صادقاً أميناً ذا نشاط وإخلاص كريم الأخلاق .

٢ — أن يفسح صدره لسماع أقوال أصحاب القضايا من غير ملل أو ضجر .

٣ — أن يكون حسن الذكرى وجميل الأحدوثة حتى يعرف الناس له ذلك وأنه رجل الحق لا عبد المادة ،

٤ — أن يعمل على كسب ثقة المحكمة به فلا يترافع فى قضية إلا بعد الإحاطة بموضوعها تمام الإحاطة .

٥ — أن يكون مساعداً القاضى معيناً له على إنجاز العمل وتعرف وجه الحق والصواب وإصدار حكمه بالعدل . وأن يشعره بالفعل أنه ينتصر للحق ويعمل على إنصاف المظلوم .

٦ — أن يكون عالما بالحقوق التى يريد أن ينتصر لها بارعاً فى أساليب المطالبة بها أو الزود عنها واسع الإطلاع لاسيما فى هذا العصر .

٧ — أن يعبر عن أفكاره بعبارة واضحة منزها آراءه عن سماجة المكابرة ، ولسانه عن دنس المهاترة ، مراعياً كرامة المهنة . وحرمة القضاء هذا وتعتمد الخطبه القضائية على ما يأتى :

١ — أن يدرس الخطيب القضية درساً عميقاً شاملا لا يغيب عنه أدق جزئية منها .

٢ — أن يضعها فى الصورة القانونية الملائمة بحيث ينجح طلبه بأقصى ما يستطيع ، ويقنع القاضى أنه يعتمـد على القانون لا على التهريج والإثارة .

٣ — أن يصيغ خطبته فى صورة منطقية متسلسلة تسلم كل نقطة إلى تاليتها بدون أن يشعر السامع بفجوة أو انقطاع .

٤ — أن يكون قوى التعبير جيد الأسلوب وهـذا له أثر كبير فى إنجاح الخطبة القضائية .

ولا يخفى على أحـد ما للخطبة القضائية من أثر طيب . حيث تبين للقضاة وجه الحق والصواب فى القضايا المعروضة ، وهى التى تساعدهم على الفصل فى المنازعات المرفوعـة إليهم ، كما تعينهم على الحكم بين الناس بالعدل ، إحقاقاً للحق ، ونصرة للمظلوم وأخذاً على أيدى الجناة المعتدين الآثمين ، الأمر الذى يحقق الأمن والأمان والطمأنينة للمجتمع .

نموذج للخطبة القضائية :

حدثت مخاصمة بين أبى الأسود الدؤلى وزوجته فى ابن كان لهما أمام زياد بن أبيه وأراد أبو الأسود أن يضمه إليه ، فقالت الزوجة :

أصلح الله الأمير . هـذا ابنى كان بطنى له وعاء وحجرى له فناء وثدى له سقاء . أكلؤه[1] إذا نام وأحفظه إذا قام ، فلم أزل بذلك سبعة

---

(١) أرعاه وأحفظه

أعوام حتى إذا أستوفى فصاله وكملت خصاله واستوكت[1] أوصاله، وأملت نفعه، ورجوت دفعه أراد أن يأخذه منى كرهاً فآدنى[2] أيها الأمير، فقد رام قهرى وأراد قسرى[3].

فقال أبو الأسود: أصلحك الله. هذا ابنى حملته قبل أن تحمله ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه فى أدبه وأنظر فى أوده[4] وأمنحه وألهمه حلمى حتى يكمل عقله ويستحكم فتله.

فقالت الزوجة: صدق — أصلحك الله حمله خفاً وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة ووضعته كرهاً.

فقال له زياد: أردد على المرأة ولدها فهى أحق به منك ودعنى من سجعك[5].

خطب الصلح

مما يلحق بالخطابة القضائية خطب الصلح بين المتخاصمين، وهى فى الواقع عمل قضائى يحاول به الوسيط أو الوسطاء إحلال المودة والمحبة مكان الخصام والنفور، والغرض الأساسى من خطب الصلح هو إصلاح ذات البين وإزالة ما بين المتخاصمين من إحن وضغائن. وهذا النوع من الخطب معروف منذ العصر الجاهلى، حيث يتوسط الكبراء بين القبائل المتحاربة فى أعقاب الحروب أو يتحملون ديات القتلى كما فعل هرم بن سنان والحارث بن عوف فى حرب داحس والغبراء.

---

(١) أشتدت وصلبت　　(٢) قونى وأعنى
(٣) إجبارى وكرهى　　(٤) إعوجاجه
(٥) أمالى القالى جـ ٢ ص ١٥

واستمرت هذه الخطب فى العصر الإسلامى والأموى، لأن الإسلام يؤثر الصلح لما فيه من إزالة الشحناء من النفوس وكان رسول الله ﷺ متفائلا مبتهجاً بالحسن بن على رضى الله عنهما ويقول : أن الله سيصلح به بين فئتين من المسلمين .

أهمية خطب الصلح :

لهذه الخطب أهمية كبيرة وخاصة فى عصرنا الحاضر، عصر المنازعات والخصومات التى تقع بين الأفراد والعائلات، بل والجماعات وخصوصاً فى المنازعات التى تحدث فى الريف وبين القبائل فى صعيد مصر وما أكثرها فنحن فى أمس الحاجة إلى هذا النوع من الخطب التى تسام فى تحقيق الأمن والسلام والطمأنينة بين الأفراد والجماعات، وإزالة العداوة والبغضاء والخصام وإحلال المودة والصفاء .

ويكون تأثيرها فعالا إذا جعلها الواعظ موضوعاً عاماً لخطبة الجمعة حيث يسمعها الكثيرون من الناس فيكون نفعها كثيراً وخيرها عميماً .

وهذه الخطب تعقد لها مجالس خاصة يحضرها بعض الكبراء وبعض رجال الحكومة فيتداولون الرأى ويبحثون الموضوع ثم يأتى دور الواعظ ليلقى نصائحه مدعمة بالأدلة من القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ .

والاتجاه العام فى خطب الصلح أنها :

١ — تدعو إلى التسامح والعفو والمحبة وترغب فى الصفح وعدم الانتقام .

٢ — تنفر من المعارك وإراقة الدماء وما يحدث من خسارة مالية وبشرية بين المتحاربين .

٣ — الاستدلال بعفو الرسول ﷺ عمن أساءوا إليه من قومه حتى الذين حاربوه وعموا مراراً بقتله عندما قال لهم ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

٤ — زرع المحبة والوئام بين الأجيال القادمة خير من العداوة والخصام والشقاق وخير من توريث البغضاء والمطالبة بالثأر .

٥ — التذكير بنعمة الأمن والسلام وحياة الطمأنينة وهذا فيه خير كثير من حياة الحروب والدمار والهلاك التى لا تبقى ولا تذر بل تأتى على الأخضر واليابس .

٦ — أضف إلى ذلك ما يستشهد به الواعظ من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وحياة السلف الصالح .

نموذج لخطب الصلح :

خطب الأحنف بن قيس خطبة بعد فتنة حدثت بين قبائل العرب فى البصرة واشتركت فيها تميم ضد الأزد ، والأحنف تميمى فقال فى هذا : يامعشر الأزد وربيعة ، أنتم إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الصهر وأشقاؤنا فى النسب وجيراننا فى الدار ، ويدنا على العدو ، والله لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام . فإن استشرى شنآنكم وأبى حسك[1] صدوركم ففى أموالنا وأحلامنا سعة لكم .

---

(١) الحسك : الشوك وهو يريد الحقد

ففى هذه الخطبة يبين ما بين الأزد وتميم من رابطة الدين والمصاهرة والنسب والجوار، وأنهما يد على كل من يعاديهم ثم يبين لهم أن الأزد أحب إليهم وأقرب من غيرهم وإن كانت هناك أحقاد فى الصدور لما حدث فى الأموال والأحلام متسع لذلك فهذه أشياء عارضة لا تؤثر من قريب أو بعيد على ما يربط بينهم من صلات قوية وروابط متينة لا يمكن لها أن تزول .

الخطابة العسكرية

هى الخطب التى يلقيها قواد الجيوش على الجند قبل الحروب، يحضون فيها الجند على قتال الأعداء . والقصد منها الحث على الصمود والثبات فى ميدان الجهاد ونصرة الحق وبيان أن الوقوف لمجابهة العدو لن ينقص من الأجل، لأن الأجل محدد «لكل أجل كتاب»[1] وأن الهروب والفرار من الميدان لن يزيد فى الأجل «قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم»[2] وأن من يقف ويستبسل له إحدى الحسنيين، إما النصر والغنيمة وإما الشهادة والجنة ، كما أن خطرها عظيم فكثيراً ما يتوقف عليها إحراز النصر، فإن الجندى إذا تحمس بقول القائد نشط للقتال وجاهد العدو غير مبال بالخطر، كما أنها تبث فى الجنود الحمية والإقدام وتهوين الموت وتحسين التضحية فى سبيل الشرف والكرامة وفى سبيل ذلك على القائد أن يعظم شأن الوطن ، الذى تصدى للدفاع عنه ، وأن الحياة الحقة هى حياة العزة والكرامة ، لا حياة الذلة والمهانة والضعف والإستسلام ، كما يجب على القائد أيضا أن يلقى الضوء على العدو فيقلل من شأنه من جميع النواحى المادية والمعنوية حتى يرفع من روح جنوده، ويبين النتائج السيئة لو قدر للعدو الغلبة عليهم من تسلط وسفك للدماء واغتصاب

---

(١) سورة الرعد آية ٣٨

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٤

للأعراض وانتهاك المحرمات وأخذ الأموال ومحاربة المقدسات واستغلال الطاقات ونشر الفساد والإخلال بين العباد .

صفات الخطبة العسكرية :

١ — أن تكون موجزة بقدر المستطاع مراعاة المقام الذى تقال فية فهو فى حاجة إلى قليل الكلام وكثير الفعل .

٢ — أن يلقيها الخطيب بحماس شديد فيظهر هذا على ملامحه وصوته وإشاراته ونظراته ليخرجها متجسدة تثير فى نفوس الجند الحماس والقوة والاندفاع .

٣ — أن تكون الخطبة فى غاية الوضوح بحيث لا يخفى على أحد منها شيء ويدركها الجند بسهولة ويسر .

فإذا توفرت فى الخطبة هذه الصفات خرجت من فم الخطيب كلهب النار الملتهبة وحملت فى نفوس الجند عمل السهام الصائبة والنبال الراشقة فيتهافتون على نزال العدو غير مبالين بالموت .

٤ — وأهم من ذلك رسوخ العقيدة الإيمانية فى قلوب الجنود حتى يذودوا عن حياضهم بعزم وإخلاص لأن النصر من عند الله تعالى .

خواص الخطب العسكرية :

للخطب العسكرية خواص نذكر منها :

١ — بيان شرف الغرض الذى من أجله يحاربون ويتقدمون إلى مواطن العزة والشرف والكرامة .

٢ — بيان النتائج والآثار الطيبة للثبات وبذل النفس والنفيس فداء الوطن ، إما نصر وغنيمة ، وإما شهادة وجنة .

٢ — توضيح أن القائد ما هو إلا واحد من الجيش يصيبه ما يصيبهم وأن عمله وقوله فى ميادين القتال مطابق تماماً لما يقوله للجند ، لا يضع نفسه فى البرج العاجى وليس له من هم إلا الجعجعة والأقوال الرنانة الحماسية ، ثم يتخاذل إذا جد الجد أو يدفع غيره ثم هو بعد ذلك يضن بنفسه فيجبن ويتوارى بعيداً عن الساحة .

نموذج للخطبة العسكرية :

علم طارق بن زياد بدنو لذريق قبل فتوح الأندلس ، فقام فى أصحابه يحرضهم على الجهاد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة وأنتم لاوزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من عدوكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذه الطاغية ...

وقد انتخبكم الوليد بن الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ...

واعلموا أنى أول مجيب إلى مادعوتكم إليه وإنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى .

الخطابة المحفلية

١ — خطب التأبين

هذه الخطب تقال فى مناقب الرجال عند وفاتهم وفاء لهم على ما أسدوا من جميل وخير وفعل حسن ، وحثاً للسامعين على اقتفاء آثارهم والسير فى طريقهم ، عزاء للمكلومين بهم ، أومشاركة فى الحزن عليهم، أوللإشادة بذكرهم ، لأن فى أظهار مناقبهم عزاء للراثين ، أو إظهار الألم والأسى .

أقسامها :

تنقسم خطب التأبين إلى قسمين : —

١ — قسم تحليلى تدرس فيه نفس الرجل ، وأخلاقه وأعماله وآثاره .

٢ — قسم لمجرد الثناء والمدح ، وذكر المناقب ، وأحسن المسالك.

ما يجب على الخطيب :

١ — أن يبدأ خطبته بتلاوة آية من القرآن الكريم أو حديث من أحاديث الرسول ﷺ أوبيت شعر أو حكمة تشير إلى زوال هذه الدنيا، وأن ما فيها إلى فناء وزوال ، لا إلى دوام وقرار .

٢ — يبين ألم الفقد الذى نال الناس بموت ذلك العظيم ، والرزية التى عمت ، ولم تخص ، والكارثة التى شملت الجميع لفقده .

٣ — يتجه إلى مناقب المتوفى فيذكرها ثم إلى آثاره التى خلفها فى أمته فيبينها .

٥ — ثم ينتقل بعد ذلك إلى حث السامعين على اقتفاء أثره ، والسير على مناهجه ، والعمل بمثل ما عمل ، وبهذا ينهى خطبته .

سمات خطب التأبين :

١ — يجب أن تكون ألفاظها سهلة وأساليبها عذبة، لأن الرثاء حديث النفس بالألم والحزن .

٢ — يجب أن تكون فى نبرات الصوت ونغماته ما يشعر بالحزن العميق وينبىء عن الألم الدفين .

نماذج لخطب التأبين :

١ — من أجود ما جاء فى التعزية ما روى أنه ﷺ كتب إلى معاذ بن جبل رضى الله عنه يعزيه فى ولد له مات : « من محمد رسول الله إلى معاذ ابن جبل سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد :

فعظم الله لك الأجر ، وألهمك الصبر ورزقنا وإياك الشكر ، ثم إن أنفسنا وأهلينا وموالينا من مواهب الله السنية ، وعواريه المستودعة تمتع بها إلى أجل معدود ، وتقبض لوقت معلوم ، ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى ، والصبر إذا ابتلى وكان ابنك من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة متعك به فى غبطة وسرور ، وقبضه منك بأجر كثير . الصلاة والرحمة والهدى إن صبرت واحتسبت ، فاصبر ، ولا يحبط جزعك أجرك فتندم واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً . ولا يدفع حزناً ، فأحسن الجزاء وتنجز الموعود وليذهب أسفك ما هو نازل بك فكأن قد » .

٢ — وقف محمد على قبر أبيه الحسن بن على بن أبي طالب رضى الله عنهم وقد اغرورقت عيناه بالدموع وقال : « رحمك الله يا أبا محمد فلئن عزت حياتك فلقد هددت وفاتك ، ولنعم الروح روح تضمنه بدنك ، ولنعم الجسد جسد تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمنه لحدك ، وكيف لا تكون كذلك وأنت سليل الهدى وخامس أصحاب الكسى وخلف أهل التقى ، غذتك أكف الحق وربيت فى حجر الإسلام ، ورضعت ثدى الإيمان ، فطبت حياً وميتاً ، فلئن كانت الأنفس غير طيبة لوفاتك إنها غير شاكة أن قد خير لك وإنك وأخاك لسيدا شباب أهل الجنة ، فعليك منا يا أبا محمد السلام » .

٣ — ومن أبلغ الخطب التى تثير الحزن فى النفس ، وتبين منزلة المفقود خطبة الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه فى رثاء أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال رضى الله عنه :—

« رحمك الله أبابكر كنت إلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنسه، وثقته ، وموضع سره ، كنت أول القوم اسلاماً ، وأخلصهم إيماناً وأشدهم يقيناً وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناء فى دين الله ، وأحوطهم على رسول الله ، وآمنهم على أصحابه . أحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ، وأقربهم برسول الله صلى الله عليه وسلم سنناً وهدياً ، ورحمة وفضلا ، وأشرفهم منزلة، وأكرمهم عليه ، وأوثقهم عنده ، جزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيراً ، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر ، صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كذبه الناس ... واسيته حين بخلوا ... وصحبته فى الشدة أكرم الصحبة ، وكنت ثانى اثنين وصاحبه فى الغار ، ورفيقه فى الهجرة ، وخليفته فى دين الله ..

وكنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفا فى بدنك، قويا فى دين الله، متواضعا فى نفسك، عظيما عند الله، جليلا فى أعين الناس، كبيرا فى أنفسهم ... اعتدل بك الدين، وقوى الإيمان، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون، وأتعبت من بعدك إتعابا شديدا، وفزت فوزا مبينا فإنا لله وإنا إليه راجعون، رضينا عن الله قضاءه، وسلمنا له أمره، فو الله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبدا ولما أتى من خطبته رضى الله عنه بكى الناس حتى علت أصواتهم.

٢ — خطب المدح والشكر

هى التى يثنى فيها على عظيم أو ذى فضل ومنة والأسباب الحقيقية للثناء هى الفضائل النفسية لاغير وتنقسم هذه الخطب إلى قسمين:

١ — قسم تاريخى تقريرى، كمدح عظماء الرجال فى حياتهم، لا الزلفى لهم والتقرب منهم، ولكن دراسة لأحوالهم، وبيانا لصفاتهم وتقريرا لمذاهبهم.

٢ — قسم يكون بذكر المناقب والصفات إعلاء لشأن الممدوح وتشريفا له، لابتغاء منفعة منه، أو لإظهار شعوره نحوه، وما يكنه له من إجلال واحترام.

مسلك الخطيب فى خطب المدح والشكر:

يسلك الخطيب المادح مايراه أقرب لوصف ممدوحه وصفا حقيقيا، فإن أثقل أنواع المدح ما كان الكذب فيه ظاهرا والنفاق فيه واضحا، ومن هنا فعليه أن يبين بصدق مايلى:

١ — سجاياه وأخلاقه وصفاته التى رفعته وجعلته فى تلك المنزلة السامية.

٢ — ثم يبين أياديه البيضاء على الجماعة التى يعيش فيها، وفضله عليها إن كان له عليها فضل، وعليه إن كانت له عليه أياد.

٣ — يذكر شرفه النسبي وفضل أسرته، ونبلها وكرمها، وما اشتهرت به من صفات حميدة سامية إذا كان ممن لهم شرف نسبي.

وخطب المدح والشكر سواء بسواء لدى الخطيب فما يقال فى المدح يقال أيضا فى الشكر.

٤ — يذكر فضائله النفسية التى عرف بهـــا بين الناس كالحكمة والشجاعة والعفة والعدل والسخاء وعلو الهمة وعزة النفس والحلم والرحمة بالضعفاء.

٥ — يذكر ماعنده من العلوم النافعة وما حصل عليه من المعارف الصحيحة المفيدة لما وهبه الله من سعة العقل ومنحه من سرعة الإدراك فبرع فى العلوم وفاق أقرانه فى اتقان الفنون حتى صار آية الزمان وكعبة العرفان.

٦ — يذكر ماتم على يديه من جلائل الأعمال النافعة له ولأمته فى هذه الحياة ويأتى بما يفيد التفخيم لكأن يقول: إن الممدوح هو أول من فعل هذا الشيء، أو أنه فعل فى زمان يسير ما شأنه أن يفعل فى أزمان كثيرة، فذلك خير طريق لإدخال السرور عليه وأدعى إلى التأسى به.

نموذج لخطب المدح والشكر:

خطب الأستاذ الإمام محمد عبده يمدح أستاذه السيد جمـــال الدين الأفغانى فقال: أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمى إلا بنوع من الإشارة إليها، لهذا الرجل سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها، كأن كل معنى قد خلق له، وله قوة فى

حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش فنظرة منه تفك عقدها كل موضوع يلقى اليه يدخل البحث فيه كأنه صنع يديه فيأتى على أطرافه ويحيط بجميع أكنافه ويكشف ستر الغموض عنه فيظهر المستور منه ، وإذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ، ثم له فى باب الشعر قدرة على الإختراع ، وله لسن فى الجدل وحذق فى صياغة الحجة لا يلحقه فيها أحد إلا أن يكون فى الناس ما لا نعرفه ، وكفاك شاهدا على ذلك أنه ما خاصم أحدا ولا جادله عالم إلا ألزمه «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» .

٣ — خطبة النكاح

هى الخطبة التى تقال عند عقد القرآن لتهنئة الزوجين وأسرتيهما وبيان فضل الزواج وأثره الطيب بين العائلتين من الترابط والمحبة والمودة وانجاب النسل الصالح الذى يفيد المجتمع ، وتشابه الفروع بالأصول حيث يوضح الخطيب ما للأسرتين من أصل طيب وسمعة كريمة ومعدن أصيل مما له الأثر الطيب فى النفوس .

ما يجب على الخطيب مراعاته :

١ — عدم استخدام العبارات المنمقة .

٢ — إظهار الرغبة الصادقة فى الزواج والتعهد بحسن العشرة ودوام الطاعة .

٣ — أن يذكر الجالسين بزواج الصالحين وكيف تم هذا الزواج حتى يكون الناس على بينة من أمر دينهم فلا غلو ولا مغالاة كما حدث فى زواج السيدة فاطمة الزهراء بعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما .

نموذج لخطبة النكاح :

من خطب النكاح المشهورة فى التاريخ خطبة أبى طالب عم رسول الله ﷺ ، عند زواج الرسول عليه الصلاة والسلام من السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها وفيها قال أبو طالب :

«الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله بن أخى من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا وإن كان فى المال قل فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى» .

وقد كان اتفاق الزوجين رسول الله ﷺ وأول أم للمؤمنين قد سبق ، وكان معروفا لذويهما . وقد قال فيه والد خديجة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ : «ذلك الفحل لا يجدع أنفه» يريد بهذا الكلام أنه خطيب لا يرفض ، وقد زكاه أبو طالب وأثنى عليه بما لا ينكره عليه أحد .

المبحث السادس

الخطابة الدينية

الخطابة الدينية إما أن تكون خطبة لصلاة الجمعة أو العيدين أو في الحج ، فهي خطبة منبرية ، وإما أن تكون في مجتمع يراد تبصيره بشأن ديني أو إرشاده إلى ما فيه سعادته دنيا وأخرى فهي خطبة عامة ، وهي ضرورية للدعوة الإسلامية لأن الدعوة واجبة التبليغ وهي ليست كائناً متحركاً بذاته حتى تصل وحدها إلى قلوب الناس وأفئدتهم ، ولكنها مفهوم معنوي يطبقه مخلوق مكلف بعد أن يدركه ويحيط به[1] .

ومن هنا كان لابد من دعاة يدعون الناس إليها ويردون على خصومها بالحجة والمنطق القويم وعرضها على المستمعين عرضا حسناً تستمال به القلوب وتقتنع به العقول ، ولن يكون ذلك إلا إذا وجد صاحب اللسان القادر على الإقناع بالحجة والموعظة الحسنة .

تاريخ الخطابة الدينية :

لقد كان لكل أمة من الأمم يوم يحددون به بدء الأسبوع ونهايته، وجاءت الأمة الإسلامية وكان لابد لها من أن تتميز بشخصية متكاملة في كل ما يهمها في دنياها وآخرتها ، وكان من فضل الله عز وجل أن هداها إلى يومها الذي يحدد الأسبوع وكان يوم الجمعة .

وحقيقة الخطبة الدينية أنها تشمل كل شئون الحياة ، لأن الدين

---

(١) علم الخطابة د/أحمد غلوش ص٣٠

الإسلامى يقوم على العقيدة والعبادة والمعاملة ، وبه قانون شامل لكل ما يقابل الناس فى حياتهم من زراعة وصناعـــة وبيع وتجارة ، ولهذا اشتملت خطب النبى ﷺ على كل ما ينفع المسلمين ويحتاجون إليه فى حياتهم ومعادهم فكانت المثل الأعلى الذى يحتذيه الخطيب الدينى الموفق والخطبة الدينية فى ظل الدين الإسلامى ، قد عرفت منذ أقيمت شعائر صلاة الجمعة ومن هنا لابد أن نتعرف على تاريخها .

أول جمعة أقيمت فى الإسلام :

قال ابن سيرين: اجتمع أهل المدينة قبل أن يقدم رسول الله ﷺ إليها وقبل أن تنزل الجمعة وهم الذين سموها الجمعة ، ذلك لأن الأنصار قالوا : لليهود يوم يجتمعون فيه كل أسبوع ، وكذا النصارى ، فهلم فلنجعل يوما نجتمع ونذكر الله ونصلى ونشكره ، فجعلوه يوم العروبة ، وكانوا يسمون يوم الجمعة يوم العروبة ، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم ركعتين وذكرهم فسموا الجمعة حين اجتمعوا أليه وذبح لهم أسعد شاة ، فتغدوا وتعشوا من شاة ، وذلك لقلتهم . فأنزل الله عز وجل فى ذلك : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله »[1] .

وعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كنت خرجت مع أبى الجمعة حين ذهب بصره ، فكان إذا سمع الأذان الجمعة ترحم أبى على أسعد بن زرارة واستغفر له وقال: لأنه أول من جمع بنا بالمدينة فى هزم النبيت من حرة بنى بياضة فى نقيع يقال له نقيع الخضمات قال : قلت كم كنتم يومئذ ؟ قال: أربعون رجلا . فهذه أول جمعة أقيمت بالمدينة[2] .

---

(١) عمدة القارى شرح صحيح البخارى جـ٦ ص ١٦١ والآية ٩ من سورة الجمعة

(٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ٢ ص ٥٨

والذى صنعه أسعد بن زرارة كان بتوجيه من النبي ﷺ ، فإن الجمعة فرضت على النبي عليه الصلاة والسلام وهو بمكة قبل الهجرة ، كما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فلم يتمكن النبي ﷺ من إقامتها بمكة المكرمة من أجل الكفار وتضييقهم على المسلمين ، فلما هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام مع أصحابه إلى المدينة كتب إليهم يأمرهم أن يجمعوا فجمعوا على نحو ما تقدم ، ولقد صلى بهم أسعد ركعتين لأن الصلاة فرضت أولا ركعتين ركعتين كما روى ذلك عن عائشة رضى الله عنها ، وإنما زيدت فى الحضر بعد الهجرة بقليل أو بنحو عام[1] .

أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بالمدينة :

لما هاجر رسول الله ﷺ وصل إلى قباء يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة الموافق ٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢ م[2] وأقام بقباء فى بنى عمرو بن عوف ، يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسس المسجد ، ثم خرج يوم الجمعة فأدركته الصلاة فى ديار بنى سالم بن عوف فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى ، فكانت أول جمعة صلاها عليه الصلاة والسلام بالمدينة[3] .

---

(١) الخطابة الدينية نظريا وعمليا د/ محمد الشنيورى ص ٥١ ، ٥٢

(٢) تاريخ العالم الإسلامى د/ محمد محمود زيادة جـ١ ص ١٩٠

(٣) السيرة النبوية لابن هشام جـ٢ ص ١٠٠ باختصار

أول خطبة خطبها الرسول — ﷺ — :

قال رسول الله — ﷺ — بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس قدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ، ألم يأتك رسولى فبلغك وآتيتك مالا وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك فينظر يميناً وشمالا فلا يرى شيئاً ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يتقى بوجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإنها تجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله »[1] .

فرضية الجمعة :

أكد الإسلام فرضية الجمعة بقول الله — عز وجل — : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع »[2] .

وقول الرسول — ﷺ — : « ليَنتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين » وعن حفصة — رضى الله عنهما أن النبى — ﷺ — قال : « رواح الجمعة واجب على كل محتلم »[3] .

وعن أبى الجعد الضمرى وله صحبة أن رسول الله — ﷺ — قال :

---

(١) زاد المعاد جـ ١ ص ٩٩
(٢) سورة الجمعة ، الآية : ٩ .
(٣) سنن النسائى .

« من ترك ثلاث جمع تهاوناً طبع الله على قلبه »[1] ، وعن طارق بن شهاب رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — قال : « الجمعة حق واجب على كل مسلم فى جماعة إلا أربعة : عبد مملوك أو امرأة أو صبى أو مريض »[2] .

مشروعية الخطبة للجمعة :

عن جابر رضى الله عنه أن النبي — ﷺ — كان إذا صعد المنبر سلم »[3] .

وفى رواية : كان رسول الله — ﷺ — إذا صعد المنبر يوم الجمعة استقبل الناس فقال السلام عليكم ، وذلك يدل على مشروعية التسليم من الخطيب على الناس بعد أن يرقى المنبر ، وقبل أن يؤذن المؤذن .

ولقد كان الأذان للجمعة على نحو ما روى فى البخارى ، فعن السائب ابن يزيد رضوان الله عليه قال: « النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله — ﷺ — وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فلما كان عثمان رضى الله عنه وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء ولم يكن للنبي — ﷺ — مؤذن غير واحد ، وفى رواية « فلما كانت خلافة عثمان وكثروا أمر عثمان رضى الله عنه يوم الجمعة بالأذان الثالث فأذن به على الزوراء ، فثبت الأمر على ذلك .

ومن الحديثين السابقين نتبين أن عثمان رضى الله عنه زاد الأذان الثالث أى بالنسبة لأنه مزيد على الأذان والإقامة ، وإنما أحدثه لإعلام

---

(١) رواه الخمسة .　　(٢) رواه أبو داود

(٣) رواه ابن ماجة .

الناس بدخول وقت الصلاة . قياساً على بقية الصلوات وألحق الجمعة بها، هكذا نجد أنه كان الجمعة على عهد رسول الله - ﷺ - أذان واحد بين يدى الخطيب ، وفى عهد عثمان رضى الله عنه جعل الأذان الثانى للعلم بدخول الوقت ، وكان ذلك بمحضر من الصحابة ، ولم ينكر واحد منهم ولا يعقل أن يتواطئوا على ضلالة[1] ، وكان ذلك الأذان بالزوراء فى السوق ولم يكن بالمسجد وهذا خلاف ما عليه الناس اليوم ولا يحتج به على عمل الناس .

(١) الخطابة فى الإسلام / د / مصلح بيومى ، د / جمعة الخولى ص ٥١ ، ٥٢

المبحث السابع

طرق تحصيل الخطابة

من المعروف أن الخطابة منصب خطير . ومرتقى صعب المنال ، لا يصل إليها طالبها بيسر ، بل يحتاج مبتغيها إلى زاد عظيم ، وصبر ومعاناة ، واحتمال المشاق ، ليصل إلى تلك الغاية السامية[1] ، وطرق تحصيل الخطابة ما يلي :

١ ـ الفطرة والاستعداد الفردي وهذا هو الأساس فالخطابة ملكة فطرية ، توهب ولا تكتسب ، وتمنح فلا تباع وتشترى ، تنبع من داخل الإنسان ولا تفرض عليه من خارجه .

يقول د / أحمد الحوفي : إن الخطيب كالشاعر والموسيقار والرسام لا بد أن يكون في فطرته استعداد لهذا الفن البليغ . ينبع من نفسه ويمده ، ونحن نعلم أن الناس متباينون في ميولهم وفي استعدادهم ، فمنهم من لا تهزه المناظر الرائعة أو المروعة ، ومنهم من يصمت أمام هذه المناظر دهشاً مذهولا ، ومنهم من تجيش بالأحاسيس نفسه ، فيعبر عن جيشانه بكلمات مصورة ، لما يحس ، والخطيب والشاعر والكاتب من هؤلاء الذين إذا ما ثارت عواطفهم وجدت لها متنفساً فعبروا وصوروا[2] .

ومن عناصر الموهبة القدرة على مواجهة الجمهور والتحدث إليه بغير

---

(١) الخطابة الشيخ أبو زهرة ص ٢٣

(٢) من الخطابة د / أحمد الحوفي ص ١٠

قلق أو اضطراب وهذا لا يحدث عند كل الناس بل إن منهم ، من لا يملك هذا العنصر وقد كان أمير الشعراء أحمد شوقي يهز الدنيا بقصائده ولكنه لم يستطع أن يلقي أبياتا من شعره في محفل من المحافل أو جمع من الناس ، وكان يعهد لذلك إلى من عنده المقدرة والشجاعة من الخطباء المعروفين بحسن الإلقاء ، كذلك من عناصر الموهبة الخطابية الصوت المعبر الذي يملك الأسماع بحلاوة جرسه وعذب رنينه ، كذلك لابد أن تتوفر في الخطيب القدرة على التعبير المتدفق بفصاحة ونطق سليم حتى يكون تأثيره في الناس قويا وسريعا ، كذلك يجب أن يكون الخطيب مقبول الصورة خفيف الظل .

٢ — معرفة الأصول والقوانين التي وضعها الحكماء لأنها ضرورة حتى تؤتي الخطبة ثمارها المرجوة ويستفيد منها المستمع وإلا كانت مجرد كلمات تقال لا تجدي نفعاً ولا تؤتي ثمراً ، ومن هنا وجب على من وهبه الله تعالى ملكة الخطابة ، أن يقوم بدراسة علم الخطابة ، ليقف من خلال دراسته على ما يتعلق بالخطابة من تعريفها وفائدتها ومراحل تاريخها وعلاقتها بالعلوم الأخرى ، وليقف أيضا على ما يتعلق بالخطبة من كيفية اعدادها وأدائها ، وعوامل نجاحها وبيان أنواعها وأقسامها ، وليقف أيضا على ما يتعلق بالخطيب من أهمية ومكانة وآداب وصفات ، وحقوق وواجبات ، ثم يقف على ما يتعلق بالمخاطبين من أقسام وأحوال واتجاهات ، فالإحاطة بمثل هذه المسائل من خلال دراسة علم الخطابة تجعل الخطيب يدعو إلى الله تعالى على بصيرة وبينة ، ومن هنا تكون دعوته أفضل وأتم .

٣ — الإكثار من مطالعة أساليب البلغاء وخطب الخطباء ودراستها دراسة يتعرف من خلالها على نواحي التأثير وجهات الإقناع فيها ويتذوق ما فيها من متانة الأسلوب وحسن العبارة وجودة التفكير .

٤ — الإطلاع على كثير من العلوم التى تتصل بالجماعات، كالإقتصاد، والشرع، والأخلاق، والإجتماع، وعلم النفس، والأديان، فإن الاطلاع على هذه العلوم فوق أنه ينمى فكره، ويوسع مداركه، يجعله على بصيرة فى مهمته، ويضع أمامه المصباح الذى يهديه إلى طرق التأثير، فيصيب غايته، وينال غرضه[1].

٥ — التدريب والتمرين والممارسة العملية وذلك لأن الخطابة ملكة نفسية لا توجد دفعة واحدة، بل لا بد لطالبها من الممارسة والمران كى تنمو مواهبه إن الخطيب الجيد، لاغنى له عن المران والممارسة حتى لو ملك موهبة الخطابة، ودرس أصولها، وألم ببقية عوامل تحصيلها فالموهبة وحدها لا تكفى، ومن ثم فهى فى حاجة ماسة إلى ما يصقلها وينميها، فالخطيب بالتدريب والمران المستمر يمكنه أن يتغلب على كثير من عيوبه، إنه فى هذا يشبه الممثل الموهوب الذى يلتحق بمعهد التمثيل ليدرس أصول الفن وقواعد الإلقاء، ويتدرب على التمثيل تدريبا عمليا.

وقد رأينا فى التاريخ المعاصر زعماء، وقواد أصبحوا خطباء مهرة بفضل التدريب، والمران حيث فرضت عليهم مناصبهم ومراكزهم القيادية أن يواجهوا الجماهير وأن يكونوا خطباء فيهم[2].

---

(١) الخطابة للشيخ محمد أبو زهرة ص ٢٤، فن الخطابة للشيخ على محفوظ ص ١٧

(٢) المرجع السابق ص ٢٥

المبحث الثامن

مراحل اعداد الخطبة وتكوينها

لإعداد الخطبة وتكوينها لا بد أن تمر بهذه المراحل الآتية وهي :

١ ــ مرحلة اختيار الموضوع :

وهذه المرحلة هي الأساس لبناء الخطبة وأهمها ، فلو طلب من إنسان إلقاء خطبة من الخطب فعليه أولا أن ينظر إلى من سيتكلم إليهم ومن يخاطبهم وفي أي موضوع من الموضوعات تكون خطبته وفي أي مناسبة من المناسبات ومن هنا فإن مرحلة اختيار الموضوع لا بد أن يراعي فيها الآتي :

(ا) عقلية المخاطبين وتنوع تلك العقليات حتى يستطيع الخطيب أن يلون دعوته لمخاطبيه والناس قد خلقوا وجبلوا على ثلاثة أقسام :

علماء أصحاب عقول صحيحه وبصائر ثابتة .

عوام الناس الذين يملكون نفوساً كدرة ولم يبلغوا حد الكمال .

أصحاب جدل وخصام ومعاندة وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الفئات الثلاث بقول الله تعالى : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن »[1] .

---

(١) النحل : ١٢٥

فالبشر بالنسبة لكمال الطبع طرفان وواسطة ، فالطائفة الأولى التى تتجه إليها الحكمة هى طرف الكمال والطائفة الثالثة المجادلة هى طرف النقصان والطائفة الثانية صاحبة الموعظة هى طرف الواسطة[1] .

فعلى الخطيب أن يراعى ذلك التقسيم فى طوائف الناس وعقلياتهم حتى يستطيع أن يأتى لكل قوم بما يناسبهم من البيان والدليل ، فليس ما يخاطب به العلماء يصلح لأن يكون وعظا العامة من الناس ، وعندما يراعى الخطيب تلك الإعتبارات يستطيع أن ينفع بخطبته الخاصة والعامة والجاحد والمعاند ، وأن تكون دعوته مطابقة لمقتضى الحال .

(ب) المناسبة التى سيجعلها موضوعاً لخطبته ، فالمناسبات كثيرة فهناك المناسبات الدينية كخطبة الجمعة والعيدين والمناسبات الاجتماعية كخطبة النكاح وخطب التأبين والعزاء وغير ذلك من المناسبات ، ومن هنا فالواجب على الخطيب أن يراعى المناسبة التى سيتكلم فيها ، فمناسبة العيد غير مناسبة الحزن والمناسبة الدينية غير المناسبة الوطنية والخطيب الجيد هو الذى يفصح عن ذلك فى صدر خطبته .

وخير مايعين الخطيب فى اختياره الموضوع المناسب للمخاطبين ، أن يعمد إلى قضايا الساعة التى تشغل أذهان الناس ، وتتشكل منها ظروفهم ، فيتخير منها أبرزها وأعمها سيطرة ، ليجعله محور خطبته ودائرة موضوعه وذلك أجدى له ، وأنفع لمستمعيه .

(حـ) نفسية المخاطبين فيجب على الخطيب أن يختار موضوعاً مناسباً لنفسية الجماهير المستمعة له ، والناس يختلفون من مكان إلى آخر ، فمستمع

---

(١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى جـ ٥ ص ٥٣٦

(٢) البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ص ١٢٩

المدينة غير مجتمع القرية ، ومجتمع العمال يختلف عن مجتمع المثقفين ومن هنا فيجب على الخطيب أن يراعى ذلك فى موضوع خطبته حتى ينجح فى مهمته ، إذ المجتمعات كالأفراد لكل منها نفسيته الخاصة به واستعداداته سواء كانت فطرية أو مكتسبة ، فالمجتمعات الزراعية والريفية نفسية تختلف عن نفسية المجتمعات الصناعيـــة ، والخطيب الناجح هو الذى يستطيع أن يدرس تلك النفسيات المختلفة من خلال تحركه ونشاطه فى المجتمع الذى يعيش فيه ، ومن خلال ذلك يستطيع أن يختار الطريقة الصحيحة لتأدية موضوعه ، كما يستطيع أن يؤثر على العقل الفردى والجمعى[1] .

المرحلة الثانية : — إيجاد العناصر وتركيبها :

وفى هذه المرحلة يجب على الخطيب أن ينظم موضوعه ويجعله فى عناصر مترابطة بحيث لا تخرج هذه العناصر عن موضوع خطبته وأن تكون مسلسلة كحبات العقد لا يستغنى بعضها عن البعض الآخر ، بل تكون فى مجموعها عقداً متماسكاً فإذا أراد الخطيب مثلا أن يتكلم فى موضوع الاستقامة فلتكن عناصر الموضوع هكذا :

١ — استقامة الإنسان مع الله عز وجل .

٢ — إستقامة الإنسان مع نفسه .

٣ — إستقامة الإنسان مع أهله وأسرته .

٤ — إستقامة الإنسان مع الناس .

ثم تأتى النتيجة أو الهدف من موضوع خطبته وهو الاستقامة وأثرها فى المجتمع .

---

(١) أسس علم الاجتماع د/حسن شحاته سعفان ص ٣٨

والذي يعين الخطيب في تعيين عناصر موضوعه الرجوع إلى المراجع العلمية والقراءة فيها قراءة مستوعبة، هذا بالإضافة إلى عرض الفكرة وعناصرها على عقله، وقد سمى ابن سينا هذه المرحلة بالعمود لأنها الأساس المتين في الخطبة وعليها المعول الأكبر في الترتيب والتنسيق، وعلى الخطيب أن يحدد عناصر خطبته، ويميز كل عنصر على حدة، على أن يجعل العناصر كلها تتفق وتدور حول موضوع واحد[1].

المرحلة الثالثة : اختيار الأدلة :

وهذه المرحلة تساعد الخطيب على بيان موضوعه وإفهامه للمستمعين حيث أن الدليل هو ما يتوصل به إلى بيان صحة الحكم سلباً أو إيجاباً، فمصادر الخطبة الدينية أساسها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وكتب الفقه، وكتب الثقافة الإسلامية عموماً، وما دار حول ذلك من دراسات واجتهادات العلماء.

إن الخطيب الجيد يستطيع بالعناصر المدعمة بالقرآن الكريم والسنة النبوية أن يحرك القلوب الهامدة، ويحي العزائم الميتة، ويعمر النفوس الخاوية، بل يشفي صدور قوم مؤمنين.

أيضا على الخطيب أن يدعم عناصر خطبته بالأدلة التي لها مكانة في قلوب المستمعين، وسلطان على أفئدتهم، وحسن تأثير في عقولهم، مثل آثار السلف الصالح، وأقوال أئمة المسلمين وكبار علمائهم، وزعماء الاصلاح فيهم، أما إن تجردت عناصر الخطبة من الأدلة، فهي كفيلة بجعل عناصرها هشيما تذروه الرياح، بل لإصابة الخطيب بالفشل الذريع.

---

(١) قواعد الخطابة د/ أحمد غلوش ص ٤٣

يقول الإمام ابن سينا : إن الحجج فى الخطابة تكتسب من المواضع وهى المصادر التى يمكن الخطيب أن يتخذ منها مايستدل به على دعواه ، فمن طلب الاقناع وهو لايعلمها كان كحاطب ليل يسعى على غير هداية ، لا لبخل فى الموضوع بل لنقصان فى الاستعداد(١) .

أيضا على الخطيب أن يدعم خطبته بالقصص الحق الذى يقوم بعرض تعاليم الإسلام فى صورة عملية حية تحرك الوجدان طمعاً فى النعيم المقيم المعد للطائعين ، ورهباً من العذاب الأليم المعد للعاصين .

المرحلة الرابعة : التعبير الخطابى :

هـــذه المرحلة هى نهاية المطاف لإخراج الخطبة من حيز الفكر والتخطيط الى حيز الأداء والتنفيذ ، ومن هنا يجب على الخطيب أن يعطيها أهمية خاصة وعناية فائقة ، بأن يعد موضوعه ويحضر خطبته حتى يكون كلامه مركزاً ومنظماً ، فيفيد جمهوره ويرضى ضميره ، ويحاول أن يكون الموضوع موضوع الساعة ومشكلة الأسبوع حتى يربط بين الدين والدنيا يفكر فى موضوعها ويرتب عناصرها فى نقاط ، ثم يشرح تلك النقاط مستنداً على القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ . وأقوال السلف من الأئمة والصالحين وأعمالهم ، ويستخلص النتائج الطيبة التى تناسب الظروف الراهنة والأحوال الطارئة وبذلك يشد انتباه المصلين إليه ويجعلهم ينتظرون موعد الخطبة بفارغ الصبر والخطيب الناجح ينظر فيما حوله من الأمور المهمة والأحداث اليومية التى تشغل الناس فى أحاديثهم ، وتدور على ألسنتهم ، ولها آثار بينة بينهم ثم يتخير من هذه الأحداث أجلها وأعظمها ، ويجعلها موضوع خطبته فإن كان موضوعه مثلا : التنفير من شرب الخمر يفكر فى الأضرار الصحية والمالية والخلقية والاجتماعية

---

(١) الخطابة للشيخ أبو زهرة ص ٣٠

فوق ما أعده الله تعالى من العقاب الأليم لشارب الخمر ، وإن كان موضوعه دعوة إلى عمل نافع ، يفكر فى آثاره الجليلة ومنافعه العظيمة فى الدنيا وما أعده الله فى الآخرة من النعيم لفاعله .

ومن الأفضل للخطيب أن يخلو إلى نفسه قبل الخطبة أو الكلام فيها ، ثم يذهب فى هدوء يتصور نفسه قائماً فى الموقف الذى سيكون فيه ، ثم يشحذ عقله ومواهبه لمواجهة هذا الموقف واحتمالاته ، إن هذا كالرياضى الذى يقوم بأداء التسخين وفك العضلات واللياقة البدنية قبل موعد المباراة وملاقاة الجمهور ، كذلك الخطيب بقدر اتقان أساليب الخطابة والاستعداد لها والمران عليها مراناً كافياً يكون النجاح الباهر للخطيب إن شاء الله .

المبحث التاسع

الخطيب

من المعلوم أن مهمة الخطيب فى الإسلام مهمة خطيرة وصعبة للراس، ونجاح الخطبة فى كثير من الأحيان ، يتوقف على شخصية الخطيب الذى يقوم بها ، وهذه الوظيفة لا يصلح لها كل إنسان ، لأنها تتطلب مواهب وصفات خاصة لا تتوفر لكل الناس .

فمهة الخطيب تستلزم الإتصال بالناس ، ومواجهة الجماهير ، والتحدث إليها ، والتأثير فيها ، فهى نوع من القيادة تحتاج إلى كفاءة خاصة ، ويجب أن يكون لدى الخطيب الموهبة الفطرية والاستعداد الشخصى لمواجهة الجمهور والتحدث إليه ، وأن يكون على قدر من الذكاء ، وصاحب شخصية جذابة وقدرة على التأثير فى الغير .

أهمية الخطيب ومكانته فى الإسلام :

ــ الخطيب فى الإسلام يتمتع بمكانة عليا ، ومنزلة عظمى ، لأن عمله من أجل الأعمال وأشرفها ، وأعلاها وأسماها وأنفعها للإنسان فى الدنيا والآخرة قال تعالى : «ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين »[1] .

وهذا العمل هو امتداد لما قام به الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام

---

(١) فصلت : ٣٣

وهم صفوة الخلق والسلالة المنتقاة من أفراد البشرية والأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام لم يتركوا لمن بعدهم دراهم ودنانير، وإنما تركوا لهم العلم ميراثا يسعد به الناس جميعا، والمشتغلون بالدعوة على وجه الخصوص ولذلك قال النبي ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(١).

— وتزداد أهمية الخطيب ويعظم قدره، بمقدار دوره وجهده ومدى تأثيره وتوجيهه في نشر الدعوة إلى الله تعالى، لأن الدعوة ليست كائنا حيا يستطيع الحركة السريعة من تلقاء نفسه، بل لا بد لها من خطيب يدعو الناس إليها بالحكمة والموعظة الحسنة ويؤديها على علم وبصيرة كما قال تعالى: «أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة»(٢).

— كما تزداد أهمية الخطيب ومكانته في المجتمع بما يتمتع به من تقدير واحترام من الناس المحيطين به، وهذا من خلال ما يقرره الإسلام من أنزال الناس منازلهم، وإعطاء الفضلاء منهم حق قدرهم، قال تعالى: «ولا تبخسوا الناس أشياءهم»(٣) وقال الرسول ﷺ: «أنزلوا الناس منازلهم»(٤).

ولو نظرنا إلى الخطيب نجد أنه واحد من هؤلاء الذين يحظون دائما بالتقدير والاحترام من الناس جميعا، لما يعرفون له من فضل ومنزلة

---

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى جـ١ صـ٥٢

(٢) النحل: ١٢٥

(٣) الأعراف: ٨٥

(٤) رواه الإمام أبو داود في سننه

وحق ، اعترافا بريادته لهم ، واعلانا بإمامته الدينية وهى إمامة لا يدانيها أى منصب من المناصب الدنيوية . لماذا ؟ لأن الخطيب هو الذى يتكلم ويخاطب الناس ناصحاً موجهاً إلى الخير بينما المستمعون إليـــه جميعهم آذان صاغية ، وأذهان واعية لاستقبال مــا يرسله الخطيب من إرشاد وهداية . والخطيب أيضا هو الذى يؤم الحاضرين فى الصلاة والمستمعون يتبعونه ويقتدون به فلا يدخلون فى صلاتهم إلا بعد أن يبدأ . ولا ينتهون منها إلا بعد أن ينتهى .

ــ كذلك تزداد أهمية الخطيب وتعظم مكانته ، لأنه القائم بعملية الإصلاح الدائمـة ، وانقاذ الأفراد والجماعات من أمـراض النفوس ، وأدواء القلوب ، التى هى فى أمس الحـاجة إلى الطبيب الروحى ، الذى يشخص الداء ويقدم له الدواء النافع ، وأمراض القلوب أشد خطراً ، وأعسر علاجاً من أمراض الجسد كما يقول الأستاذ مصطفى مشهور : إن أمراض القلوب التى تنحرف بصاحبها عن الغاية ، أشـــد خطراً من أمراض الأجساد ، لأن أمراض الأجساد أثرها على الجسد الفانى فترة الحياة الدنيا . أما أمراض القلوب فأثرها ممتد مـــع الروح الباقية فترة الدنيا والآخرة ، إن أمراض القلوب تفسد النية وتحبط العمل » .

ويؤكد هذا المعنى الأستاذ البهى الخولى : « مهمة الداعية شاقة ، لأن الإنسان كثير المراء والجدل ، سريع الانتفاض والعصيان ، فقد يكون نقل جبل أسهل على المرء من توجيه إنسان إلى خطوة واحدة يكرهها ، ولكن ما أطوع الإنسان لنداء قلبه إذا ناداه إلى خير أو شر ، وما أصبره على ما يصيبه حينئذ من مشقة الجهد ونفقة المال ، بل ما أجمل ذلك وألذه لديه ، إن القلب هو القوة العجيبة التى تسخر هـــذا الناص العنيد فى معيشتها ، وهذا من حسن حظ الإنسان ، فإن الداعية الحكيم يستطيع أن يركز جهده ، وانتباهه فى مخاطبة هذا القلب ، ومحاولة إرضائه ،

والنفوذ إليه ، حتى إذا امتلك عنانه قاده فى رفق ورضى وسرور ، إلى الإصلاح الذى يرجوه له » .

— كذلك تزداد أهمية الخطيب وتعظم مكانته ، حين نعرف الأهداف التى يسعى إلى تحقيقها ، والغايات التى يحرص على ايجادها على مستوى المخاطبين ، فالخطيب دائما يسعى من وراء عمله إلى تأليف قلوب الناس وتطهيرها من آفات الشقاق ، كما يهدف الخطيب إلى توحيد الصفوف ومحاربة التفرق والشتات ، وإلى الإلتزام بالفضيلة والبعد عن الرذيلة ، وإلى قيام التعاون بين الناس جميعا على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان كما يحثهم على الإقبال على الطاعات وترك المنكرات .

ويبين لنا الشيخ على محفوظ رحمه الله أهمية الخطباء والوعاظ فى حياة الأمة فيقول : « الأمة التى ينتشر فيها الوعاظ والخطباء تحيا بمقدار كثرتهم وتأثيرها ، وأن المعنى الذى يتناولونه فى نصحهم وإرشادهم يكون أكثر إنتشاراً وأشد رسوخاً فى نفوس تلك الأمة ، وأن الأمة إذا فرطت أو أفرطت فى شىء يستعان دائما على اعتدالها بوعاظها وخطبائها ، فالواعظ الماهر ، والخطيب الحكيم ، يستطيع بما وهبه الله عز وجل ، من نور الحكمة ، وقاطع الحجة ، وساطع البرهان ، وقوة البيان ، ومتانة علمه ، بتركيب وتأليف هذه الأدوية النافعة ، أن يصحح القلوب من أمراضها ، وينبه العقول من غفلتها ، ويطهر النفوس من أدران النقائص والرذائل ، وينير أمامها السبل الموصلة إلى الرشد ، حتى ترجع عن غيها ، وتعود إلى حد الاعتدال ، وتتحلى بالفضائل والكمال » .

صفات الخطيب الدينى

إن الدعاة إلى الله تعالى هم أمناء الله على شرعه ، والمحافظون على دينه القويم ، القائمون على حـــدود الله ، ومن خلال ذلك لابد من توافر صفات معنية فى الخطيب الداعية، حتى يكون قادرا على أداء واجبه على الوجه الأكمل ، وأن يكون كلامه مقبولا فى السامعين من هذه الصفات:

١ — تقوى الله عز وجل :

من الصفات الهامة التى يجب أن يتحلى بها الخطيب فى الإسلام تقوى الله سبحانه وتعالى ، لأن التقوى زاد الروح والقلب، منها يستمدان القوة والعافية ، وفيها الغذاء والرى، والإنسان كما يجد فى طعامه وشرابه غذاء وريا لبدنه ، وعافية وقوة لجسمه، فإنه يجد فى تقوى الله وخشيته مايروى ويغذى ويقوى روحه وقلبه مصداق ذلك قول الله تعالى «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب»[1] :

كما يجب على الخطيب فى الإسلام أن يكون حظه موفورا من تقوى الله زائدا عن نصيب المسلم العادى ، لأن الخطيب قدوة لمستمعيه، وأسوة لمخاطبيه ، وهذه القدوة والأسوة لاتتحقق إلا من خلال التزود الروحى والقلبى من التقوى .

٢ — الخوف من الله :

يجب على الخطيب أن يكون شديد الخوف لله ، عظيم المراقبة له فى وعظه وحاله متأثرا بما يقول، فهذا شأن الخطيب الناجح المؤثر فى جمهوره

---

(١) البقرة ١٩٧

«روى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه خطب مرة بالقرآن فقرأ إذا الشمس كورت ، حتى انتهى إلى قوله تعالى «وإذا الجحيم سعرت» فبكى أهل المسجد حتى ارتج المسجد كله بالبكاء حتى ظننت حيطان المسجد كأنها تبكى معه ومع الناس» .

والخوف من الله تعالى والمراقبة له تجعل الخطيب الداعية بعيدا عن الغرور والمباهاة والافتخار ، فإذا حدث من ذلك شيء قطع كلامه حتى لاتقع الفتنة من الناس كما حدث من عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند ما خطب فأدق كلامه فأبكى الناس جميعا ، ثم قطع كلامه والناس ينتظرون أن يكمل فلم يكمل، فقال له رجاء بن حيوة يا أمير المؤمنين، كلمت الناس بما أرق قلوبهم وأبكاهم ، ثم قطعته أحوج ما كانوا اليه ، فقال يا رجاء : إنى أكره المباهاة» .

٣ — العلم بالقرآن والسنة :

يجب على الخطيب أيضا أن يكون عالما بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فهما الينبوع الذى يستقى منه الخطيب والواعظ ، والركيزتان اللتان يعتمد عليهما فى علمه ووعظه ، كما أنها أسرار التشريع والأحكام وعلى قدر علم الخطيب بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ، تكون الصلة القوية بينه وبين الله عز وجل ، فالداعية إلى الله صديق لكتابه الكريم يألف تلاوته ويتعرف على أسراره وأحكامه حتى يكون على بينة مما يقول للناس ، فلا يقول للناس إلا صدقا ، ولا ينقل لهم إلا حقا .

٤ — أن يكون عالما بما يقول فاهما له على الوجه الصحيح ، لأن

الجاهل يفسد أكثر مما يصلح ، قال تعالى : «ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع قليل ولهم عذاب أليم»(١) .

قال الحسن البصري : العامل على غير علم كالسائر على غير طريق ، والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح» . والخطيب يتحدث عن الله عز وجل وعن رسول الله ﷺ ، وكثيرا ماينطق بعبارة : قال الله تعالى وقال الرسول ﷺ . فإذا أهمل الخطيب حظه من العلم ، كان نموذجا سيئا الدعاة إلى الإسلام من جهة ، ومن جهة أخرى يقع فى الخبط والخلط والقول على الله تعالى ورسوله ﷺ بغير علم ومن ثم يكون ضرره أكبر من نفعه ، وما يفسده أكثر مما يصلحه ، بل لا يكون هناك إصلاح ، إذا الجاهل لايميز بين الحق والباطل ، ولا معرفة عنده ترشد إلى إصلاح القلوب وتهذيب النفوس ، وفى الحكم : «من سلك طريقا بغير دليل ضل ، ومن تمسك بغير أصل زل» .

٥ — العمل بعلمه :

ويجب على الخطيب أيضا أن يكون عاملا بعلمه ، فلا يكذب فعله قوله . ولا يخالف ظاهره باطنه ، ومن هنا لا يأمر بالشيء إلا إذا طبقه على نفسه ، ولا ينهى عن الشيء إلا إذا نهى نفسه عنه ، ليكون وعظه مفيدا وإرشاده مثمرا ، فلو حدث من الخطيب أن أمر الناس بالخير ولم يفعله ، أو نهى عن الشر وهو واقع فيه ، كان الخطيب عقبة فى سبيل الإصلاح وهيهات أن ينتفع به ففاقد الشيء لا يعطيه .

---

(١) النحل : ١١٦ — ١١٧

وقد وبخ الله تعالى أحبار اليهود فقال تعالى : «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون»[1].

وقال مالك بن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا ، فمن حث على التحلي بفضيلة وهو عاطل عنها ، أو أمر بالتخلي عن رذيلة وهو ملوث بها ، لا يقابل قوله إلا بالرد ويكون محل سخرية في نظر العقلاء».

وقال الشاعر :

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى	الضنى كيما يصح به وأنت سقيم
وأراك تلقح بالرشاد عقولنا	أبدا وأنت من الرشاد عقيم
أبدأ بنفسك فانهها عن غيها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم

فالخطيب الناجح ، هـو الذى يتعظ ثم يعظ ، ويبصر ثم يبصر ، ويهتدى ثم يهدى ، ولا يكون سراجا يضىء الناس ويحرق نفسه، بل يجب عليه أن يكون كالمسك يطيب غيره وهو طيب ، وكالشمس تفيد القمر الضوء ولها أفضل مما تفيده ،

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من النار فقلت من هؤلاء ياجبريل قال : الخطباء من أمتك ، الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون»[2] .

---

(١) البقرة : ٤٤ (٢) رواه ابن حبان فى صحيحه .

وقال الحسن البصري : الواعظ من وعظ الناس بعمله لا بقوله ».

٦ — أن يكون خبيراً بما يدعو إليه ، لأن الدعوة إلى الله عز وجل تعليم وتربية لا بد فيها من الدراية بأصول القواعد التربوية ، والأحوال النفسية والجاهل بهذه الطرق يخفق كثيراً في مهمته ، فقد يضر حيث يظن أو يعتقد أنه ينفع ».

ومعنى هذا أن الخطيب يسير في دعوته إلى الله مسترشداً بهذه الآية الكريمة قال تعالى مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من بعده « أدع إلى سبيـــل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن »[1].

٧ — أن يكون الخطيب عفيفاً غير متطلع لما عند الناس ، وبهذا يكون سيداً في قومه محبوباً لديهم ، أما إذا تطلع إلى دنياهم أدى هذا إلى تحقيره وسقوطه في نظرهم ، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رجلا قال يا رسول الله ، أوصني وأوجز فقال : « عليك باليأس عما في أيدي الناس فإنه الغنى ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وصل صلاتك وأنت مودع ، وإياك وما يعتذر منه »[2].

وقال الحسن البصري : لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع في دينارهم فإذا فعل ذلك استخفوا به وكرهوا حديثه وأبغضوه ». وقال أعرابي لأهل البصرة : من سيدكم ؟ قالوا : الحسن ، قال : بم سادكم ؟ قالوا : احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو عن دينارهم ، فقال : ما أحسن هذا إن الخطيب الذي يتطلع المستمعون إلى حسن قوله وصالح عمله وسيرته ينبغي أن يكون نموذجاً مشرفاً وصورة مشرقة مضيئة لما يدعو إليه

---

(١) النحل : ١٢٥ (٢) رواه الحاكم وصححه .

الإسلام من التحلى بمكارم الأخلاق التى من بينها وفى مقدمتها : العفة والقناعة ومن هنا أجمع علماء فن الدعوة على ضرورة تحلى الخطيب بالعفة والقناعة حتى يستطيع أن يجهر بالحق فى جرأة وشجاعة ، وحتى لا يهوى بالطمع والتكالب فى درك الذل والمهانة والمداهنة ، قال الإمام الغزالى « إن من كثر طمعه وحرصه ، كثرت حاجته إلى الناس، فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق ، ويلزمه المداهنة ، وذلك يهلك دينه » .

وليس معنى هذا أن يخلد الخطيب إلى النوم والكسل والخمول وأن يرتمى فى أحضان الفقر ، بل على العكس من ذلك فإن العفة تدفع صاحبها إلى الإرتقاء فوق ذل الحاجة وإلى الطموح الذى يصنع الحياة الكريمة وإلى الشعور بالغنى النفسى الناجم عن الرضى بما قسم الله للإنسان فى هذه الحياة الدنيا وعدم التطلع إلى ما عند الآخرين من جاه قال أحد الخلفاء لأحد العلماء : إرفع إلينا حاجتك ، قال : أن تدخلنى الجنة ، وتزحزحنى عن النار . قال : ذاك ليس لى . قال : مالى حاجة غيرها . قال : إسأل حاجتك من الدنيا . قال : إنى لم أسألها من ربى . فكيف أسألك إياها » .

وهذا الموقف من العلماء صادر من قول الرسول ﷺ « : ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس »[1] وقوله عليه السلام « إن روح القدس نفث فى روعى أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .

ومن هنا فليحرص الخطباء على أن يتحلوا بخلق العفة ، ليظلوا أعزاء مرفوعى الرأس ، قادرين على أن يقولوا ما يريدون فى شجاعة وجرأة ، لا خوف من أحد ، ولا رهبة من سلطان .

---

(١) متفق عليه .

٨ — أن يكون متواضعاً :

كما يجب على الخطيب أن يكون متواضعاً ، مجانباً الكبر أو العجب ، وأن لا يبخل بتعليم ما يحسن ، ولا يمتنع من إفادة الناس ما يعلم ، فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : « من علم علماً فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار ، وقال ﷺ : [1]« ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله »[2] .

فعلى الخطيب أن يتواضع من غير مذلة ، فلا يتكبر على أحد من الناس ، وذلك لأن التواضع للناس من أعظم الوسائل التي ينشر بها دعوته بينهم ، والتواضع هو خفض الجناح والتودد للمؤمنين ، قال تعالى : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين »[3] .

يقول الإمام الشوكاني في تفسير هذه الآية : يقال خفض جناحه إذا ألانه ، وفيه استعارة حسنة والمعنى : ألن جانبك وتواضع لمن اتبعك من المؤمنين ، وأظهر لهم المحبة والكرامة وتجاوز عنهم ، وإذا كان هذا في حق سيد الدعاة وأمير البيان ﷺ فأن الخطباء من بعده في كل زمان ومكان مأمورون بالتواضع مع الناس حتى تؤتى الدعوة الثمرة المرجوة منها ، ومن غير شك أن التواضع يجعل الخطيب محبوبا من مجتمعه فيستمع إليه الناس ويتأثرون بكلامه ويقتدون بفعله ، كما أنه يعتبر وسيلة فعالة في نشر دعوته بين الناس .

قال الإمام الشافعي رحمه الله عن التواضع : التواضع من أخلاق

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك .

(٢) صحيح الإمام مسلم .   (٣) الشعراء : ٢١٥

الكرام والتكبر من شيم اللئام ، لأن الكبر صفة مذمومة ذمها الله تعالى فقال عز وجل : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين »(١) .

ومن هنا يجب على الخطيب أن يتواضع حتى لا يكون من المتكبرين الذين طبع الله على قلوبهم « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار »(٢) .

ويجب على الخطيب أيضاً أن يكون طيب الحديث مع الناس مبتسماً فى وجوههم رفيقاً بهم فقد قال إمام الخطباء وسيدهم ﷺ « الكلمة الطيبة صدقة »(٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام « إن الله يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف »(٤) .

والخطباء جميعاً الأسوة والقدوة الحسنة فى رسول الله ﷺ فقد كان مثالاً فى التواضع مع عزة النفس ، وهو كما نعرف الشريف فى نسبه العظيم فى خلقه وخلقه وصاحب المنزلة السامية والرتبة العلية ومع ذلك كان ﷺ قمة فى تواضعه لله عز وجل .

٩ — الحلم وسعة الصدر : يجب أن يكون الخطيب حليماً واسع الصدر حتى يستطيع أن يعالج أمراض النفوس وهو هادىء النفس مطمئن القلب ، لا يستفزه الغضب ولا يستثيره الحمق ، فتنفر منه القلوب وتشمئز منه النفوس ، وقد دعا الله عز وجل النبى ﷺ إلى الحلم وسعة الصدر فقال تعالى : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك »(٥) .

---

(١) القصص : ٨٣ (٢) غافر : ٣٥
(٣) رواه مسلم . (٤) رواه مسلم .
(٥) آل عمران : ١٥٩

ومن المعلوم أن الخطيب عادة يتعرض لطبقات مختلفة من الناس، منهم الخلوق المهذب ، ومنهم الشرس العنيد ، وبالحلم وسعة الصدر يستطيع الخطيب أن يفسح صدره الجميع ويعامل كل واحد منهم بالقدر الذى ينفعه ويستفيد منه ، وهذا هو المطلوب من الخطيب حتى يستطيع كسب الناس لدعوته ، والخطيب المتصف بهذا يكون مصباحاً ينير الطريق السالكين، ومرشداً يهتدى الجميع به ، ويطبقون سلوكه وأقواله وأفعاله، بل يكونون أداة فعالة فى نشر منهجه بين الناس ، وهكذا يكون الخطيب فى مجتمعه ، فهو بمثابة الطبيب الذى يعالج أمراض النفوس والقلوب معاً ويصف لها العلاج الناجح كل حسب مرضه ، وهو أيضاً الأب الحنون الذى يحنو على أبنائه ويتحمل أذاهم ، ويعفو عن إساءتهم ، قلبه يسع الجميع ، وصدره ينشرح القائم والجالوس معهم لا يكن ضيق الصدر ، غليظ القلب ، بل عليه أن يعفو عن الظالم وأن يصل المحروم ، ويكون حليما مع الناس الذين يعيشون معه .

وقد أمر الله عز وجل بالعفو فى قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »[1] .

١٠ — الشجاعة والثبات على الحق :

من المعلوم أن صلة الخطيب بالله عز وجل ، تورث فيه الشجاعة ، والثبات على الحق ، وعدم الخوف إلا من الله سبحانه وتعالى ، فلا يخاف فى الله لومة لائم ، وهذا بدوره يؤدى إلى نشر دعوته بين الناس ، لأن المجتمع إذا رأى داعية شجاعاً جريئاً ثابتاً على الحق فإنهم يلتفون حوله ويؤيدون دعوته ، وبذلك يستطيع بشجاعته وثباته على الحق أن ينشر

(١) سورة الأعراف : ١٩٩

دعوته بين النـاس . عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : « بايعنـا رسول الله — ﷺ — على أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » ، فالخطيب كالطبيب الذى يراعى حالة المريض فيبين له وينصحه ، ويصف له الدواء المناسب ، والخطيب لا يخشى الناس فى الحق ، بل عليه أن يوضح ويبلغ ليعرف النـــاس الخير فيلزموه ، والشر فيجتنبوه . فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ -: «لا يحقرن أحدكم نفسه قالوا يا رسول الله وكيف يحقرن أحدنا نفسه ؟ قال : يرى أن لله عليه مقالا ثم لا يقول فيه فيقول الله عز وجل يوم القيامة ما منعك أن تقول فى كذا وكذا ؟ فيقول: خشية الناس فيقول: فإياى كنت أحق أن تخشى »[1] .

وعن أبى ذر الغفـارى رضى الله عنه قال : أوصانى خليلى بخصال من الخير أوصانى أن لا أخاف فى الله لومة لائم وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مرا »[2] .

وعلى الخطباء أن يقتدوا بالرسول - ﷺ - فى شجاعته وثباته على الحق ، فقد واجه أعداءه فى بداية الدعوة وهو أعزل من كل أنواع الأسلحة ، إلا سلاح الإيمان بالله ، والثقة فى حمايته ورعايته .

ومن هنا واجه - ﷺ - تهديد الأعداء بعزيمة لا يتسرب إليها الضعف وإرادة لا تلين لها قناة فقال لمن ساوموه مهددين باستخدام القـوة على الكف عن تبليغ الدعوة قال قولته المشهورة التى تعبر عن الشجاعة والثبات على الحق مهما كانت النتائج بعد ذلك : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركتـه » .

---

(١) سنن ابن ماجة ورجاله ثقات .

(٢) رواه ابن حبـان فى صحيحه .

وعليهم أيضاً أن يكون لهم المثل فى أئمتهم البواسل الذين ضربوا أروع الأمثلة فى الاقتداء بسيد المرسلين - ﷺ - فى الثبات على المبدأ والشجاعة فى كل وقت إنه الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى فقد امتحن وكاد له خصومه حتى أدخل السجن، وقدر له أن يموت فيه، ولكنه ظل على رأيه، مستمسكا بالحق الذى يؤمن به غير مبال بما أصابه فى سبيل الله قائلا كلمته المشهورة: ماذا يصنع خصومى بى؟ إن سجنى خلوة، ونفيى سياحة وهجرة، وقتلى شهادة فى سبيل الله، ولما أدخلوه سجن القلعة فى دمشق، ورأى سورها تلا قوله تعالى: «فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب»[1].

والخطيب يجب أن يكون ذكياً لبقاً فى دعوته، ويمكن له أن يحارب الظالم ولا يسكت عليه، عن طريق التلميح لا التصريح، إذا كان التصريح سيوقعه تحت طائلة العقاب، المانع له من الدعوة، وخصوصاً إذا كان فى زمن كبتت فيه الحريات، واستعمل الحكام فيه القهر والشدة، دون التزامهم بالقانون.

مع أنه لا يجب السكوت نهائياً على الباطل وترك المنكر حتى وإن أصاب الداعى بعض الضرر، فقد دعا سيدنا لقمان ابنه إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على ما يصيبه بسبب الدعوة فقال له، كما يحكى القرآن الكريم: «يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور»[2].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٣.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٧.

١١ — قوة البيان وفصاحة اللسان :

يجب على الخطيب أن يكون قويا فى بيانه، فصيحا فى لسانه، وإلا كان النفع بعيداً، وقد سأل موسى عليه السلام ربه حين بعثه إلى فرعون لتبيين حجته، والإفصاح عن أدلته فقال: «واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى»[1] وقال أيضاً: «وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى»[2] وكل هذا رغبة منه عليه السلام فى غاية الإفصاح بالحجة والمبالغة فى وضوح الدلالة.

وإذا كان اللسان أبين كان أقوى وأجل، ولذلك كانت مهمة الرسالات السماوية هى البيان والتبيين، قال تعالى: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم»[3] وقال عز وجل مخاطباً رسوله ﷺ: «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم...»[4].

والذى يظهر البيان ويوضحه ما يلى:

١ — الحفظ :

المقصود بالحفظ هنا هو حفظ الشواهد والأدلة التى يستدل بها الخطيب على موضوعه الذى يخاطب من خلاله جمهور المستمعين، فلابد له من حفظ هذه الأدلة وخاصة الآيات القرآنيـــة والأحاديث

---

(١) سورة طه، الآية : ٢٧، ٢٨.
(٢) سورة القصص، الآية : ٣٤.
(٣) سورة إبراهيم، الآية : ٤.
(٤) سورة النحل، الآية : ٤٤.

النبوية الشريفة ، فلا يعيب الخطيب أن يجلس فى بيته بعض الوقت ليعد خطبته ويحفظ أدلته وشواهده ويوثقها ، إنما الذى يعيب الخطيب وينزل من قدره ومكانته أن يصعد على المنبر ثم يطلب الدليل من آية قرآنية أو حديث نبوى شريف فلا يجد ذلك فى ذهنه حاضراً .

٢ — النطق الحسن :

النطق الحسن يعتبر الدعامة الأولى للإلقاء الجيد ، وإذا اعترى النطق ما يفسده ضاع الإلقاء ، وإذا ضاع الإلقاء ضاعت الخطبة ، وفقد الخطيب ما يسمو إليه من وراء البيان .

والنطق الجيد كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة يحتاج إلى أربعة عناصر لابد من توافرها :

(أ) تجويد النطق :

بأن يخرج الحروف من مخارجها الصحيحة ، فلا ينطق بالثاء سيناً ، ولا بالذال زاياً ، ولا بالجيم كما ينطق العامة ، وهكذا كل مخارج الحروف فيجب على الخطيب أن يعنى بخروج الحرف من ينبوعه ، صادراً عن مخرجه من غير تكلف ولا تشادق ولا توعر ، بل فى يسر ورفق وسهولة .

(ب) مجانبة اللحن وعدم الوقوع فيه :

يجب أن يعنى الخطيب بتصحيح الكلام الذى ينطق به ، وملاحظته فى مفرداته وعباراته فيلاحظ بنية الكلمات ملاحظة تامة ، فلا ينطق مثلا بكلمة سوقة بفتحتين كبعض الخطباء ، فيذهب ذلك بروعة القول وبيانه .

(ح) تصوير النطق للمعانى تصويراً صادقاً :

وذلك بأن يعطى كل كلمة وكل عبارة حقها ، ويظهرها بشكل تتميز به عن سواها ، فالجملة المؤكدة ينطقها بشكل يدل على التوكيد والجمل الإستفهامية ينطق بها بشكل يتبين منه الإستفهام .

(د) التمهل فى الإلقاء :

وهو ألزم الأمور للخطيب ، لأن الإسراع فى الإلقاء عيب يجب التخلى عنه لما يأتى :

١ — النطق السريع ينتج عنه تشويه المخارج ، وخلط الحروف بعضها ببعض .

٢ — الإسراع المفرط يجعل الخطيب يهمل الوقوف عند المقاطع الحسنة .

٣ — الإسراع لا يعطى المستمع الفرصة الكافية لفهم ما يسمع ، وتذوق اللفظ وجودة المعنى فينصرف عن الإصغاء .

٤ — الإسراع يجعل الكلمات تحتاج إلى مجهود صوتى أكبر ، ليصل الكلام إلى الآذان ، أما التمهل فيجعل الصوت يسرى إلى السامعين بأيسر مجهود .

العيوب البيانية :

يجب على الخطيب أن يتجنب العيوب التى تضر ببيانه وتجعل كلامه غير واضح وهذه العيوب هى :

١ — اللثغة :

وهى تعذر النطق بحرف ، والنطق بحرف آخر بدله ، والحروف التى تدخلها اللثغة أربعة حروف كما ذكرها الجاحظ فى البيان والتبيين :

القاف ، والسين ، واللام ، والراء .

فاللثغة التى تعرض للسين تكون ثاء كما يقولون بثرة ، إذا أرادوا بسرة وأما اللثغة التى تعرض القاف فإن صاحبها يجعل القاف طاء ، فإذا أراد أن يقول : قلت . قال : طلت وأما اللثغة التى تقع فى اللام فإن من أهلها من يجعل اللام ياء فيقول بدل قوله : اعتللت : اعتييت وأما اللثغة التى تقع فى الراء فهى كثيرة فمنهم من إذا أراد أن يقول : عمر ، قال : عمى أو عمغ فيقلب الراء ياء أو غيناً .

٢ — التمتمة : هى التتعتع فى التاء ويقال لصاحبها تمتام .

٣ — الفأفأة : هى التتعتع فى الفاء ويقال لصاحبها فأفاء .

٤ — اللفف : هو إدخال بعض الكلام فى بعض ويسمى صاحبه ألف .

٥ — الحبسة : ثقل النطق على اللسان وسببها الحياء أو الخجل أو عدم التحضير لما يريد .

٦ — اللجلجة : التردد فى الكلام ويسمى صاحبها لجلاج .

٧ — التشديق : هو تكلف البلاغة .

٨ — العىّ : فقدان الإبانة عما يخالج النفس .

٩ — الحصر : محاولة التعبير وانعقاد اللسان عن بيان المراد .

١٠ — اللكنة : هى إدخال بعض حروف العجم فى حروف العرب

١١ - هذه العيوب كلها قد تكون ناشئة بسبب عارض جثماني أصاب الجسم ، كاللثغة التي تكون بسبب فقد بعض الأسنان ، وبعضها ناشيء عن طريق الوراثة ، والبعض منها مكتسب من الآخرين ، وعلى كل فالخطيب الذي يريد أن ينجح ، عليه أن ينظر إلى عيوب نفسه فيصلحها وهذا ليس بمستحيل أو غريب ، فقد كان واصل بن عطاء ألثغ وكان رئيس المعتزلة ، وأراد الإحتجاج على أرباب النحل ، فإن أجل الحاجة إلى حسن البيان ، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة ، رام واصل بن عطاء نفسه على إسقاط الراء من كلامه ، حتى انتظم له ما حاول ووصل إلى ما أراد .

١٢ - العناية بمظهره :

إن عناية الخطيب بمظهره الخارجي ولباسه ونظافته أمر هام جداً ، حيث أنه يلعب دوراً هاماً في جذب الناس نحوه والتفافهم حوله ، وتأثيره فيهم ، والإسلام أمرنا بهذا حيث قال الله عز وجل : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد »[١] وقال سبحانه وتعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين »[٢] .

وحسن الهندام أحد أسباب الثقة بالنفس ، وهو الذي يحمل الخطيب على تقدير المستمعين ، أما إذا كان الخطيب رث الثياب قبيح الصورة فإن ذلك مما ينفر المستمعين منه ، ولا يكون لكلامه أثراً .

روى أن إياس بن معاوية المزني أتى حلقة لقريش في مسجد دمشق فاستولى على المجلس ، ورأوه أحمر الوجه دميماً ، رث الثياب والهيئة

---

(١) الأعراف : ٣١

(٢) البقرة : ٢٢٢

فاستهانوا به ، فلما عرفوه ، اعتذروا إليه وقالوا له : الذنب مقسوم بيننا وبينك ، أتيتنا بزى مسكين تكلمنا بكلام الملوك .

ولقد كان الإمام مالك رحمه الله إذا أتاه الناس خرجت إليهم الجارية فتقول لهم : يقول لكم الشيخ : أتريدون الحديث أم المسائل ، فإن قالوا المسائل خرج إليهم فأفتاهم ، وإن قالوا الحديث قال لهم إجلسوا ودخل مغتسله فاغتسل وتطيب ولبس ثياباً جديدة ، وتلقى له المنصة ، فيخرج إليهم وعليه الخشوع » .

والإسلام دين السماحة أباح للمسلم أن يظهر فى ملبسه وهندامه أمام المجتمع بمظهر لائق كريم ، والخطيب أولى بذلك لأنه قدوة لمجتمعه ، ومن عناية الإسلام بالمظهر أمر المسلم بالنظافة ، لأنها الأساس لكل زينة حسنة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تنظفوا فإن الإسلام نظيف »[1] .

يقول الأستاذ البهى الخولى : يجب أن نلبس ونتجمل بالجميل والنظيف من الثياب ، فإن الله جميل يحب الجمال ، ونظيف يحب النظافة ، ولهذا يدعونا عز شأنه « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » ، ولكن لستر الجسم ووقايته لا لشهوة الظهور والاختيال أمام الناس ، وتأمل يا أخى قول الله تعالى « عند كل مسجد» فإن الذى يتزين للمساجد غير الذى يتزين للأندية والمجالس ، والذى يتزين لله ، غير الذى يتزين للناس ، والدافع الربانى الذى يحفز إلى التجمل عند العبادة هو دافع سام جليل ، لا يدع فى القلب مجالا لرغبات الرياء والظهور فيجب أن يكون الشأن فى اللباس كالشأن فى الإغتسال والنظافة ، فالرجل يغتسل وينظف بدنه ، دون أن يخطر على قلبه أن هذا مما يختال به الإنسان ، بل يفعله ليؤدى حقا لجسمه

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه

وكرامته ، سأل رجل عبد الله بن عمر : ما ألبسه من الثياب؟ قال : مالا يزدريك فيه السفهاء، ولا يعيبك به الحكماء ، إلبس ما طاب لك ، على أن لا تتكلف له ، ولا يلتفت إليه قلبك : واذكر دائماً أن لباس الروح خير وأحسن من كل لباس خلقه الله للبدن ، «يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً ،ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون» .

ومن هنا فعلى الخطيب أن يهتم بمظهره الإسلامى العام ،فلا يبدو مخالفاً لسنة مشهورة أو متخلفاً عن خير يدعو الناس إليه، كما يجب عليه أن يكون نموذجاً حياً لما يدعو إليه مطبقاً له فى سلوكه وخلقه ومعاملاته متخلقاً بأخلاق القرآن الكريم فى كل ما يدعوا إليه وكفى برسول صلى الله عليه وسلم قدوة وأسوة للخطباء الدعاة .

وبعـــد :

إن رسالة الخطيب رسالة جليلة وخطيرة ، ومهمة شاقة وعظيمة، لأنها تستمد جلالها وعظمتها من تحدث الخطيب عن الله عز وجل، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما تستمد خطورتها ومشقتها من مواجهة الخطيب لمستمعيه ومحاولة حملهم على طريق الهدى والرشاد ، إنها وظيفة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم صفوة البشر وأعلام الهدى .

وعلى ذلك فينبغى لكل من يتصدى لإصلاح الناس وتوجيههم إلى ما فيه سعادتهم ،أن يكون حسن الطريقة ،مرضى السيرة ،عنوان الفضيلة، مثال الكمال البشرى فى أقواله وأفعاله وسائر أحواله ، فلو تحلى الخطيب بالآداب والصفات التى ذكرناها لصار ملكاً مطاعاً يرجع الناس إليه ، ويقتدون به ، ويهتدون بهديه ، ويستطيع بحق أن يستولى على القلوب والعقول معاً ، يوجهها كما يريد ، ويتصرف فيها كما يشاء .

إعداد الخطيب :

الخطبة لا تؤتى ثمارها المرجوة منها ، إلا إذا كان الخطيب من طراز معين ، وأعد اعداداً جيدا يتناسب مع المهمة الملقاة على عاتقه وهى مهمة ثقيلة وهذا الإعداد يتمثل فيما يلى :

١ — اختيار الخطباء الذين يريدون العمل فى مجال الدعوة عن طيب خاطر ، على أسس علمية سليمة ، فليس كل من تزين بالزى الدينى يصلح أن يكون خطيباً ، ولكن لا بد أن يوضع الرجل فى وضع يتفق مع ميوله ورغباته وطموحاته ، وهذا أول شروط النجاح وقد وضع الرسول صلى الله عليه وسلم أسس اختيار الرجل المناسب فى المكان المناسب ، فقد اختار صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه ليخلفه فى الصلاة ، واختاره هو وعمر رضى الله عنهما الشورى ، واختار أبا عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وأسامة بن زيد للحرب والقتال ، واختار على بن أبى طالب ومعاذ بن جبل للحكم والقضاء ، كما اختار صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير رضى الله عنه للدعوة إلى الله ، وهكذا سائر الصحابة رضى الله عنهم الذين وكل إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأعمال متعددة ، وفق استعداد كل منهم إلى ما وكل إليه .

ومن هنا فالواجب علينا أن نختار لهذه المهمة الصعبة الخطباء ، الذين يريدون العمل فى حقل الدعوة عن رضى وطيب خاطر ، ولا نلجأ إلى هؤلاء الخطباء الذين يفرضون على الدعوة فرضا عن طريق القوى العاملة وغيرها لأن هؤلاء يكونون عبئا ثقيلا على الدعوة فلا فائدة منهم ولا نفع ، والدعوة تخسر من خلالهم أكثر مما تستفيد وفاقد الشىء لا يعطيه لغيره .

٢ — يكون هذا الاختيار مبكرا ، حتى نستطيع أن نكون الخطيب العالم الفاهم لدينه المستنير بعلمه الرائق من نفسه ، ولا ننتظر حتى يفرغ

الطالب من المرحلة الجامعية كلا ؟ لأن الاختيار يجب أن يتم كما قال ابن سينا: «إذا فرغ الصبي من تعليم القرآن الكريم وحفظ أصول اللغة، أنظر عند ذلك إلى ما يراد ان تكون صناعته فوجهه لطريقه بعد ان يعلم مدبر الصبي ان ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مواتية، لكن ما شاكل طبعه وتأسيسه».

إن المجتمع المسلم عليه مسئولية الإختيار المبكر للخطباء الدعاة، ليكون إلحاقهم بكليات الدعوة ومعاهدها واقسامها العلمية بكلية اصول الدين امراً نافعاً مجدياً يحقق الخير والفائدة للجميع.

ويؤكد هذا الأمر الدكتور/ القرضاوى ويبين اهميته فيقول: إذا كان الأزهر مصنعاً للدعاة، فليست كل خامة بشرية صالحة لأن يصنع منها داعية، وإذا كان الأزهر بمثابة جيش الخلاص، فليس كل إنسان اهلا للتجنيد فى هذا الجيش، لابد من شروط، ولا بد من فرز وفحص، ولا بد من فترة اختيار يستمر فيها الصالح للجندية، ويعفى من ليس لها اهلا.

وقد سمع محاضرة من الدكتور/ عبد الحليم محمود حين كان استاذاً بكلية اصول الدين يحدث فيها عن كلية تبشيرية فى إحدى كنائس فرنسا، زارها لأول مرة، فرى فيها عجباً، ورأى طلاباً حلقت شعور رؤوسهم بالموسى إلا شريطاً ضئيلا دائرا حول الرأس، وحياهم فلم يردوا عليه التحية، وحاول محادثتهم فلم يجيبوه ببنت شفة وعجب لهذه الظاهرة، اشد العجب، فسأل المدير عن سر هذا فأخبره: إنهم فى فترة صمت طويل، يحرم عليهم فيه الكلام المعتاد حرمة تامة، إختباراً لأعصابهم وامتحاناً لإرادتهم وسلوكهم فى هذه الفترة وأخبره المدير ان فترة الإمتحان ستة اشهر، تنتهي بغربلة وتصفية لا يبقى بعدها إلا الصالحون للتبشير بدينهم، فما بالنا نحن نأخذ كل من هب ودب، دون انتقاء ولا تمييز؟

وهذا الإختيار المبكر والإنتقاء المتميز لخطباء المستقبل ، لن يكون له فائدة إلا فى ظل مناهج دراسية هادفة وإشراف تربوى إسلامى عملى ، ورعاية أبوية من الأساتذة العلماء .

وهذا ما يوضحه الأستاذ الدكتور القرضاوى فيقول : وبعد هذا الإنتقاء لا بد من رعاية وتربية طويلة الأمد ، عميقة الجذور ، لا تجعل مجرد حفظ المعلومات ، وتحصيل المعرفة غاية فى نفسه . يفرغها فى ورقة الإجابة وكفى ، كلا إننا نريد مسلماً متكامل الشخصية ، له عقل المسلم المتفقه ، وله قلب المسلم التقى ، وله خلق المسلم الملتزم ، وله حكمة المسلم الداعية ، وعنده إيجابية المسلم المجـــاهد ، ولديه ثقافة المسلم المعاصر .

وهذا يقتضى إعداد برامج تثقيفية وتربوية متنوعة ومتكاملة ترعى أبناء الأزهر ، وتستبقى العناصر الطيبة الصالحة منهم . وترتقى بهـــم فى مدارج السمو الإسلامى المنشود ، وتطرد العناصر الخبيثة أو الضعيفة التى لا تصلح لحمل هذه الرسالة .

وإذا عجز الأزهر عن تنفيذ ذلك فى معاهده وكلياته عامة . وكليات الدعوة خاصة فإنه يكون أشبه بمن يخوض معركة بجنود مصابين بالعاهات ضعفاء فى التسليح ، قاصرين فى التدريب ، فى مقابل جند قوى فى الإعداد ، كامل فى التسليح ، مكتمل التدريب وهنا لا يكون تكافؤ ولا تقارب ، فكيف تكون النتيجة » .

وبعد هذا الإختيار المبكر والإنتقاء الجيد للطلاب والرعاية والعناية والتربية الطويلة لهم ، وإعداد البرامج التثقيفية والتربوية المتنوعة لهم ، لابد من انتقاء واختيار الأساتذة والمعلمين الذين يقومون بهذه المهمة الجليلة .

يقول الدكتور القرضاوى : إذا كان انتقاء الطلاب للأزهر شيئاً واجباً ، فأوجب منه انتقاء أساتذته ومعلميه ، الذين يتخرج الطلاب فى حضانتهم ، ويتلقون عنهم العلم والعمل .

وإنما نجح الأزهر قديماً ، لأن الله عز وجل هيأ له شيوخاً كانوا علماء ومربين معاً كان طالبهم يأخذ منهم العلم لعقله ا والخشية لقلبه، والتقوى لسلوكه ، والورع لتعامله . وكانت علاقته بطلابه علاقة المعلم بتلاميذه من الناحية العلمية والشيخ بمريده من الناحية الروحية ، والأب بأبنائه من الناحية العاطفية ، هؤلاء الربانيون الذين علموا وعملوا وعلموا هم الذين صنعوا الأزهر القديم ومثلهم يرتجى أن يصنع الأزهر الحديث » .

٣ — يجب أن تكون هناك مدارس ومعاهد لتتولى الخطيب من الصغر ، بمعنى أن يكون هناك مراحل تعليمية التدريب على الخطابة وتعلم قواعدها وهذا يستلزم حفظ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة حفظاً ومعنى ودراسة العلوم التى تخدم الخطابة علماً وتفيدها ، وأن يمارس هؤلاء الخطابة عملياً بالمساجد الخاصة لتدريبهم وتنشئتهم النشأة الصالحة ، وأن يقوم بتولى هذه المهمة أساتذة من العلماء العاملين ، فإن وراء كل نابه ، أستاذ متفوق أمين ، وليس هناك من متعلم وأثبت وجودة بقلبه و كفايته إلا ويرجع الفضل فى تفوقه إلى أستاذ من أساتذته الذين تلقى العلم عليهم .

وهذا العمل تقوم به معاهد الجمعية الشرعية على مستوى الجمهورية حيث تدرس مادة الخطابة فى معاهدها نظرياً وعملياً من خلال نخبة من الأساتذة المتخصصين كل فى مجاله ، وكان لى الشرف والحمد لله أن كنت واحداً من هؤلاء أقوم بتدريس مادة الخطابة نظرياً وعملياً فى معاهد الجمعية الشرعية والدراسة فيها حرة بمعنى أنه لا يدخل هذه المعاهد

إلا من عنده الرغبة والرضى والإختيار وهذا ما نريده لهذا العمل رغبة اقتناع من الشخص نفسه .

ومن هنا يحقق هذا العمل نتيجة طيبة يستفيد منها المجتمع وهى تخريج رجال عندهم الكفاءة والخبرة والدراية فى مواجهة مشاكل المجتمع وحل معضلاته والدفاع عن الدين من خلال البرهان والمنطق .

كذلك تقوم وزارة الأوقاف بهذا العمل من خلال معاهد اعداد الدعاة ومراكز الثقافة حيث تدرس فى هـــذه المعاهد والمراكز مادة الخطابة النظرية والعملية وكان أيضاً لى الشرف والحمد لله أن كنت واحداً من الذين يقومون بالتدريس فى هذه المعاهد لمادة الخطابة النظرية والعملية ، والدراسة فيها حرة أيضاً عن طريق الإعلان بمعنى أنه لا يدخلها إلا الراغب فى العلم والمعرفة وخاصة الناحية الدينية، وهى تجربة طيبة نتمنى لها النجاح والتوفيق والسداد إلى نهاية الطريق ، حتى نرى بعد ذلك رجالا أقوياء أشداء يدافعون عن دينهم بالعلم والمعرفة والدليل الواضح والبرهان الساطع .

٤ — رعاية الخطيب :

إن رسالة الخطيب هى الدعوة إلى الله تعالى، والدعوة إلى الله عز وجل هى أفضل دعوة ، بل أعظم دعوة لأن الله تعالى قال ، « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين »[١] .

فيجب أن يحيا الخطيب فى بيئة لا تعرف المشاكل المادية، وغيرها ولقد أصبح من المحتم خصوصاً فى هذه الأيام التى طغت المادة فيها على

---

(١) فصلت : ٣٣

كل شيء ، أن تتآلف قلوب هؤلاء الذين يرغبون فى العمل فى مجال الدعوة إلى الله وتشجيعهم على الإقبال على هذه الدراسة والعمل بوظيفة الإمامة والخطابة والوعظ، التى نفروا منها وعملوا كل ما فى وسعهم للهروب منها، فماذا لو تكفل الأزهر ، أو الجهات المعنية بتخريج الدعاة والخطباء بالإنفاق على الطلاب ، الذين تعدهم الجامعة لوظائف الإمامة والخطابة ، ورعاية الخطيب تتمثل فيما يلى : —

١ — امداد الخطيب بزاد من الكتب المتنوعة والثقافات المختلفة ، التى تفتح شهيته للقراءة والتحصيل ، والمراجع المختلفة التى تثرى جوانب فكره بآراء العلماء وجهود الباحثين ، بمعنى أن تكون لديه مكتبة فيها كتب قيمة .

٢ — تجديد نشاط الخطيب وجهوده بالدورات التدريبية الجادة التى يزداد فيها خبرة فى تخصصه .

٣ — وضع الحافز المادى الذى يجعل الخطيب يعيش عيشة كريمة تليق به ، مع ضمان الحافز الأدبى الذى يحرم الغض من شأن الخطيب فى وسائل الإعلام والمناسبات العامة .

٤ — تأمين الخطيب ، وذلك بعدم محاكمته — إذا حدث منه شيء مخالف إلا أمام رؤسائه ، أو ممثلين لهيئاته أسوة بما هو متبع مع أعضاء النقابات الأخرى .

٥ — معالجة مشكلة ارتفاع ثمن الكتب والمراجع التى تتحملها رواتب الدعاة والخطباء ، وإخراج سلسلة من الكتب التى تتناول العقائد ، والعبادات والمعاملات ، والأخلاق ،

٦ — عمل مكافأة خاصة برجال الدعوة تتناسب مع جلال المهمة التى يقومون بها وأثرها فى المجتمع .

٧ — استمرار الدعاة فى عملهم بعد بلوغ السن القانونية بمكافآت مجزية ، لاستمرار الإنتفاع بالكفايات فى الدعــوة ، ما دام أصحابها قادرين على العطاء .

٧ — تمكين الخطيب الداعية من السياحة الإسلامية لمشاهدة الآثار الإسلامية وزيادة الأماكن المقدسة وذلك من خلال أداء فريضة الحج التى يصعب عليه أداؤها من الناحية المالية ، كما أنها تمكن الخطيب من الوقوف على طبيعة البلاد التى انطلقت منها دعوة الإسلام ، كما أنها تجعل الخطيب يحدث الناس فى كل موسم حج حديث من ذاق وجرب ، ورأى وشاهد ، ولا ينبئك مثل خبير .

إن الخطيب بشر له ضروراته المادية وحاجاته الحسية المتمثلة فى الغذاء والكساء والسكن والعلاج ، ووسيلة الإنتقال ، وما لم تتوفر له هذه الأشياء المذكورة ولمن يعولهم ، فإن جهده ونشاطه لن يكون خالصاً لدعوته ، بل يكون مشتتا بين دعوته ومطالب حياته .

ومن هنا فإن إعــداد الخطباء فى الإسلام يجب أن يسير على المنهج العلمى الصحيح ، وفى عصرنا الحاضر لا نقول مصر بل العالم الإسلامى كله فى حاجة ماسة إلى المتخصصين فى الدعوة الإسلامية ، حيث غلبت المادية وانتشر الإلحاد والفساد فى كل مكان من المعمورة وسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يختار الوعاظ الذين يرسلهم للأقطار المفتوحة فأرسل عبد الله بن مسعود معلماً وأرسل معاذاً وعبادة وأبى الدرداء إلى الشام بناء على طلب يزيد بن أبى سفيان ، .

وهكذا اهتم الخلفاء بالوعاظ واختاروهم من أعلم الناس . وأفقههم فى الدين .

ولو قيل إن هؤلاء كانت عندهم الرغبـــة الطبيعية فى تعلم الدين وتعليمه .

الجواب : إنه من الواجب أن نوجد نحن هـذه الرغبة عند الناس ما دامت غير موجودة ، ولو كان ذلك عن طريق الإغراء المادى .

— الصفات العقلية للخطيب الداعية —

زيادة على ما تقدم من صفات الخطيب الجيد ، هناك صفات يجب أن يتحلى بها الخطيب حتى ينجح فى مهمته ويسير دائما إلى الأمام من هـذه الصفات :

١ — قوة الملاحظة :

هذه الصفة من الصفات الهامة للخطيب ، لأنه من خلالها يستطيع أن يدرك أحوال المستمعين من جلساتهم وحركاتهم ونظراتهم ، أهم مقبلون عليه منصتون له ، أم منصرفون عنه منشغلون بغيره ، فاذا رأى الخطيب أن المستمعين مقبلون عليه كان هـذا دافعاً له على الاستمرار والزيادة فى القول والسير على نهجه ، أما إذا رأى إعراضهم من خلال تحركاتهم ونظراتهم عدل من طريقته وغير فى أسلوبه ، فيكون ذلك أقرب إلى قلوب المستمعين وأدنى إلى مواطن التأثير فى نفوسهم .

٢ — حضور البديهة :

وهى موهبة فنيـــة لابد منها للخطيب ، لأنها تسعفه فى المواقف الحرجة ، والأوقات الصعبة ، وهذا إذا وجد من القوم إعراضاً عن حديثه

قال ابن عبد ربه : أحسن الجواب كله ما كان حاضراً مع إصابة المعنى وإيجاز اللفظ ، وكانت قريش أسرع الناس جواباً عند البديهة ثم بقية العرب .

وقد يلقى الخطيب خطبته فيهب بعض المستمعين معترضاً أو طالباً الإجابة عن مسألة ، فاذا لم تجد البديهة كلاماً يستطيع أن يرد به أو يجيب عليه ضاعت الخطبة وضاع أثرها .

نماذج من حضور البديهة :

١ — دخل عقيل بن أبى طالب على معاوية بن أبى سفيان يوماً وقد كف بصر عقيل فقال له معاوية : أنتم معشر بنى هاشم ، تصابون فى أبصاركم ، فقال عقيل : وأنتم معشر بنى أمية تصابون فى بصائركم فقال معاوية لأصحابه مشيراً إليه : هـذا عمه أبو لهب . فقال عقيل مشيراً إلى معاوية : وهـذا عمته حمالة الحطب ، يا معاوية إذا دخلت النار فاعدل ذات اليسار فستجد عمى أبا لهب يفـترش عمتك حمالة الحطب فانظر أيهما خير .

٢ — إفتخر معاوية بن أبى سفيان على الأنصار فقال :

إن الله فضّل قريشاً على العرب جميعاً بثلاث فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم « وأنذر عشيرتك الأقربين » ونحن عشيرته ، وقال له : « وإنه لذكر لك ولقومك » ونحن قومه وقال عز وجل : « لإيلاف قريش إيلافهم » ونحن قريش فأجاب أحد الأنصار قائلا : على رسلك يا معاوية فان الله تعالى يقول : « وكذب به قومك » وأنتم قومه . ويقول عز وجل : « ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون » وأنتم قومه . ويقول تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم « يا رب إن قومى اتخذوا هذا

القرآن مهجوراً ، وأنتم قومــــه . ثلاثة بثلاثة ولو زدتنا يا معاوية لزدناك .

٣ — قيل للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه : أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه أكبر منى ، وأنا ولدت قبله .

٤ — كان أشعب رجلا فضولياً يشم رائحة الطعام من بعيد فيندفع نحوه ، فمر ذات يوم على بيت سالم بن عبد الله بن عمر فشم رائحة طعام شهى فاقتحم عليه الدار وهو جالس بين بناته ، فغطى سالم بناته بثيابه وصاح فى أشعب : بناتى ، بناتى .

فقال له أشعب : « لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد » .

٥ — تقابل رجل كث اللحية مع رجل آخر خفيف اللحية فقال الأول للثانى : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا » فقال الثانى للأول : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » .

٦ — حضر وفد من أهل الحجاز لتهنئة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه عقب ما تولى الخلافة وكان معهم غلام صغير ، فأراد الغلام أن يتكلم نيابة عن الوفد فقال عمر بن عبد العزيز يا غلام ليتكلم من هو أسن منك فقال الغلام : يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبده لسانا لافظاً وقلباً حافظاً فقد أجاز له الإختيار ولو أن الأمور بالسن لكان هنا من هو أحق بمجلسك منك . فقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه صدقت . تكلم فهذا السحر الحلال .

٧ — دخل أبو دلامة على الخليفة المهدى وعنده وجوه قومه فقال لأبى دلامة : إن لم تهج أحد الحاضرين فلأقطعن لسانك .

قال أبو دلامة : فبكلما نظرت إلى واحد منهم رمقنى مهددا متوعداً فقلت هاجيا نفسى :

ألا أبلغ لديك أبا دلامة فليس من الكرام ولا كرامة
إذا لبس العمامة صار قردا وخنزيرا إذا لبس العمامة
جمعت دمامة وجمعت لؤما كذلك اللؤم تتبعه الدمامة
فإن تك قد أصبت نعيم دنيا فلا تفرح فقد دنت القيامة

فضحك الجميع ولم يبق منهم أحد إلا أثابه ، وأجزل الخليفة له العطاء

الخصائص النفسية للخطيب — الصبر —

قيادة البشر صعبة وتحتاج إلى قوة نفسية كبيرة لمن يحملون تبعات جسام وأمور ضخام مثل الخطباء ، كما أنهم إلى جانب ذلك يحتاجون إلى الصبر الطويل ولعظم الصبر وأثره الطيب فى دنيا الناس وأخراهم نجد أن الحق تعالى يكرره فى مواطن كثيرة :

منها : الصبر على الإيذاء : «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل(١)».

الصبر فى البأساء والضراء : «والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس»(٢).

الصبر على التكذيب : «ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا»(٣).

---

(١) الأحقاف : ٣٥ (٢) البقرة : ١٧٧
(٣) الأنعام : ٣٤

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجد أنه يقص علينا نماذج طيبة من صبر المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم لتكون عبرة وعظة وفى نفس الوقت منهاجا يسير عليه الدعاة الخطباء فى كل عصر وفى كل زمان مثال ذلك ما جاء فى قصة سيدنا نوح عليه السلام وصبره مع قومه طوال هذه المدة التى قاربت ألف عام فيقص علينا القرآن الكريم هذه القصة وكيف سار الداعية مع قومه يقول الحق تبارك وتعالى :

على لسان سيدنا نوح عليه السلام : « قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ، مالكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا(١).

فسيدنا نوح عليه السلام دعا قومه إلى الله عز وجل بكل الأساليب وفى جميع الأوقات بالنهار والليل فى السر والعلانية ، ووضح لهم بالأدلة الناصعة الواضحة وحدانية الله تعالى ، كما وعدهم بالمادة فى جميع صورها وأشكالها إن هم آمنوا بالله تعالى وتركوا عبادة الأصنام .

ولكن القوم أصروا على الكفر والعناد ، واستمروا على ضلالهم قال عز وجل : « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا »(٢).

---

(١) نوح ٥ — ٢٦ (٢) نوح : ٢٣

وظل سيدنا نوح عليه السلام فى هذه الرحلة الطويلة صابرا فى دعوته التى استمرت قرابة الألف عام يدعو ويجادل ويقابل بالأذى وبالألفاظ النابية الجافة الغليظة والإتهامات الكاذبة، ومع كل هذا لم يضعف ولم يتخاذل ولم يتهاون فى دعوته صابرا محتسبا حتى سد عليهم جميع المنافذ يقول الحق تبارك وتعالى : «قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين»(١) .

يقول الأستاذ البهى الخولى رحمه الله عن خاصية الصبر : وما نرى الله عز وجل أوصى رسله بشىء أكثر مما أوصاهم بالصبر ، وليس معنى الصبر هنا الإستكانة والذلة والقعود عن الدعوة والكف عن التفكير فى معالجة من يتطاولون بالأذى على الأحرار الأبرياء وإنما معناه :

١ — أن يهضم الداعية مايلقى من إعراض وعناء وجحد وأذى بحيث لايشعر أن هذه العقبات يشرق بها حلقه فإن ذلك يضايقه ويعجله عن حسن علاجها بل عليه أن يروض نفسه ومعدته العصبية على هضم ذلك كله بحسن الإحتمال واستقبال كل شدة بالرضا والتسليم .

٢ — أن يتخذ سبيله فى غير طريق هذه العقبات ، عليه أن يدور حولها ويمضى إلى ماخلفها عليه أن يمضى فى دعوته يدعو الناس ويجمع حوله الأنصار ويتألف قلوب الجماهير بما يبذل لهم من خدمات ومنافع ومساعدات، أمامه مفاسد لايحميها القانون ولامنفعة لأحد فى استمرارها فعليه بعلاجها وإبعاد الناس عنها .

٣ — أن يرتقب مايأتى به الزمن فللزمن مفاجآته وفرصه التى تجىء بغير ماينتظر، وقد يجرى الله فى غضونه من الأحداث والتصرفات مايهون به شأن هذه العقبات أو يزيلها .

---

(١) هود : ٣٢

وما على الداعية إلا أن يحذر انطفاء حماسته بطول الزمن ، بل عليه أن يتخذ إذا مضت أعصابه مدداً لثورته الباطنة وقواه الكامنة، فلا تزيده الأيام إلا قوة على أمره ».

وعلاج الفساد بعلاج الحوادث الفردية ، كما حدث من سيدنا موسى عليه السلام كثيراً ما يوقع تحت طائلة القانون ، ويغضب مقامات كثيرة لها منفعة في استمرار الفساد على ما هو عليه ، وحينئذ يعرض الداعية نفسه لحكم القانون ولبطش الجبارين في غير نفع يعود على الدعوة .

والمتتبع لسيرة الرسول — ﷺ — يجد أنه لم يعجل بعلاج فردى بل إنه عليه الصلاة والسلام كان يصلى في الكعبة في جوف الليل ، والأصنام تطل عليه بعيونها الجامدة البغيضة فلم يرفع إليها يداً، ولم يحرك نحوها ساكناً ولو مد إليها يده لما رآه أحد ، ولكن ماذا يحدث بعد ذلك؟ تعود الأصنام لما كانت . بل إلى أحسن مما كانت ، ويعاجل رسول الله — ﷺ — ، بالأذى ، ولكنه عليه الصلاة والسلام علم أن سبل العلاج شيء غير هذا ، هو الصبر والاستمرار على الدعوة ، وتجميع الأنصار ، وتعبئة القوى ، وتقرير العقيدة السليمة والاحتكام إلى معايير العقل ، وعندما جاء اليوم الموعود ، كان عليه الصلاة والسلام يشير إلى الأصنام بقضيب في يده قائلا : « جاء الحق وزهق الباطل » فينكفيء إلى وجهه من غير رجعة .

والذى ننصح به الخطباء الدعاة أن يعالجوا ما يصادفهم من عقبات بمثل المنهج الذى سنه الله عز وجل لرسوله — ﷺ — ، والتزم به عليه الصلاة والسلام في حكمة وأناة وقوة .

٢ — الثقة بالنفس ورباطة الجأش :

ومن الصفات النفسية التي يجب أن يتحلى بها الخطيب الثقة بالنفس ، ولكي يثق الخطيب في نفسه عليه أن يحضر موضوعه تحضيراً جيداً ملماً به من جميع جوانبه مدققاً النظر فيه .

ومن هنا يجب عليه أن يقف مطمئن النفس هادئاً غير مضطرب ، ولا وجل ، وإلا لم يستطع أن يسيطر على الموقف ولا أن يصل إلى غرضه ، وهذا بدوره يجر إلى الإرتباك في الخطبة وعدم الإجادة فيها .

يقول جوستاف لوبون : من وثق بنفسه لا يحتاج إلى مدح الناس .

إياه ومن طلب الثناء فقد دل على ارتيابه في قيمة نفسه) .

ويقول الشيخ أبو زهرة : الحيرة والدهش يورثان الحبسة والحصر وهو سبب الإرتجاج والإفحام) .

ويقول في موضع آخر : إذا اشتهر الخطيب بسوء أو نقيض مايدعو إليه كان من حاله لسان يناقض مقاله ، فيضعف تأثيره ، ولا يصل إلى قلوب الناس تفكيره ، ويشك السامعون في قوله ، ويرتابون في صدقه ، ولا يذهب بروح الخطبة شيء أكثر من الارتياب في نية الخطيب ، والتشكك في طويته .

والخطيب الذي لم يمنح الثقة ، عليه عملان مرتقاهما صعب : عليه أن يجتهد في جلب الثقة ، وعليه بعد ذلك أن يسوق كلامه في صورة محببة مثيرة .

٣ — قوة العاطفة :

من المعلوم أنه لا يؤثر إلا المتأثر ، ولا يثير الحماسة فى قلوب السامعين إلا من امتلأ حماسة فيما يدعو إليه ، واعتقاداً بصدقه ، لأن ما يخرج من القلب يدخل القلوب من غير استئذان ، وكما أن الماء الذى يملأ سطحه ، ينساب فى المجرى المنخفض ، كذلك ذو العاطفة العالية ، والحماسة الشديدة هو الذى ينحدر فيه الشعور ألفاظا ، والعواطف عبارات وأساليب تلهب الحس ، وتوقظ النفس ، وتثير الحمية ، وتحفز الهمة ، فلا بد أن تكون حماسة الخطيب أقوى من حماسة سامعيه . ليفيض عليهم ، ويروى غلتهم ، وإلا أحسوا بفتور نفسه ، فيضيع أثر قوله) .

كيف يعالج الخطيب مشاكل المجتمع ؟ :

إذا نظرنا إلى الدعاة إلى الله تعالى نجـــد أنهم يقابلون فى حياتهم مصاعب كثيرة ومتاعب جمة ، لأنهم يدعون الناس إلى فعل شىء لم يألفوه ولم يتعودوا عليه ، وإما أن ينهوهم عن فعل شىء درجوا عليه وألفوه ، ومن الصعب تركه والانتقال إلى ما يدعوهم إليه الخطيب .

وإذا أراد الخطيب أن يقنع المستمعين بوجهة نظره فيما يدعو إليه ، ويبدد من نفوسهم ما يعتقدونه من أفكار وأوهام فعليه أن لا يصطدم معهم فى معتقداتهم الراسخة ، لأن الخطيب طبيب معالج ، فيجب أن يتصرف مع المرضى بلباقة وحسن تصرف حتى ينجح فى مهمته الصعبة ، ولا يهرب منه المرضى ويرفضون الدواء والعلاج .

إن سيدنا إبراهيم عليه السلام عالج هذه القضية علاجا طبيا ، عندما وقف من قومه موقف الناصح الأمين لهم والراغب فى إهدايتهم وإرشادهم إلى طريق الحق والصواب .

لقد كان قوم سيدنا إبراهيم عليه السلام فريقين ، فريق يعبد الأصنام والأوثان من دون الله تعالى وفى مقدمتهم عمه ، الذى كان يصنعها بنفسه .

وفريق آخر يعبد الكواكب ، ويتقرب إليها ظنا منهم أنها تقربهم إلى الله عز وجل فماذا فعل سيدنا إبراهيم عليه السلام الداعى إلى الله مع هؤلاء وأولئك ؟

توجه سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى عبدة الأصنام موضحا لهم أنها لا تنفع ولا تضر ولا تقدم للإنسان نفعا فى هذه الحياة فقال كما حكى القرآن الكريم : « ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ، قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين »[1] .

ولكن هل أدت هذه المحاورة النظرية إلا فائدة ونتيجة ، كما يرجو الداعى إلى الله ؟

الجواب : كلا لأن القوم مصرون على العناد والكبر والمكابرة وكيف يتركون هذه المعبودات ، التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم لهذه الدعوة الجديدة ، التى تدعوهم إلى عبادة إله واحد كما يقول إبراهيم عليه السلام ، هنا لا بد من التطبيق العملى ، الذى يبرهن به الداعى على صدق دعوته ، وأنه جاء بهذا المنهج من عند الله تعالى خالق السموات والأرض ، وليس من عند نفسه .

قام سيدنا إبراهيم بتحطيم الأصنام كبرهان عملى يدلل به على فساد

---

(١) الأنبياء : ٥١ — ٥٦

هذه المعبودات وفساد عقول عابديها ، وأن هذه الأصنام ماهي إلا مواد صماء لا تنفع ولا تضر .

فسيدنا إبراهيم عليه السلام بتحطيمه الأصنام أقام دليلا حسيا قاطعا لقومه على بطلان عبادة الأصنام . فلو كانت آلهة حقيقية لدافعت عن نفسها واصابت بالضرر من أرادها بسوء .

وبعد أن إنتهى سيدنا إبراهيم عليه السلام من محاورة عبدة الأصنام ، اتجه إلى عبدة الكواكب محاولا اقناعهم بأن هذه الأشياء لا تفيد الإنسان شيئا دون الإصطدام معهم فيما يعتقدون حتى لا تثير ضده ، ولكن هدفه التشكيك فى صحة ما يعتقدونه ، حتى يقنعهم فى النهاية بوجهة نظره فأخذ يجاريهم فيما يعتقدون لا إيمانا منه ولكن من أجل التشكيك فى صحة هذه المعبودات فقال كما حكى القرآن الكريم : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين »[1] .

وهكذا استطاع سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يستدرج القوم إليه ويشككهم فيما يعتقدون حتى يمكنه فى النهاية إقناعهم بما يريد .

وعلى الدعاة الخطباء فى عصرنا الحاضر أن يراعوا هذا المنهج فى معاملة الجماهير وأن يطبقوه تطبيقاً عملياً حتى ينجحوا فى مهمتهم ويسيروا فيها إلى الأمام بثقة وخطى ثابتة ، لأن الخطيب الناجح يعرف من أين تؤكل الكتف .

---

(١) الأنعام ٧٦ — ٧٩

نعم إن الجهر بكلمة الحق مع المخالفين قد تؤدى إلى الأذى أو إلى السجن ، إذا كانت الدعوة فيها مخالفة لما درج عليه الناس والقوم والأفضل للخطباء فى هذه الحالة أن يستعملوا أسلوب التلميح بدل التصريح، حتى يحافظوا على مكانتهم وأن يحفظوا للدعوة مكانتها وحتى لا تخسر الدعوة وجلا من رجالها له مكانته وأهميته من هذا المكان .

والقصة(١) التى أرويها تؤيد ما نقول ، وهى عدم مصادمة الجماهير فى معتقداتهم بل يجب التدرج معهم والتلطف بهم حتى يصل الداعى الخطيب إلى ما يريد ، حدث حادث طريف فى فترة الثلاثينات فى قرية من قرى المنوفية ، وقت أن كان الجهل يخيم على كثير من المجتمعات الإسلامية .

فقد كان فى القرية قبر متواضع لرجل يدعون أنه ولى من أولياء الله الصالحين ، والرجل مجهول الإسم والأصل ، لا يزوره أحد من الناس ، ولا يقام له مولد كل عام كعادة أهل البلاد المجاورة ، وكل ما يميز الشيخ المجهول النسب والأصل ، قبة صغيرة تعلو الضريح، الذى يوجد عند طرف المزارع بمدخل القرية .

وذات يوم عاد إلى القرية شاب من أبنائها ، كان قد ذهب إلى العاصمة لتلقى العلم بها ، ولكنه لم يفلح فى مهمته ، وترك الدراسة بعد أعوام قليلة عاولا كسب رزقه فى العاصمة من أعمال مختلفة لا يعلم بها أحد على وجه التحقيق فلما عاد إلى القرية ، كان فى نظر أهلها ، بما حصل من علم قليل ، عالماً فذا بين أهلها البسطاء الطيبين ، ولم يضيع الشاب وقتاً طويلا فى استغلال سذاجة أهل القرية ،وتفتق ذهنه عن خطة شيطانية قام بتنفيذها على الفور ، وهى أن القرية بغير ولى ، يقام له مولد كل عام ، ويزوره

---

(١) هذه القصة من كتاب النوعية الإجتماعية بقلم أنور أحمد نقلا عن كتاب أصول الخطابة العربية د / عبد الغفار عزيز .

الناس التبرك به ، وسؤاله الشفاعة ، وقضاء الحوائج ، ويقدمون بين يديه النذور ، كما أن أهل القرية يسافرون إلى البلاد المجاورة التى بها أولياء لزيارتهم والتبرك بهم وقصدهم فى قضاء مصالحهم .

والمعروف أن كل بلد له وليه الخاص به والذى تفاخر به البلدان الأخرى وذات يوم بعد صلاة الجمعة فوجىء الناس بهذا الشاب يعتلى منبر الجامع ، ويخطب فيهم بصوت مؤثر ، ويزف إليهم بشرى عظيمة ، زاعماً أن الولى فلان صاحب الضريح القائم عند طرف مساكن القرية ، جاءه أثناء نومه ، وأخبره بأنه عاتب على أهل القرية ، لأنهم يجهلون قدره ، ولا ينتفعون ببركته ولا يحتفلون بمولده ، وأنه قد اختاره ليبلغ إلى الناس رسالته وليكون خادمه وقدم إليه منديلا كبيرا أخضر ليجعله شالا يلف به عمامته ، وقال الشاب : إنه ظن أن الأمر ليس سوى حلم ، ولكنه قام من نومه ، فوجد إلى جواره شالا أخضر وأخرج الشال ، ولوح به الناس ، ثم لفه حول رأسه وهو يقول : إنه يشهدهم على أنه منذ اليوم خادم ولى الله ، يصلح ضريحه ، ويمده الزائرين ، ويقيم مولده وينفذ مشيئته ، وأقبل أهل القرية على الشاب يهنئون ويباركون ، ويقبلون المنديل الأخضر المعطر فى خشوع ورهبة ، وشرعوا يصلحون الضريح ، وأقاموا إلى جواره زاوية ليقيم بها الخادم ويستقبل الناس ، وبدأت كرامات ولى الله تظهر للناس بتدبير الخادم الذكى ، الذى وضع صندوقاً للنذور ، وانهالت عليه التبرعات والهدايا .

وتحول الخادم إلى دجال كبير ، يكتب الأحجبة والتعاويذ ويبيعها الناس وأقبل عليه طلاب الشفاء بدلا من الذهاب إلى الطبيب .

وكان طبيب المركز من أهل القرى المجاورة ، وسمع بما يجرى من الخادم فضايقه الأمر وجاء فى زيارة إلى القرية ، وقابل خادم الولى المزعوم ، وحذره من الإسترسال فى أعماله والتمادى فى باطله ، وهدده

بسوء المصير إذا أقحم نفسه أو وليه فى شئون الطب والعلاج ، وثارت بينهما مناقشة حامية ، فأخبره الطبيب بأنه سيصلى الجمعة فى مسجد القرية ثم يتحدث إلى الناس ، ويبين لهم دجله وألاعيبه :

ثم حدث شيء غريب ، فى صبيحة يوم الجمعة ، شاهد أهل القرية خادم الضريح ، وقد جلس على قارعة الطريق عارى الرأس ، وهو يبكى ويحثو على رأسه التراب ، ويرفع صوته بالدعاء والتوسل والابتهال .

وسأله أهل القرية عن الخبر ، فقال سوف يرحل الشيخ عن القرية كلها لأنها تسمح لرجل غريب زنديق أن يعتدى على كرامته ويهينه فى بيت الله ، ومضى الخادم الذكى يقول : إنه بكى وتوسل إلى الشيخ ألا يهجر القرية وأهلها ، ويؤكد أنهم لا يمكن أن يسمحوا بشيء من ذلك .

وجاء الطبيب يصلى الجمعة مع أهل القرية ، فلما انقضت الصلاة ، وقف الطبيب يريد أن يخطب فى الناس ، وهو يظن أن الأمر لا يحتاج إلى شيء من الفصاحة والمنطق ، فلا يلبث أن يقنع الناس بما يريد ، ولكنه لم يكد يبدأ حديثه مهاجماً خادم الضريح ، قائلا : إن ولى الله نفسه لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً ، وأن المسألة كلها عملية نصب واحتيال ، حتى أطبق عليه الناس من كل جهـــة ، وانهالوا عليه ضرباً ووكلا بالأحذية والمراكيب وكادوا يفتكون به وهم يصيحون فى ذعر وهلع : (العفو والسماح ياولى الله)

وأدرك العمدة والخفراء الطبيب فخلصوه من أيدى الناس وأخرجوه من القرية بسلام .

إن الطبيب الطيب القلب لم يدرك أنه لا يكفى أن يكون الحق فى جانبه ، وأنه لا ينبغى لمن يريد أن يخاطب الجماهير ويؤثر فيها أن يصدم شعورها أو يهاجم مقدساتها حتى ولو كانت باطلة .

فهم خاطىء :

قد يظن البعض ويخطىء حين يقول إن خطبة الجمعة يجب أن تقتصر على الأمور الدينيه فقط ، فلا شأن لها بالسياسة والاقتصاد والهندسة والطب ، والتاريخ ، وعلم النفس ، والقانون ، والإجتماع وغيرها .

وهذا الفهم ناتج عن عدم فهم الإسلام فهماً صحيحاً ، فالإسلام دين ودنيا ، دين شامل لكل جوانب الحياة ، لم يترك جانبا من هذه الجوانب إلا وتحدث فيها وبين حكمه ، لأنه دين من عند الله عز وجل خالق البشر والعليم بما يصلحهم فى هذه الحياة الدنيا .

فالخطيب الداعى لا بد له من معرفة هذه الأشيا السابقة حتى يكون على علم بما يجرى حوله فى المجتمع الذى يعيش فيه بل والمجتمعات الأخرى ومن هنا يستطيع أن يعالج ما يحدث من مشاكل ويقدم لها الحلول من خلال علمه بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته وسيرة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين .

ولا نطلب من الخطيب أن يكون نابغة فى هذه العلوم ، ولكن يجب أن يكون على معرفة بها ، ليستعين بها فى خطبه ، إذا إحتاج الأمر إلى ذلك وليرضى جميع الأذواق وتكون حجته أقوى ودليله أوقع فى النفوس .

ولنفرض أن الخطيب أراد أن يتحدث عن (الاسراف ومضاره النسبة للإنسان) فماذا يصنع ؟ إنه يحضر لموضوعه تحضيرا جيداً ويعده إعداداً طيباً ، ثم يحدد عناصره ويجمع أدلة موضوعه على أن تكون مناسبة لكل عنصر ثم يبدأ إلقاء خطبته بعد اختيار الأدلة وتحديد العناصر

حتى يكون لكلامه أثر فى النفوس ، ولخطبته القدرة على الاقناع ، ولا يتم له ذلك إلا من خلال معرفته بالناحية الطبية حتى يربط بين الدين والحياة لأن الناس لا يقتنعون إلا بالشيء المحسوس أمام أعينهم يذكر أن الرشيد كان له طبيب نصرانى حاذق فقال لعلى بن الحسين : ليس فى كتابكم من علم الطب شيء ، والعلم علمان : علم الاديان وعلم الأبدان.

فقال له على : قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابنا ، فقال له : ما هى ؟ قال قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » ، فقال النصرانى ولا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب فقال على : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطب فى ألفاظ يسيرة قال : ما هى : قال : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » رواه الترمذى .

فقال النصرانى : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً » .

ومن هنا فمعرفة الخطيب لكثير من العلوم الإنسانية يعتبر دافعاً على اختيار أدلة قوية جديدة ، تقوى فكرته ، وتؤيد أدلته ، وتعطيه القدرة على استخراج بعض نفائس ما فى القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذين تعتمد عليهما خطبة الجمعة إعتماداً كبيراً .

يقول المرحوم الشيخ أبو زهرة :

الخطيب الدينى بالذات يجب أن يكون ملماً بالاجتماع والاقتصاد والسياسة والشرائع ليستطيع أن يصل إلى قلوب السامعين ، يربط صلاحهم الدنيوى بصلاح دينهم وقلوبهم .

والخطيب الإجتماعى يجب أن يكون عالماً بدين الجماعة التى يخاطبها لكيلا يصدر عنه ما ينافيه ، فتنفر منه القلوب ، وهو يعمل على استدمائها وهكذا كل خطيب يجب أن يكون ملماً بكل ماله صلة بالجماعات وقوة التأثير فيها والإبتعاد عما يجعل القلوب متنافرة عنه غير راغبة فيه .

المبحث العاشر

— بين الخطبة وأشباهها من فنون القول —

الخطبة هي أقوال مؤثرة ومقنعة تقال من أجل تحقيق هدف معين وهو الإقناع والإستمالة، وهناك فنون أخرى تشترك مع الخطبة في تحقيق هذا الهدف، ولذلك سنذكر هذه الفنون إحاطة بها وتوضيحاً لما بينها وبين الخطبة من اتفاق وافتراق وتعريفاً بهذه الفنون، لأن الخطبة وسائر هذه الفنون القولية هي كلمات الخطيب الداعية إلى الناس، ولا بد من إحاطته بجميعها ليساير التطور العلمي للأعلام ويملك القدرة على تبليغ الدعوة إلى الله تعالى ونشرها بين الناس أجمعين.

١ — الدرس الديني :

الدرس الديني هو ما يؤديه الخطباء والوعاظ في دور العبادة من الوعظ والإرشاد والتوجيه في غير وقت خطبة الجمعة. والغرض منه تفسير آية من كتاب الله تعالى أو توضيح حديث من أحاديث الرسول ﷺ أو شرح سنة عملية من سنن المصطفى عليه الصلاة والسلام، أو الوقوف على حكم من شرع الله تعالى في حادث وقع أو جواب عن أمر مجهول أو تشخيص علاج لمرض نفسي أو خلقي أو اجتماعي.

ومن هنا نجد أن الدرس أصعب بكثير من الخطابة، لأن الخطبة محصورة في موضوع واحد لا تتعداه، كما أن أدلة الخطبة تجمع وترتب وتنظم وتختار بما يتناسب مع الخطبة وما يؤيد وجهة النظر المرادة.

أما الدرس فقد يتعدى موضوعه فيستطرد المدرس بسبب ما يوجه إليه من أسئلة، لذلك وجب على المدرس أن يكون قديراً على إدارة الكلام،

وتركيز الأدلة ، وإيضاح المعنى بوسائل الإيضاح المختلفة ولو نظرنا إلى الدروس الدينية نجد أنها تمثل مدرسة منظمة بخطة ومنهج ، أستاذها الخطيب ، وطلبتها هم الجماهير الذين يجدون المسجد مفتوحاً أمامهم على الدوام وساق وبلا أدنى تكلفة .

شروط الدرس الديني :

يشترط فى الدرس الدينى ما يلى :

١ — وقوعه موقع الحاجة من المستمعين .

٢ — ما ضربت فيه الأمثال ، وبينت فيه الأحكام ، وصدقه الحس ووافقه العقل .

٣ — ما كانت لغته مفهومة بالنسبة للمستمعين ، وسلك فيه المدرس طريقا يهز به مشاعر سامعيه وعواطفهم ويدفعهم إلى العمل الصالح .

٤ — أن يتخلل الدرس ما يروح عن النفس ، ويذهب الملل والسآمة من غير أن ينقص من قيمة الدعوة والداعية .

٥ — أن يلتزم المدرس الإخلاص والوعى فيما يرشد الناس إليه ، وأن يعتمد إلى لب الموضوع دون القشور .

٦ — أن يتجنب المدرس فى دروسه كل ما يثير الجدل والمناقشة خاصة فى المسائل الفقهية .

٧ — أن يكون عفيفاً لا يسأل الناس على ما يقول فإن المرء لا يزال كريما على الناس ما استغنى عن دنياهم .

٨ — أن يتمثل بالحلم والصبر حتى يكون قدوة للناس لأنه يقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى حلمه وصبره .

٩ — أن يكون المدرس على صلة بأحداث مجتمعه الذى يعيش فيه وأن يستخلص من الآية أو الحديث أو القصة ما يحتاج إليه مستمعوه .

١٠ — أن يكون المدرس خفيف الظل بشوش الوجه ، حسن العرض حتى لا يهجره الجمهور .

١١ — أن يستخدم المدرس فى درسه الألفاظ الواضحة والعبارات السهلة ، وأن يكون خلال درسه مالكا لزمام نفسه فلا يثور لسؤال ولا يغضب لاعتراض أو مناقشة غير مظهر لما يعانيه خلال درسه .

١٢ — على الداعية المدرس ألا يستطرد كثيراً فى موضوع درسه ؛ لأن الاستطراد يبعد السامع عن أصل الموضوع ويبعث فى نفسه السآمة كما أن الاستطراد فى الموضوع ينسى بعضه بعضا .

١٣ — أن يكون المدرس قدوة حسنة لمن يعطيهم الدرس فلا يقول للناس قولا إلا إذا كان عاملا به حتى يؤثر فيهم وينتفعوا به .

١٤ — أن يعتمد فى درسه على المصادر الأساسية من القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة السلف الصالح رضى الله عنهم .

فائدة الدرس الدينى :

لو نظرنا إلى الدرس الدينى نجد أن فائدته أكثر من فائدة الخطبة لأن المستمع يستطيع أن يسأل ويستفسر فى الدرس عن كل ما يجول فى خاطره ومن هنا تكون فائدة الدرس أعمق وأدق بخلاف الخطبة فقد يحضرها البعض مرغمين وهم غير راضين عن الخطيب ، أما الدرس فلا يقبل عليه إلا الراغب فيه ، المتيقن من فائدته ، ولو لم يكن المدرس مقنعاً شكلا وموضوعاً ، ما أقبل عليه أحد من الناس ، إذن لا بد للدعاة فى دروسهم

من الالتزام بالقواعد والإرشادات السابقة حتى يؤثروا فى الناس قولا وعملا ويفد الناس إليهم من كل مكان .

الفرق بين الخطبة والدرس :

١ — الدرس كما قلنا أصعب من الخطبة ، لأن الخطبة تنحصر فى موضوع واحد لا تتعداه وكافة الأدلة فيها تؤخذ من الوجه المناسب للخطبة ، بلا تناول الوجوه الأخرى ، بينما الدرس يتعدى موضوعه بسبب أسئلة المستمعين ومحاوراتهم .

٢ — أن الخطبة والدرس يخاطبان الروح والعقل .

٣ — فى الخطبة يلتزم الخطيب بموضوعه الذى يتحدث عنه ولا يتطرق إلى موضوع آخر ، أما المدرس فإنه يتعدى الموضوع ويستطرد به الحديث إلى موضوع آخر .

٤ — الخطبة والدرس كلاهما قولا معـــد يهدف إلى الإقناع والاستمالة .

٥ — الدرس والخطبة كلاهما يهتم بالناس ويعايش مشاكلهم ويحاول إيجاد الحلول المناسبة من القرآن الكريم والسنة النبوية .

٦ — الدرس والخطبة كلاهما يحتاج من قائله أى المدرس والخطيب إلى الصدق والإخلاص وكثرة العلم والأسلوب السهل والكلام المفهوم .

المحاضرة :

هى عبارة عن معلومات منسقة يعالج بها المحاضر موضوعاً معيناً من الموضوعات من غير أن يلجأ إلى الانفعال والإثارة ،وقد يلقيها المحاضر نفسه أو من ينوب عنه ، وفى المحاضرة يسمح بالمناقشات والإجابة على الأسئلة التى توجه إليه من قبل المستمعين .

والمحاضرة الناجحة ما كانت تهدف إلى هدف معين ومحدد ،تجلى هذا الهدف وتبينه للناس البيان الشافى المقنع ، ويجب على المحاضر أن يكون دقيقاً فى كلامه ، لا يلقى القول جزافاً ، ولا يكثر من العبارات العاطفية، لأن مجالها الأصلى الخطبة وليس المحاضرة وأن يشرك السامعين معه فى الوصول إلى ما يريد .

ومن هنا فالمحاضر الناجح يختار موضوع المحاضرة مما يعرض له من مشاكل الحياة التى يعيش فيها ، ثم بعد ذلك يدرسه دراسة عميقة مدعماً هذه الدراسة بالحجج والبراهين والأدلة الواضحة ، ثم يختار له النصوص التى تؤيده من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة،والأحداث التاريخية الصحيحة ، والواقع الذى يعيش فيه الناس،حيث أن الهدف من المحاضرة إحياء المشاعر الإسلامية فى قلوب الناس ومراقبة الله تعالى فى الأقوال والأفعال ومحاسبة النفس على كل صغيرة وكبيرة.

شروط المحاضرة الناجحة :

لكى تؤتى المحاضرة ثمارها المرجوة منها يجب أن تتوفر فيها الشروط الآتية :

١ — يجب أن يكون الموضوع متناولا المشكلات التى يعانى منها

الناس فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، وتقـــدم حلولا لها على ضوء الإسلام .

٢ — أن يكون فى الموضوع مقارنات بين النظم الإسلامية وغيرها من النظم القائمة على أن يبرز فيها محاسن الإسلام ونظمه كنظام إلهى .

٣ — أن تشتمل على ما يظهر فضل الإسلام على غيره وحرصه على تحقيق الخير للناس أجمعين .

٤ — إظهار الحضارة التى وضع أساسها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وإبراز القواعد الإنسانية السامية التى قامت عليها تلك الحضارة ، التى سعدت بها البشرية فترة من الزمان .

٥ — أن يكون الموضوع مشتملا على مسائل يعرفها المسلمون لتوضيح النظم الإسلامية ، وإظهار أن فى تطبيقها سعادة لهم .

٦ — على المحاضر أن يدرس موضوع محاضرته دراسة وافية وأن يكون ملماً به وأن يقدمه للناس فى أسلوب سهل لا يمله المستمعون .

٧ — على المحاضر ألا يكون جافاً بل عليه أن يضفى على محاضرته شيئا من التحريك العاطفى الوجدانى بما يذكره من حقائق الإسلام ومعانى العقيدة الإسلامية .

الفرق بين المحاضرة والخطبة :

من المعلوم أن هناك اتفاقاً واختلافاً بين الخطبة والمحاضرة، فالمحاضرة تتفق مع الخطبة فيما يلى :

١ — أن الهدف من المحاضرة والخطابة هو إقنــاع الناس واستمالتهم .

٢ — المحاضرة تشتمل على أقسام تشبه الأقسام التى تحتوى عليها الخطبـة .

٣ — كلا من المحاضرة والخطبة قول معد يحتاج إلى جمهور ومستمع وإقناع بالحجة والبرهان فى أسلوب سهل ممتع وعبارات واضحة .

أما الاختلاف بين الخطبة والمحاضرة فهو :

١ — الخطبة جمهورها من سائر الطوائف ، أما المحاضرة فجمهورها من الخاصة .

٢ — الخطبة تستغرق وقتاً قصيرا محدداً ، أما المحاضرة فتستغرق وقتاً طويلا .

٣ — الخطبة يغلب عليها طابع الإثارة وتهييج العواطف والمشاعر ، أما المحاضرة فتعتمد عـــلى التحليل والتوضيح ويغلب عليها أسلوب الحقائق .

٤ — الخطيب فى خطبته مقيد بزمن ووقت معين وأسلوب معين يفهمه جميع الحاضرين على اختلاف مستوياتهم ، أما المحاضر فغير مقيد بزمن معين ولا أسلوب معين .

٥ — الخطبة يغلب على عناصرها المعانى الطارئة والخواطر العارضة أما المحاضرة فعناصرها محددة مقررة أشبه ماتكون بالقواعد والمبادىء الأساسية .

المناظرة :

هى حوار بين طرفين فى موضوع واحد ، كل طرف منهما يحاول إثبات فكرته والانتصار لها حيث يرى أنه هو الصواب وغيره على خطأ .

والمناظرة فن من فنون القول الهامة التى تفيد فى إقناع المخالفين فى الرأى والمغايرين فى العقيدة .

وتأتى أهمية المناظرة فى أنها وسيلة هامة لإقناع المعارضين والمعاندين وشرح حقائق الإسلام بأسلوب حكيم وحجة دامغة ، وهى من الصور الخطابية المحببة إلى الجمهور لأنها تتخذ طابع المعركة الكلامية وكأنها مباراة فى الخطابة .

الفرق بين المناظرة والخطبة :

المناظرة تغاير الخطبة ، لأن الخطبة تقال من شخص واحد للمستمعين، بينما المناظرة يقوم بها أكثر من طرف . والخطيب قد يجد نفسه فى مناظرة مع أحد الناس بعد إلقاء خطبته والانتهاء منها ، ولذلك يجب عليه أن يراعى ما يلى :

١ - إن هدف المناظرة العلمية هو الوصول إلى الحق دائما ومن هنا وجب على المناظر أن يترك كل رغبة فى الغلبة والانتصار على مناظره بلا حق أو استعمال القهر والسطوة .

٢ - أن يتحلى المناظر بالتواضع والعفو والإقبال على الموضوع بعقل متفتح وذهن سليم تاركا الحديث عن نفسه لأن الناس لا يحبون من يتحدث عن نفسه .

٣ — أن يسمع وجهة النظر المخالفة ويحاول أن يدلل على وجهة نظره بأدلة أخرى يؤيد كلامه بها بعيداً عن التشهير أو السب أو التجريح .

٤ — أن يكون ملماً بجميع أطراف الموضوع الذى يناظر فيه حتى يستطيع أن يصل إلى الوجهة التى يرضاها والتى تحقق الهدف من هذه المناظرة .

٥ — أن يتواضع مع من يناظره حتى ولو كان الشخص الآخر أقل منه علماً أو سناً .

٦ — أن يقصد من مناظرته هذه الوصول إلى الحق ورد شبه المعاندين وتفنيد حججهم الباطلة .

٧ — أن يتصف المناظر فى مناظرته لخصمه بالهدوء التام ، والأدب الجم وعدم رفع الصوت وعدم إغاظة مناظره والاستهزاء به .

الندوة :

هى عبارة عن مجموعة من العلماء يتناولون موضوعا معيناً ، كل واحد منهم يتناوله من زاوية معينة ، ويبين كل منهم رأيه وما يعود على الناس من الخير فى هذا الموضوع .

والندوة تقوم بدور كبير فى التوعية الدينية والاجتماعية ويشترك فيها أكثر من متحدث وخطيب .

وفى الندوة يكون المتحدث أكثر من واحد ، يتناول كل واحد الموضوع من زاوية معينة ، وقد يفتح باب التعليق والمناقشة ، والسؤال لجمهور المستمعين بعد ذلك .

فائدتها :

هـذا النوع من الخطابة مفيد جدا ، وأقرب إلى نفوس المستمعين لأنه فى حالة وجود متحدث واحد قد يبعث ذلك على الملل والسآمة ، أما فى الندوة فإن تعدد المتحدثين يبعث على النشاط والحركة ، ويعطى الاجتماع حرارة وقوة ، لأن المتحدثين يتناولونها من جميع الجهات كل منهم يعطى عصارة فكره وقصارى مجهوده وما نسيه واحد يذكره الآخر ومن لم يستطع أن يبين ما يريد يبينه الآخر وهكذا .

كما أن إشراك المستمعين فى الندوة ، واتخاذ القرارات يشعرهم أنهم أصحاب القضية المعروضة ، ويؤكد اهتمامهم بها واقتناعهم بما يسفر عنه الاجتماع من توصيات .

خصائص الندوة :

١ — يسمح بتعدد الموضوعات فى الندوة الواحدة .

فالندوة التى يشترك فى إقامتها مجموعة من العلماء ، تتناول موضوعاً واحداً معيناً يدلى فيه كل واحد منهم بدلوه ويساهم بفكره فى حل هـذا الموضوع والوصول فيه إلى نتيجة .

وقد تتناول الندوة أكثر من موضوع ، وهنا يراعى فى توزيع هذه الموضوعات التخصص العلمى الدقيق للعلماء المشتركين فى الندوة ، ضماناً لتحقيق الفائدة والثمرة .

٢ — تختص الندوة بسعة الوقت ، بل قد يكون الوقت فيها مفتوحاً وغير محدد بمدة زمنية معينة ، وهذا يرجع إلى تعدد الموضوعات من جهة ، وإلى السماح للمخاطبين بالمشاركة الكلامية من جهة أخرى .

٣ — تعدد نوعية جمهور الندوة ، والسماح له بتوجيه الأسئلة المتعددة فى موضوعها .. بل السماح لبعض الحاضرين من الجمهور أن يتحدث ويعلق ويناقش القضايا المطروحة فى الندوة .

الفرق بين الندوة والخطبة :

١ — فى الندوة : يحتاج الموضوع إلى أكثر من متحدث واحد قد يصل إلى ثلاثة أو أكثر . أما الخطبة فالمتحدث فيها هو الخطيب .

٢ — النـــدوة هى الوسيلة للكشف على وجه الحق فى موضوع تشعبت فيه الآراء ، واختلفت فيه الأفكار بحيث تنتهى الندوة ، وقد اتفق المجتمعون على رأى واحدة أما الخطبة فغير ذلك .

٣ — الندوة فيها تأكيد روح التعاون بين المتحدثين بعضهم مع بعض وبينهم وبين المستمعين أما الخطبة فغير ذلك .

٤ — الندوة هى السبيل إلى إستثارة العقول ، والقضاء على الجمود الفكرى وإتساع آفاق المستمعين ، ووقوفهم على دقائق الموضوع فى أسلوب سهل وبطريقة مشرقة .

المناقشة :

هى فن من فنون القول له أصوله ، وتطبيقاته وفوائده ، وهى أقوال جماعية يقوم بها عدد لا يقل عن ستة أفراد ولا يزيد عن عشرين لتسهيل المناقشة ويمكن الإتفاق والغرض منها توفير أكبر قدر ممكن للدراسة الجماعية ولتبادل الأفكار حول موضوع يهم الجماعة ، وإيجاد الحلول المناسبة له .

شروط المناقشة :

إشترط العلماء لنجاح المناقشة وجود موجه ، وملاحظ مع الجماعة أما الموجه فهو قائد مجموعــة المناقشة ودوره هو استخلاص الرأى من المجموعة ، والملاحظ هو الذى يسجل كل ما دار فى المناقشة من أجل تقييمها بعد ذلك ، والجماعة هى التى تقوم بالمناقشة التى أعدت لها عدتها ، واهتمت بموضوعها ودرسته دراسة وافية . ولابد أن يتوفر فى الموجه الإخلاص للفكرة ، وأن يكون محبوباً من الجميع ، وأن يكون واسع الأفق .

الفرق بين المناقشة والخطبة :

١ ـ الخطبة يؤديها شخص واحد هو الخطيب بينما المناقشة يؤديها أشخاص لا يقل عددهم عن ستة ولا يزيد عن عشرين .

٢ ـ الخطبة يقوم بإعدادها الخطيب وحده ، بينما المناقشة يؤديها المجموعة المشتركة فيها ، ويقيمها الجميع اعتماداً على مشاهداتهم الشخصية وملاحظات الملاحظ .

٣ ـ أدلة الخطبــة يقرؤها الخطيب أو يحفظها ، بينما أدلة المناقشة تكون كذلك وتكون بصورة أخرى كالأفلام المصورة والتسجيل الصوتى والرسوم هذا وتتفق الخطبة والمناقشة العلمية فيما يلى :

١ ـ كلا من الخطبة والمناقشة قول معد الهدف منه الاقناع والاستمالة .

٢ ـ كلاهما يخدم الناس لأنه يعايش مشاكلهم ، ويهتم بإيجاد حلول لها .

٣ ـ كلا يحتاج من قائله إلى الإخلاص ، وسعة الأفق ، ومحبة الجماعة .

فائدة المناقشة العلمية :

تفيد المناقشة العلمية فى تبادل الآراء وفهم الآخرين ، وإرضاء المعارضين وزيادة المعلومات ، وتحقيق الكرامة لكل فرد ، وتعبر عن الخواطر الوجدانية وتوسع دائرة الشورى بين المتناقشين وتعلم الجماعة ضرورة الشورى وتحل المشاكل بصورة ملزمة للجماعة، لأنها هى التى تتخذ القرار ، والموجه فى المناقشة قائد لا يتطرف ولا يفرض رأيه ، ويساعد الأعضاء على القيام بدورهم ، وعليه أن يتصرف مع أعضاء المناقشة بما يضمن لها النجاح .

المبحث الحادى عشر

الخطابة فى صدر الإسلام

كان لظهور الإسلام والدعوة لمبادئه أمراً خطيراً فى حياة العرب لم يقف أثره عند ترك عبادة الأوثان ، وإخلاص العبادة لله وحده ، بل غير عاداتهم ونظام حياتهم ، بما فرض عليهم من سلوك معين ، وبما حرم عليهم من عادات ألفوها ومرنوا عليها سنين طويلة ، فهو قد محا الفوارق بين الناس « أكرمكم عند الله أتقاكم »[1] ، وسوى بينهم جميعا فى الحقوق العامة ، وكان هذا أمراً خطيراً لدى العرب . كا حرم عليهم الخمر والزنى، ولم يكن ذلك أمراً هيناً بينهم .

وقد كانت هذه كلها أغراضا للشعر الجاهلى ، لذلك هدأ صوت الشعر وقل نشاطه لظهـــور الإسلام ، وقامت الخطابة بعبء تبليغ الرسالة وشرح مبادىء الإسلام ، وكان ذلك سبباً فى نهضة الخطابة وظهور عدد كبير من الخطباء ذوى اللسن الذين أثروا اللغة العربية بخطبهم وما أثر عنهم من كلام بليغ ، ومحاورات مقنعة ، وحكم قاطعة ، وأمثال سائرة ، وكان الذين يدخلون الإسلام إنما يدخلونه عن رغبة واقتناع وعاطفة ومحبة ، وكان حبهم للإسلام، يحملهم تلقائيا على الدعوة إليه، ويستعينون على ذلك بالخطابة ، فكان المحيط الإسلامى كله مدرسة خطابية ، قويت فيها الخطابة وكثر الخطباء فكانت الخطابة وسيلة من وسائل تبليغ الدعوة إلى الناس وبلغت شأناً عظيماً كذلك فى عصر الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ، ذلك لأنهم أهل بيان وبلاغة وفصاحة بما غذاهم القرآن الكريم من

---

(١) الحجرات : ١٣

وروعة الألفاظ وبما اشتمل عليه من الأساليب الجميلة البلاغية ، التى تلفت العقل وتثير الوجدان وتؤثر فى العاطفة ، ولم يكن لها وقت معين ، بل بل كلما دعت الحاجة إلى أمر ذى بال اجتمع الناس وألقيت عليهم وكان لها تأثير كبير على نفوسهم تفعل فيها ما لا تفعل الحراب .

مميزات الخطابة فى صدر الإسلام عنها فى العصر الجاهلى :

يقول الشيخ على محفوظ رحمه الله : امتازت الخطابة فى الإسلام عنها فى الجاهلية لأسباب منها :

١ — أخذها وجهــة دينية فى مثل خطب الجمع والأعياد والحج والوعظ والإرشاد .

٢ — إتباعها خطة سياسية فى مثل تكوين الأحزاب وتأليف الجماعات وتوحيد الكلمة والتحريض على الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى .

٣ — صفاء ألفاظها وسهولة عباراتها ومتانة أساليبها .

٤ — قوة تأثيرها ووصولها إلى سويداء القلوب وإمتلاكها الوجدان والشعور بما يرقق القلوب القاسية ويسيل الأعين الجامدة .

٥ — محاكاتها أسلوب القرآن الكريم فى الإقناع واستمدادها من آياته حتى اشترط بعض الأئمة اشتمال الخطبة على شىء منه .

٦ — بداءتها بحمد الله عز وجل والثناء عليه تعالى والصلاة والسلام على النبى ﷺ وآله وصحبه رضى الله عنهم .

دواعي الخطابة في صدر الإسلام

كانت دواعي الخطابة في صـــدر الإسلام تتفق مع ما عرض لهم ، وما سادهم من حياة ، وما طرأ عليهم من أحوال وشئون سياسية واجتماعية ، ومن هذه الدواعي :

١ — بيان الأحكام الشرعية :

لما دخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً كان النبي ﷺ ، يبين لهم أحكام دينهم ، ويعرفهم ذلك الشرع الشريف ، وذلك الهدى القويم ، ويبين تفاصيل ما أجمل القرآن الكريم ، كما قال عز وجل: « وأنزلنا إليك الذكر ، لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون »[١] ويوضح لهم ما أشكل عليهم فهمه ، أو ما التبس من أمر هذا الدين ، وذلك البيان كان بأقوال محكمة ، فيها وحي النبوة ، وقبس من نور الرحمن « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلى وحي يوحى ، علمه شديد القوى »[٢] أنظر إلى خطبته عليه الصلاة والسلام التي مطلعها : « أيها الناس ، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم » ، وخطبته في حجة الوداع ، ترى فيها الترغيب مع مع الترهيب ، والموعظة الحسنة ، والإيجاز الذي وفى ، وجمع فأوعى .

٢ — الجهاد في سبيل الله :

عندما اعتدى المشركون على المسلمين ، أمر الله تعالى ، رسوله ﷺ بأن يقاتل المشركين كافة ، كما يقاتلونه كافة ، فقاتلهم عليه الصلاة

(١) النحل : ٤٤

(٢) النجم : ٣ ، ٤ ، ٥ .

والسلام حتى صار الدين كله لله سبحانه وتعالى ، لا سلطان لأحد على القلوب، ومن بعده أبلى المسلمون الثابتون بلاء حسناً فى قتال المرتدين ، وفى حروبهم فاتحين البلاد شرقاً وغرباً ، وكانت الخطابة ذخيرة معهم ، يحتفظ بها القواد ليمدوا بها الجند ، إن رأوا فيهم إعياء ، فيجعلوا من ضعفهم قوة ، ومن تقهقرهم تقدماً وانتصاراً .

قال نابغة الحروب نابليون فى بيان مقدار حاجة الجيوش إلى القوة المعنوية : نسبة القوة الجسدية إلى القوة المعنوية فى الإنتصار كنسبة ١ : ٣ وقال أحد القواد الألمان فى ذلك العصر : أنه مع التقدم الفنى فى العصر الحديث ، نرى العنصر المعنوى برهن على أنه فى الحاضر ، كما كان فى الغابر ، العامل الحاسم فى الحروب .

فالجيش من غير روح تدفعه كالسيف من غير يد تحمله ، لا يريق دماء ولا يدفع عدواً ، ولا يغذى الروح إلا الخطابة ، فالجهاد فى سبيل الله فتح للخطابة باباً واسعاً .

٣ — ولاية الأمر :

كان أولياء الأمر يعنيهم أن يطلع المسلمون على سياستهم ، وسنة حكمهم ، وينتهزون الجمع ، والأعياد ، والمواسم ، خصوصاً موسم الحج ، فرصة عظيمة لذلك يبينون فيها ما يريدون من طاعة فى الحق وكان كل خليفة بعد تمام بيعته ، يتقدم لجماعة المسلمين ، ويبين لهم ما سيأخذهم به ، وما يدعوهم إليه ، كما فعل سيدنا أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين ، وكان الولاة والعمال يسيرون على ذلك النهج السوى ، يبينون للرعية ما سيتبعونه فى حكمهم ويسلكونه فى إرشادهم ، وهذا الأمر لا يكون إلا بالخطابة القوية مما جعل الخطابة تحيا وتنتشر ويرتفع عمودها .

٤ — الدعوة إلى الوحدة :

كانت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية غرضاً مقصوداً من أغراض الخطابة ، وداعياً حافزاً من دواعيها ، فقد كانت الخطابة هى الوسيلة لجمع المسلمين إذا تنافروا ، بها ترجع النفوس الشاردة وتهدأ القلوب الثائرة . وقد حدث فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ما هدد الوحدة الإسلامية ، لولا هدى المصطفى عليه الصلاة والسلام فبعد حرب هوازن وتوزيع الغنائم حز فى نفوس الأنصار إن لم يأخذوا منها شيئاً وسرت القالة منهم بذلك ، فوقف الرسول صلى الله عليه وسلم خطيباً ، ورد نفوسهم الشاردة إلى نور الحق المبين ، وقد كادت تتمزق الوحدة الإسلامية بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وتذهب ريح المسلمين باختلافهم ، حتى كاد الأنصار يولون عليهم خليفة ، والمهاجرون مثله ، لولا حكمة أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى خطبته ، وعزمة عمر ، وكانت الخطابة هى البلسم الشافى ، والدواء الناجع ، عنـــدما تطيش الأحلام وتهيج النفوس .

عوامل رقى الخطابة وازدهارها فى صدر الإسلام

وجدت الخطابة فى البيئة الإسلامية عوامل رقى ، وأسباب تقـــدم وازدهار ونمو ، من هذه العوامل :

١ — ظهور رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، التى أخرجت العالم من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهدى . ومن الباطل إلى الحق ، فإن الدعوة إلى الدين القويم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ورفع الفقر وردع الباطل وبدعه ، وتحميس الجند كل من أغراض الخطابة ، فهى كانت الأداة الأولى للدعوة المحمدية . وكانت السلاح الذى يرفعـــه خصومه فى الرد عليه ، فكانت تلك الدعوة سبباً فى انتشار الخطابة

وازدهارها ، ورفع درجة البيان ، وقد كان لها من آى القرآن الكريم وحديثه معين لاينضب ومدد لاينفذ ، والدليل على ذلك ما ذكره القرآن الكريم من اسلوب خطابى فى بعض الأحيان على نمط لم يألفوه ، فهو يقصد إلى التأثير والإقناع معاً بطريقة أجبرتهم على أن يتبعوا خطاه ويسيروا على منواله ، وقد ضرب الله عز وجل المثل لبنى إسرائيل.

فقال تعالى: « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ، وآمنوا بما انزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون ، واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ... إلى قوله تعالى : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون »[1] .

فإذا دققنا النظر فى هذه الآيات الكريمة نجد ان فيها إرشاداً إلى الأسلوب الخطابى المقتبس من هذا الكتاب السماوى الخالد ويشتمل على مقدمة الموضوع وهو حث بنى إسرائيل على تذكيرهم بنعم الخالق جل فى علاه ، ثم عرض للموضوع واخيراً الختام الذى يذكر أهم الحقائق التى لابد من بيانها للمدعو ونجد ان القرآن الكريم يعلمهم فن القول والتخاطب فى كثير من المواطن بقوله : « قل » التى ذكرت فى القرآن الكريم ٣٣٢ مرة مثل قوله تعالى : « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً »[2] .

« قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم »[3] « قل سيروا فى الأرض

---

(١) البقرة : ٤٠ — ٧٥

(٢) الأعراف : ١٥٨ (٣) النمل : ٦٩

فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين »[1] « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول »[2] ، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي ذكر فيها لفظ « قل » .

٢ – اقتباسها من القرآن الكريم :

يقول الجاحظ : كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن الكريم فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وحسن الموقع[3] .

ويقول أيضا : إن الخطبة إذا لم توشح بآيات من القرآن الكريم سميت شوهاء[4] .

وفي آثار الصحابة رضي الله عنهم الكثير من هذه الأمثلة مثال ذلك ما قاله سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه في إحدى خطبه : الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأومن به وأتوكل عليه وأستهدي الله الهدى وأعوذ به من الضلالة والردى ، من يهده الله فهو المهتدي ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت وهو حي لا يموت ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير[5] .

٣ – الصراع بين الدعاة إلى الله عز وجل وبين المعاندين من الكفار

(١) النمل ٦٩ (٢) النور ٥٤
(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٧
(٤) المرجع السابق ج ٢ ص ٦
(٥) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ج ٢ ص ١٣١

والمشركين وغيرهم فكل منهم يريد أن يجذب الآخر نحوه ونحو دعوته عن طريق الإقناع والإستمالة وهذا الشيء اعتمد في حد ذاته على الخطابة، وهذا الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ وبين عتبة بن ربيعة يبين لنا مدى الإصرار من المعاندين في بقائهم على كفرهم بل في جذب المسلمين إلى جانبهم: فقد كلفت قريش عتبة بن ربيعة ليعرض على الرسول ﷺ أموراً لعله يقبل بعضها وينصرف عن هذه الدعوة.

فقال عتبة بن ربيعة للرسول ﷺ: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها، فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع. قال: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني، قال: أفعل فقال: بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون.. فأخذ الرسول ﷺ يقرأ في نفس السورة إلى أن وصل إلى قوله تعالى: «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» وهنا أحس أبو الوليد بأن صاعقة ستنزل عليه فارتعد وقال: يا محمد أمسك عن القراءة»[1].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام.

٤ — التزام الرسول ﷺ لمنهج الدعوة الى الله تعالى كما جاء فى القرآن الكريم حيث يقول رب العزة سبحانه وتعالى لحبيبه ومصطفاه : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »[1] .

وفى الآية الكريمة لفتتين عظيمتين :

١ — فى لفظ « وجادلهم » ولم يقل « وألزمهم » لأن الهدف من المجادلة هو الوصول إلى الحق والصواب ، بخلاف ألزمهم فإنه إجبار لهم وقسر وليس هذا من دعوة الإسلام .

٢ — فى لفظ « أحسن » ولم يقل « أخشن » أو « أقوى » ليتبين لنا أن الحسنى من سمات هذه الدعوة العالمية دعوة الإسلام الحنيف .

وهذه الدعوة كثيراً ما تكون عن طريق الخطبة الدينية التى يقوم بها الداعية إلى الله تعالى الموفق فى آداء رسالته ، ويكفى هذا الداعية فخراً وتيهاً ما قاله الله عز وجل فى حقه : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين »[2] .

وبلغ من إقتداء الصحابة عليهم رضوان الله تعالى بالرسول ﷺ فى الخطبة أنهم كانوا يفتتحونها بالتحميد والتمجيد لله عز وجل ، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلقون على الخطبة التى لم تبدأ بذلك « البتراء » .

٥ — الأفكار الجديدة التى عمل الإسلام على بثها بين المدعوين فتقبلها هؤلاء باهتمام بالغ ، لأنها كانت تغريهم دائما وتأخذ بأيديهم إلى سبيل

---

(١) النحل ١٢٥ (٢) فصلت ٣٣

الرشاد ونضرب مثالا لذلك قول الله جل فى علاه : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت »[1] :

فهذه دعوة الله تبارك وتعالى إلى عباده للتفكر فى ملكوت الله تعالى، والتطلع إلى هـــذا الكون الفسيح حتى يصل الإنسان من خلاله إلى الإيمان الصادق والحياة الصحيحة التى يجب أن يحياها الإنسان فى دنيا الناس .

٦ ــ مبدأ الحرية الصحيحة الذى أقره الإسلام ، ويتجلى هذا المعنى فى أول خطبة خطبها أبو بكر الصديق رضى الله عنه عقب توليه الخلافة الإسلامية حيث قال رضى الله عنـه : « أيها النـاس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى وإن رأيتمونى على باطل فسددونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلاطاعـــة لى عليكم »[2] .

يتضح لنا من قول سيدنا ابى بكر الصديق رضى الله عنه ان الإسلام الحنيف قد ترك لأتباعه حرية النقد البناء وذلك لإصلاح المجتمع وقد سوى فى ذلك بين الحاكم والمحكوم والعظيم والحقير والسيد والعبد والغنى والفقير والقوى والضعيف وصاحب الحسب والنسب ومن لاحسب له ولا نسب مما حمل الكثير من الصحابة رضى الله عنهم وغيرهم من البشر على ان ينطقوا بكلمة الحق ، وبهذا ازدهرت الخطابة وأينعت وآتت ثمارها .

---

(١) الغاشية ١٧ ــ ٢٠

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٠٣

٧ — مبدأ الشورى الذى دعا إليه هذا الدين الحنيف ويتجلى هذا فى قول الله عز وجل: «وأمرهم شورى بينهم»[١] وقوله تعالى: «وشاورهم فى الأمر»[٢].

ومن ذلك ما قاله أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوم السقيفة: «أيها الناس نحن المهاجرين، أول الناس إسلاماً، وأكرمهم حسباً، وأوسطهم داراً وأحسنهم وجوهاً، وأكثر الناس ولادة فى العرب، وأمسهم رحماً برسول الله ﷺ، أسلمنا قبلكم، وقدمنا فى القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان» فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إلى أن قال: فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش، فلا تنفسوا[٣] على إخوانكم ما منحكم الله من فضله[٤]».

٨ — ماحدث بين المسلمين بعد مقتل سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه، من فتنة كادت تؤدى إلى ضياع وحدتهم واجتماع كلمتهم لولا عناية الله تعالى بعباده المؤمنين، هذه الفتنة نشأ عنها الأحزاب والفرق المختلفة، مما حدا بكل واحد منهم يريد أن يؤيد وجهة نظره فلم يجد سوى الخطابة وسيلة يصل من خلالها إلى غرضه الذى يريده فالخطبة على هذا الأساس وسيلة جيدة من وسائل التبليغ إلى الله تعالى وعلى الخطباء فى عصرنا الحاضر أن يكونوا على مستوى المسئولية فى خطبهم وأن يقتدوا برسول

---

(١) الشورى: ٣٨

(٢) آل عمران: ١٥٩

(٣) نفس عليه الشىء لم يره أهلا له.

(٤) عيون الأخبار جـ٢ ص٢٣٤

الله ﷺ تنفيذ الأمر الله تعالى حيث قال : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً »[1] .

ويقتدوا بصحابته الكرام رضى الله عنهم فى تبليغ الدعوة إلى الله تعالى .

إن الخطيب الذى يتطلع المستمعون إلى حسن قوله وصالح سيرته ، ينبغى له أن يكون نموذجاً مشرفاً وصورة مشرقة لما يدعو الإسلام إليه من التحلى بمكارم الأخلاق والتخلى عن الرذائل .

ومعلوم أن الخطيب لا يستطيع أن يحرز تقدماً ، ولا يحقق نجاحاً إلا إذا أعد للأمر عدته ، وتزود لمهمته بخير الزاد ، الذى يعينه على تحقيق غايته وهى اقناع عقول مستمعيه ، وامتاع نفوسهم .

الألفاظ والأساليب والمعانى :—

١ — الألفاظ :

صفت ألفاظ الخطابة فى ذلك العصر ، وسهلت ورقت وعذبت ، والسبب فى ذلك يرجع إلى تأثرهم بالقرآن الكريم ، واقتفائهم طريقه ، وسلوكهم سبيله ، إذ رأوه المثل الأعلى للكلام ... وإذا رقت النفس وسهلت ، لا يصدر عنها إلا العذب السهل من الألفاظ ، وإذا كان العربى قد ذاق النعيم ، ورأى مناظر الترف ، وعاش فى مشاهده ، فلابد أن تلين ألفاظه ، وتسهل عباراته ، لأن الألفاظ صورة لما يألفه القائل ، ويعرفه المتكلم ، كما ذهب من الألفاظ الغريب لاجتماع العرب على لغة واحدة هى لغة قريش ، والخطابة غايتها توضيح الأحكام والشرائع والسنن ، أو الحث

---

(١) الأحزاب : ٢١

على الجهاد، أو المشاورة وإبداء الرأى والنصيحة للإمام فكان لابد من الوضوح والسهولة ومن هنا كان المسلمون يميلون إلى التكلم فى خطبهم بكلام يشبه الكلام العادى فى سهولته، وعدم تكلفه، بعيداً عن التفيهق والتشادق .

٢ — المعانى : —

أما المعانى فقد سلكت مسلكا يتفق مع الحياة الإسلامية فى مظاهرها فكانت المعانى دينية، حيث كانت خطبهم فى الحروب، دعوة إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى، وإعلاء كلمته، ورفع لدينه، ونشر لدعوته وخطبهم فى الشورى صورة لفهمهم الدين، كل يدلى بالرأى ويربط دعواه بالمبادىء الدينية، وخطبهم فى الإجتماع والألفة أدلتهم فيها القرآن الكريم والسنة النبوية، وهكذا كل أغراضهم الخطابية، الدين فيهـا هو الأساس، وعليه يدور كلامهم، وذلك لأن الدين قد تغلغل فى كل مظاهر حياتهم .

وكانت المعـانى فى ذلك العصر مسلسلة متصلة الأجزاء، محكمة الأواصر، ولم تكن منتثرة، كما كانت فى العصر الجاهلى، وقد كان الخطباء يسلكون فى الإستدلال الخطابى الطريق المنطقى، والطريق الوجدانى، وذلك لتأثرهم طريق القرآن الكريم فى الإستدلال وأخذهم من معانيه، ونيلهم من هديه، إذ كان المثال الذى يحتذونه، والمنار الذى يهتدون به .

٣ — الأسلوب :

إن الأسلوب الخطابى فى صدر الإسلام بلغ من الإحكام مبلغاً ندر أن يحاكيه فيه عصر من عصور اللغة، أو يصل إليه خطباء أى زمن سابق أو لاحق لذلك العصر، حيث صـارت الخطبة مقسمة، وكل قسم يرتبط

بما سبقه فتبدأ الخطبة بمقدمة فيها يحمد الخطيب الله سبحانه وتعالى ويثنى عليه بما هو أهله ، ويصلى على الرسول ﷺ ، ثم يدخل على الموضوع فيقدم مايراه دليلاً لدعواه وبرهاناً لما يراه ، وبعد أن يتم القول فيه ، يتجه إلى الله عز وجل يدعوه أن يوفقه إلى الرشاد ويلهمه السداد .

وهذا الأسلوب بلاشك هو من أفضل الأساليب وأحكمها، لأن أكثر الخطباء كانوا يقتبسون من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، وفيهما من البلاغة والفصاحة والبيان والروعة والأسلوب الرائع المحكم، مالا يستطيع أحد أن ينكره ، فاتجهوا إلى الإقتباس منهما ، ليكسوا كلامهم طلاوة وحلاوة وقوة تأثير ورنين فى الآذان ، وارتفعت الخطبة بالإقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية إلى الذروة من البيان والقمة من التأثير ، بالإضافة إلى بلوغ المقصد من أقصر طريق .

قال الجاحظ : إن الخطبة تسمى شوهاء إذا لم تحمل بآية من كتاب الله عز وجل .

وقال أيضاً : كانوا يستحسنون أن يكون فى الخطبة يوم الحفل وفى الكلام يوم الجمع ، آى من القرآن الكريم فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وحسن الموقع .

خطباء العصر الإسلامى :

فى هذا العصر كثر عدد الخطباء النابغين كثرة لا تعدلها كثرة فى أى عصر من عصور الخطابة ، وإمامهم وعظيمهم سيد المتكلمين سيدنا محمد ﷺ ، ودونه منزلة أفواج كثيرة من الخطباء .

أولهم على بن أبي طالب، ثم أبو بكر الصديق، وعمر، وعثمان، عبد الله بن عباس رضى الله عنهم أجمعين، ويلى هؤلاء كثيرون منهم عمرو ابن معدى كرب الزبيدى، ومن خطباء الشيعة صعصعة بن صوحان وأبو الأسود، ومن خطباء الخوارج عبد الله بن وهب الراسبى، ويزيد ابن عاصم المحاربى وغيرهم.

هذا وقد توج هذا العصر بوجود عدد عظيم من النساء يجدن الخطبة والبيان، منهن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، وسودة بنت عمارة وأم الخير بنت الحريش، والزرقاء بنت عدى، وأم كلثوم بنت الإمام على رضى الله عنهما، وغيرهن كثير.

نماذج من خطب العصر الإسلامي:

١ — خطبة الرسول ﷺ فى حجة الوداع:

قال ﷺ: إن الحمد لله نحمده، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعة الله، واستفتح بالذى هو خير.

أما بعـــد:

أيها الناس، اسمعوا منى أبين لكم، فإنى لا أدرى، لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، فى موقفى هذا،.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت، اللهم فاشهد، فمن كانت عنده أمانة، فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن ربا

الجاهلية موضوع[١] وأول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعه، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإن مآثر[٢] الجاهلية موضوعة، غير السدانة والسقاية، والعمد قود[٣]، وشبه العمد ماقتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك، مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس، إنما النسىء[٤]، زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً، ويحرمونه عاماً، ليواطئوا[٥] عدة ماحرم الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات، وواحد فرد، ذو القعدة، وذو الحجة والمحرم، ورجب الذى بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت، اللهم اشهد.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقا، وإن لكم عليهن حقا، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن، فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن[٦] وتهجروهن فى المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح.

---

(١) موضوع يعنى ساقط.
(٢) مآثر هى المفاخر.
(٣) القود: قتل النفس بالنفس.
(٤) النسىء: تأخير حرمة شهر إلى آخر.
(٥) ليواطئوا: ليوافقوا.
(٦) المراد به المنع الشديد أو الحبس.

فإن أنتهين ، وأطعنكم ، فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان(١) ، لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا .

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض ، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا ، كتاب الله ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، ايها الناس إن ربكم واحد ، وإن اباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن اكرمكم عند الله اتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، الاهل بلغت ، قالوا نعم ، قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، ايها الناس : إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا يجوز وصية في اكثر من الثلث والولد للفراش ، وللعاهر(٢) الحجر ، من ادعى إلى غير ابيه ، اوتولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة ، والناس اجمعين ، لا يقبل منه صرف(٣) ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله .

هذه الخطبة تعتبر من الخطب الجامعة لرسول الله ﷺ ، وذلك لما احتوته من تعاليم كثيرة هامة ، تنفع المسلمين في دينهم ودنياهم ، وهي آخر خطبة جامعة للرسول عليه الصلاة والسلام ، وتبدو قوتها وصرامتها في انه ﷺ طبقها على اقرب الناس إليه قبل ان يطبقها على الآخرين ، فبدا

---

(١) المراد بها الأسيرة .

(٢) العاهر : الزاني أي لا حق له في الولد إنما لصاحب الفراش وهو الزوج أو المولى .

(٣) الصرف : التوبة والعدل : الفدية .

بوضع ربا عمه العباس وقد ضاع بهذا على العباس مال كثير ولكن حسبه ان كان له رأس ماله ، كما وضع دم ابن عمه عامر بن ربيعة بن الحارث ، وكان له بلاء مشهود يوم بدر ، وكانت الطريقة الجارية هي الأخذ بالثأر ، لكن الإسلام يجب ماقبله ، لهذا ترك الرسول ﷺ هذا الثأر .

وقد آخى رسول الله ﷺ بين المسلمين ، وجعل دماءهم متكافئة ، ونبههم إلى هذا بأن أصلهم واحد هو آدم ، وإنما يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح لا بالأجناس والأحساب ، فالله جعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا ،كما ان الخطبة لم تغفل شأن المرأة وما لها من حقوق، وما عليها من واجبات .

والخطبة ليست طويلة ولاقصيرة بالنسبة لما جاء بها من تعاليم شرعية وهي نموذج من البلاغة النبوية ، ونموذج من الاصلاح الاجتماعي الشامل ونموذج من اصلاح الإسلام ، لأنها تعكس بوضوح جوانب من العادات العربية السيئة التي كانت شائعة قبل الإسلام .

٢ ــ خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين اشير عليه بترك المرتدين :

قال رضي الله عنه بعد ان حمد الله واثنى عليه بما هو اهله وصلى على رسوله ﷺ : أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله لايموت ، ايها الناس : إن كثر اعداؤكم ، وقل عددكم ، ركب الشيطان منكم هذا المركب ، والله ليظهرن هــذا الدين على الأديان كلها ، ولو كره المشركون قوله الحق ، ووعده الصدق بل نقذف بالحق على الباطل ، فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما

تصفون ، « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

ايها الناس : والله لو افردت من جمعكم لجاهدتهم فى الله حق جهاده حتى أبلغ من نفسى عذرا ، او اقتل مقتلا ، ايها الناس والله لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه ، واستعنت بالله ، إنه خير معين » .

المبحث الثاني عشر

الخطابة فى العصر الأموى

عندما جاء العصر الأموى كثرت الأحزاب السياسية والفرق الدينية ذات الآراء المختلفة فكانت هذه الأحزاب والفرق تتحارب باللسان كما كانت تتحارب بالسنان ، وظهر ذلك واضحاً بين الخوارج والشيعة .

فالعصر الأموى يعتبر ثمرة الأحداث التى حدثت فى آخر عصر الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وطول مدة الخليفة الرابع سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وإذا كان رقى الخطابة فى صدر الإسلام بسبب تقليد العرب للقرآن الكريم والسنة النبوية ، فإن الرقى فى العصر الأموى زاد وتقدم تقدماً هائلا حتى أينع الثمر وتم النضج وزادت الثقة خصوصاً بعد أن رتب معاوية ومن خلفه أناساً يعظون فى المساجد بعد أن كان الوعظ الدينى مقصوراً على الأئمة .

هذا وقد وصف المرحوم الأستاذ محمد المهدى بك الخطابة فى العصر الأموى قائلا :

هذا عصر صارت الشجاعة فيه وراء البيان ، وملك اللسان منه ما لم يملك السيف وتسابق الناس فيه إلى غاياتهم بحسب مقالاتهم وقد رأوا المثل الأعلى فى الكتاب العزيز فتساموا إلى طريقه فى الإمتاع وإقامة الحجة واقتبسوا من [illegible] بروحه ليحيوا فى بلاغتهم حياة

جديدة ... ولذلك كثر فى هذا العهد خطباؤهم كثرة لم تعهد فيهم من قبل ولا من بعد وأجادوا إجادة لا نظير لها .

ويعلق الشيخ أبو زهرة على هذا فيقول :ــ هذا قول حق إذا كان موضوعه صدر الدولة ووسطها ، أما فى آخرها فقد ركدت ريحها قليلا حتى استيقظت قوية أمداً قصيراً فى صدر الدولة العباسية .

دواعى الخطابة فى العصر الأموى

كثرت دواعى الخطابة فى صدر الدولة الأموية ووسطها ، واتسعت موضوعاتها ، وتشعبت نواحيها ، وكان من أعظم الدواعى ما يلى :

١ ــ الفتن :

قامت الفتن فى العصر الأموى ، وتأججت نيرانها . واشتد لهيبها بعد موت معاوية عندما تولى يزيد ابنه الحكم ، فقد انقسم المسلمون إلى أحزاب : شيعة وخوارج ، وأمويين ، وزبيريين ، وكل يدعو الناس إلى فكرته ، وتأييد دعوته ، واشتبكت الحروب بين هذه الطوائف وكان من وراء السيوف الخطب القوية . والعبارات الشـــديدة الدافعة إلى الموت ... فالخطابة وجـــدت فى تلك الفتن معينا للقول ، وحافزاً إليه فالمعترضون على بنى أمية يذكرون مساوئهم ، ويرمونهم بالخروج على الدين ويذكرونهم بماضى أسلافهم فى محاربة النبى ﷺ والسابقين والأمويون يرمونهم بالبغى والخروج على الطاعة وكل هـذا لا يكون إلا من خلال الخطب القوية الرنانة .

٢ — السياسة :

عندما توجد الفتن فى المجتمع ، لابد أن يبين الخلفاء سياستهم للناس ليأخذوهم بها . لأن النفوس فى هذه الحالة تكون فى قلق دائم ومستمر ، فكان خلفاء بنى أمية وأتباعهم يبينون حكمهم وعدالته ، وإحسانهم للناس إن اتبعوهم وأخلصوا لهم ، ويهددون وينذرون من يخرج أو يحيد عن الجادة. وكل هذا لا يكون إلا من خلال خطب تقال وخطباء يجيدون القول وصناعته .

٣ — الفتوح الإسلامية :

لم تنقطع الفتوح الإسلامية فى العصر الإسلامى ، ووجد الأمويون فيها شاغلا للعرب ، يمنعهم من التفكير فى أمرهم ، والانقضاض عليهم ، فوجهوهم إلى البلدان ، وفرقوهم فى الأمصار ، لكيلا يكون بأسهم بينهم ، ففى عصر معاوية فتحت بلاد فى شمال أفريقية والسند ، وبعض أفغانستان ، وفى عهد عبد الملك والوليد إبنه تم الاستيلاء على شمال أفريقية ، والأندلس ، وامتد السلطان الإسلامى إلى بلاد البنجاب فى الهند ، والحروب تحتاج إلى الخطابة والبيان والخطباء البلغاء ، الذين يثيرون الحماسة فى نفوس الجند .

٤ — الوعظ الدينى :

حيث إنصرف البعض إلى العبادة والزهد فى الحياة ، والدعوة إلى الله تعالى ، . ومنهم من انصرف إلى دراسة العقائد ومجادلة الخارجين عن الإسلام بالحسنى ، وتقديم الدليل ، وكان السبب فى ذلك هو الخلافات القائمة بين بنى أمية ومناوئيهم ، فقاموا بإرشاد الناس ووعظهم ودعوتهم إلى وحدة الأمة وتماسكها والإبتعاد عن هذه الخلافات ، وعدم التعصب ،

أو الإنضمام إلى طائفة محددة ومن هؤلاء : الحسن البصرى ، وواصل بن عطاء ، ومالك بن دينار وهذا بلا شك كان سبباً من أسباب ظهور الخطابة ودواعيها .

٥ — الوفادة :

فى العصر الأموى كثرت الوفادة على الخلفاء والأمراء ، إما برفع شكاة أو إعلان التأييد والنصرة ، وأحياناً كان الخليفة يدعو بعض الوفود ليسدى إليهم يداً ، أو يتقرب إليهم ، أو يعاتبهم على ما حدث منهم ، والمعروف أن الوفود تكون من كبار المتكلمين المجيدين يلقون كلامهم فى لسان مبين . وقول حكيم ، وأسلوب محكم ، وإذا حدث اعتراض من أحد ردوا عليهم بأحسن الخطاب وأجمله ، ولابد للوافد عن قومه أن يكون عميدهم ، وزعيمهم . فهو واحد يعدل قبيلة . ولسان يعرب عن ألسنة .

لذلك كانت كثرة الوفادة ، فى ذلك العصر عاملا من عوامل انتشار الخطابة وموضوعاً من موضوعاتها .

٦ — المدح والتهنئة والعزاء :

فى العصر الأموى كانت الخطابة تقال فى بعض الموضوعات التى كان يقال فيها الشعر ، فكان من الخطباء من تكون كل خطبتهم مدحاً فى خليفة، أو تهنئة بولاية ، أو تعزية لفقد عزيز كريم ، وقد تكون الخطبة أحياناً مشتملة على التهنئة والتعزية، عندما يتولى الخلافة ابن الخليفة ، كما فعل كثير من الخطباء فى عزاء يزيد فى معاوية وتهنئته بالملك ، فيجتهد الخطيب فى هذه الحالة . أن تكون خطبته جامعة بين تعزية الواسى فى فقد ، والمهنئ لنيل أمل كان مرتجى .

٧ — مجالس المباراة فى الخطابة :

كانت تعقد مجالس للمباراة فى الخطابة ، والسبق فيها ، وكثيراً ما كان يدعى الشخص إلى القول مفاجأة ، لاختبار قوة بيانه وفصاحته ومن ذلك ما عقده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق من مجلس للخطابة تبارى فيـه خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة ، والفضل بن عيسى ، وواصل بن عطاء ، وقد نال فى ذلك المجلس قصب السبق واصل بن عطاء ، وقد كانت مجالس معاوية تشتمل على شىء من هذا النوع من المباراة ، ومن ذلك خطبة سحبان التى ألقاها أمام معاوية من صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ، فإنه يروى أن وفداً من خراسان فيهم سعيد بن عثمان ، قدم على معاوية . فطلب سحبان ، فلم يوجد فى منزله ، فاقتضب من ناحية إقتضاباً ، وأدخل عليه فقال : تكلم ، فقال : إنظروا إلى عصا تقوم من أودى ، قالوا : وما تصنع بها ، وأنت فى حضرة أمير المؤمنين، قال : ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه ، فضحك معاوية ، وقال: هاتوا عصا فجاءوا بها إليه ، فرجلها برجله ، ولم يرضها ، وقال : هاتوا عصاى فأخذها وتكلم من صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ، ما تنحنح ، ولا سعل ولا توقف ، ولا ابتدأ فى معنى ، فخرج منه ، وقد بقى عليه منه شىء ، فمازالت تلك حاله ، حتى أشار معاوية ، فأشار إليه سحبان أن لا تقطع على كلامى ، فقال معاوية : الصلاة. قال :هى أمامك، ونحن فى صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب ، فقال سحبان : والعجم والانس والجن .

وقد كانت تلك المباراة من أسباب انتشار الخطابة وكثرة موضوعاتها، وازدهارها فى العصر الأموى .

— عوامل رقى الخطابة وعوامل ضعفها فى العصر الأموى —

العصر الأموى هو العصر ، الذى تألقت فيه الخطابة ، وبلغت فيه غاية بعيدة من الرقى والإزدهار ، وقد ساعد على ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والحضارة ، وكان لها أثرها فى ذلك العصر كما كان لها أثرها فى عصر صدر الإسلام .

يقول الشيخ أبو زهرة عن ذلك :

والأسباب فى بلوغ الخطابة ذلك الشأ وهى ما بيناه فى عوامل نهوض الخطابة فى صدر الإسلام وهو :

١ — القرآن الكريم .

٢ — السنة النبوية الشريفة .

٣ — الحضارة وغيرها . فإن تلك الأمور كان لها أثرها فى ذلك العصر كما كان لها أثرها فى سابقه . وما زالت لها قوتها وروعتها فى النفوس وقد جدت عوامل أخرى فوق تلك زادت الخطابة رفعة ونهوضاً وهى :

٤ — المجادلات : التى كانت تقوم بين الفرق السياسية المختلفة التى ظهرت فى ذلك العصر ، بعد أن غرست أصولها فى آخر سابقه خصوصا ما كان بين الخوارج وغيرهم ، هذه كانت عوامل رفعة للخطابة فإنك تجد فى تلك الخطب الجدلية روحاً عالية ، ودقة فى التفكير ، وسلامة فى التعبير ، وحرصاً على وزن العبارات بميزان دقيق .

مثال ذلك خطبة أبى حمــزة الشارى التى يدافع فيها عن الخوارج الأباضية ويقذف غيرهم ، ترى فكرا دقيقاً ، وعبارات عالية ، جمعت إلى الدقة روح الدين وسماحته .

٥ — ظهر فى ذلك العصر، خطباء من علماء الكلام، ينظرون ويدافعون عن مذاهبهم فى أصول الإعتقاد، كالحسن البصرى الذى قال فيه أبو عمرو ابن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصرى، ومن الحجاج الثقفى، فقيل له: أيهما كان أفصح؟ قال: الحسن، وكواصل بن عطاء، وقد كان انضمام هؤلاء إلى صفوف الخطباء مما جعل الخطبة تستفيد من دقة تفكيرهم، وغزارة علومهم إحكاماً، وثروة فى المعانى والأفكار.

٦ — كان الخلفاء فى صدر الدولة الأموية يحثون على الخطابة ويدعون إليها ويعملون على ترويجها ويشجعون الخطباء على ذلك وكانت دورهم منتديات لها، يتبارى فيها أبلغ الخطباء، واهل اللسن والبيان، وخصوصا إذا جاء وفد من هنا أو هناك.

٧ — كان صغار النشىء يحرصون على استماع البلغاء من الخطباء، ليحاكوهم، وينسجوا على منوالهم، وقد ساد التفاخر بالقدرة على الخطابة واجادة البيان، لأن الخطبة كان لها الشأن الأول عند الخلفاء والأمراء. وقد دفعهم التفاخر بالخطابة إلى الإعداد لها وتهيئة ما يقولونه، ووضع كثير من دروب التحسين فى خطبهم.

عوامل الضعف فى العصر الأموى:

وإلى جانب عوامل الرقى الخطابى، التى ظهرت فى ذلك العصر، ظهرت عوامل أخرى ادت إلى ضعفها وتخلفها من هذه العوامل:

١ — اللحن الذى ظهر على ألسنة الخطباء، فيروى ان الحجاج كان كثير اللحن فى الخطبة، بل فى الصلاة حتى انه كان يصلى مرة فقرا ويا ليتها كانت القاضية، ورفعها. فقال عمر بن عبدالعزيز عندما بلغه ذلك: عليك وأراحنا الله منك، وقد سرى اللحن على السنة كثير من الفصحاء فقد جاء فى البيان والتبيين:

ومن المحسنين البلغاء خالد بن عبد الله القسرى ، وخالد بن صفوان ولا شك ان اللحن فى الخطبة مع قرب العهد ، وعدم فساد السليقة مظهر من مظاهر الضعف وإن أخفته بلاغة المتكلمين .

٢ — عادت العصبية الجاهلية فعادمعها التفاخر بالأحساب والأنساب وكثر ذلك فى الخطابة ، كما كثر المدح الكاذب ، والملق الخادع ، وتفاق اللسان ، وكل هذه عوامل من شأنها ان ترجع بمعانى الخطبة إلى الوراء .

٣ — كان اكثر خطباء الأمويين فى ذلك العصر إما منافقين او مستبدين او جلادين ، وهؤلاء لا تصل كلمتهم إلى اعماق القلوب لأنها لم تخرج من القلوب .

٤ — كثرة التشادق بسبب حب شهوة الكلام والرغبة فى الحجاج واللجاج ، والمعروف انه إذا كثر الكلام قل التأثير .

٥ — فى اخر العصر الأموى ، ضعفت الدواعى إلى الخطابة لقلة الخروج على الخلفاء علنا ، ولقلة الخطب التى كانت تلقى بين ايدى الخلفاء بسبب قلة الوفود ، وقلة الخارجين ، واستغناء الخلفاء عن استمالة القلوب إليهم ، فضعفت الخطابة .

الألفاظ والأساليب والمعانى :

كانت الألفاظ فى ذلك العصر صافية لا خشونة فيها وكانت قوية كما كانت فى عصر صدر الإسلام ، وهذا يرجع إلى ما اكتسبته من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والحضارة التى لم تفسد نفس العربى .

٢ — المعانى :

أما المعانى فتختلف باختلاف الخطباء :

خطباء الخوارج: سادت خطبهم المعانى الدينية، وكانت تشبه خطب العصر الإسلامى ، إلا أن خطب الخوارج كان فيها شيء من الإندفاع وقذف الآخرين، وهذا مما قلل فى تأثيرها .

خطباء الوعظ :

اشتهر عدد كبير بالخطابة الوعظية كالحسن البصرى والشعبى . وابن سيرين وواصل بن عطاء ، وكانت هذه الخطب كخطب السلف الصالح من كل الوجوه ، غير أنه زيد فيها القصص والوعظ به وضرب الأمثال الكثيرة ، وذكر أخبار الماضين ليعتبر بها السامعون لهم ، وهذا الشيء واضح فى خطب الحسن البصرى .

خطباء الأمويين :

أما خطب الأمويين ومن لف لفهم وسايرهم فى أعمالهم فقد امتازت بالآتى :

١ — كانت معانى تهديدية يكثر فيها التهديد والوعيد والإنذار وخاصة إذا كانت الخطبة من الوالى أو الخليفة لقوم عندهم سخط وكره على الأمويين وحكومتهم .

٢ — كان أكثر هذه الخطب فى الفخر ، وخاصة إذا كانت من خطباء القبائل المناصرة لهم .

٣ — كانت تشتمل على السب والشتم مثل خطبة الحجاج .

٤ — فيها مبالغة واغراق وذلك لكثرة النفاق والخداع والمدح الكاذب .

٣ — الأسلوب :

كان الأسلوب فى العصر الأموى يشبه أسلوب الخطابة فى عهد الراشدين رضى الله عنهم ، فى الاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وتجميل الخطبة أحيانا ببعض أبيات من الشعر ، وتقسيم الخطبة إلى مقدمة تشتمل على حمد الله والثناء عليه وموضوع وخاتمة ، كما كثر الإجتهاد فى تحسين الخطب وتجميل الكلام .

خطباء العصر الأموى :

كثر هؤلاء الخطباء كثرة مدهشة وتعددت طوائفهم ومذاهبهم الفكرية وكان بكل حزب خطباء .

١ — فمن خطباء آل البيت : عبد الله بن الحسن وزيد بن على بن الحسين وكانا أقوم أهل زمانهما لسانا وحجة .

٢ — ومن خطباء الأمويين : معاوية ويزيد وعمر بن عبد العزيز وزياد بن أبيه .

٣ — ومن الذين نازعوا بنى أمية الخلافة : عبد الله بن الزبير وأخوه مصعب .

٤ — ومن الخوارج : قطرى بن الفجاءة ، وعمران بن حطان ، وأبو حمزة الشارى .

٥ — ومن الموالى : الحسن البصرى ، وطارق بن زياد .

نماذج من خطب العصر الأموى :

١ — خطبة معاوية بن أبى سفيان :

خطب معاوية خطبة الجمعة فى يوم صائف شديد الحر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله ﷺ، ثم قال :

« إن الله عز وجل خلقكم فلم ينسكم، ووعظكم فلم يهملكم، فقال :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ».

قوموا إلى صلاتكم.

هذه خطبة قصيرة جدا، وهى كافية من الوجهة الشرعية لتؤدى بها صلاة الجمعة، وبعض المذاهب الفقهية يرى أن الخطبة تكون مجزية إذا اشتملت على أمر ونهى، نحو « اتقوا الله فيما أمر، وانتهوا عما عنه نهى وزجر ».

فإذا قالها وجلس ثم وقف فأعادها أجزأ ذلك فى خطبتى الجمعة، ولكن الأداء الشرعى المجرد أو العمل الرسمى أيا كان، يتخذ صورة الشكلية ولا يؤدى الغرض المطلوب، فالمفروض أن الخطبة تقال لغرض إفادة المسلمين وتوجيههم، ولإيقاظ مشاعرهم الدينية وعواطفهم النبيلة.

فإذا قصرت إلى هذا الحد، أدت الجانب الشكلى ولم تؤد الجانب الروحى، وهو الجانب الأهم. ولكن الظروف قد تدعو إلى مثل هذا الإيجاز فإذا حصل مثل ذلك صحت الجمعة.

٢ — خطبة الحسن البصرى :

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ :

« يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا ، يا ابن آدم ، إذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم فى الشر فلا تغبطهم به ، الثواء ها هنا قليل ، والبقاء هناك طويل . أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أسرع بخياركم فماذا تنتظرون ؟ ... أما أنه والله لا أمة بعد أمتكم ولا نبى بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس ، والساعة تسوقكم وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق بآخركم ، من رأى محمدا ﷺ فقد رآه غاديا رائحا ، ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ... فالوحاء الوحاء والنجاة النجاة ، علام ترجعون ؟ أتيتم ورب الكعبة قد أسرع بخياركم ، وأنتم كل يوم ترذلون فماذا تنتظرون ؟ وأسلوب الحسن البصرى أسلوب فريد فى خطبه ووعظه .

ففى هذه الخطبة نرى كل فقرة مستقلة بذاتها ولا غرابة فى ذلك ، فالحسن البصرى نشأ نشأة عربية فى المدينة ووادى القرى ، كما أنه استمع إلى خطب النبى ﷺ وخطب الكثير من الصحابة رضى الله عنهم وأطلع عليها ، وكل هذا له أثره الواضح فى شهرة الحسن البصرى فى الخطابة ، حتى عد من الأوائل وقال فيه الحجاج « أخطب الناس صاحب العمامة السوداء » .

من هذين النموذجين السابقين ، نرى أن الخطابة فى العصر الأموى قد إزدهرت ازدهارا شديدا وتقدمت تقدما عظيما ، فقد كان الخطباء أصحاب لسن وفصاحة ، وكانوا يكثرون من الاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مما حسن كلامهم ، وجعل مواعظهم تصل إلى قلوب الناس وأفئدتهم .

المبحث الثالث عشر

الخطابة فى العصر العباسى

إزدهرت الخطابة الدينية والوعظ الدينى فى العصر العباسى الأول ، وكان الخلفاء يشاركون العلماء فى هذا المجال ، ويجمعون بين الولاية والصلاة ، وكان الوعظ الدينى فى هذا العصر ، هدفاً يرمى إليه الخطباء ، ومقصداً يقصدونه ، كما كانت هناك دواعى الخطابة أدت إلى إنتشارها فى ذلك العصر فما هى هذه الدواعى ؟

١ — الدعوة العباسية :

تعتبر الدعوة العباسية من أولى دواعى الخطابة حيث قامت على إثبات حق آل البيت رضوان الله عليهم فى الخلافة ، وأنهم أولى الناس بها ، وذلك لقرابتهم من رسول الله ﷺ ، ولأنهم صفوة قريش المختارة ، كما قامت على بيان مظالم الأمويين ، وما ارتكبوه من مآثم فى أول عهدهم وآخره ، وما انتهكوه من حرمات ، وما أباحوه من دم آل بيت النبى ﷺ ، حيث قتلوا الحسين وأحفاده رضى الله عنهم .

وهذا العمل من جانب العباسيين يحتاج إلى بيان رائع ، وخطب قيمة ، وقول بارع ، وبلاغة تصل إلى أعماق النفوس ، تثير نقمة الناس عليهم ، وتحفز الأنصار على الإنتقام منهم ، لذلك كانت الدعوة العباسية موضوعاً من موضوعات الخطابة وداعياً من أعظم دواعيها .

٢ — بيان سياسة العباسيين :

عنـــدما تم الأمر لبنى العباس ، أعلنوا سياستهم على المنابر ، حتى يوازن الناس بين حكمهم وحكم الأمويين ، وكان بعض الخلفاء يحاول أن ينهج فى ذلك منهج الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ، يبين أنه يقيم الحدود وينفذ أحكام الله تعالى ، ويعلن سلطانه وهذا الشىء واضح فى قول داود بن على حيث قال : لكم ذمة الله تبارك وتعالى ، وذمة رسوله ﷺ ، وذمة العباس رحمه الله ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله تعالى ، ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ . كما كان الخلفاء يحاولون أن يتصلوا بالعامة ، ويذكروهم العهود ، كلما جد أمر ، أو حدث شأن من الشئون ، وكل هـذا كان من دواعى الخطابة وموضوعاً من موضوعاتها .

٣ — الفتن :

عندما قامت الدولة العباسية أحاطت بها الفتن الكثيرة من كل مكان . وهذه الفتن لم تنته بقيام الدولة ، بل إن العلويين أبناء عمهم ناصبوهم العداء ، لأنهم اغتصبوا الأمر منهم ، وهم الأولى به لسابقتهم ، وقديم بلائهم ، وسالف جهادهم ، ومن هنا شغلوا الدولة العباسية بخروجهم وتقدموا بشرفهم وحاضرهم العظيم ، ودعوا لأنفسهم ، وقد رد عليهم المنصور بخطب مـــلأها بالأدلة والبراهين التى تثبت حق المعارضين فى الخلافة وتنفى زعم غيرهم وتبطل دعاوى خصومهم من بنى عمهم وكان هذا الفصل من الطرفين حافزاً للقول وموضوعاً من موضوعات الخطابة . كما حدثت الفتنة بين الأمين والمأمون مما أعطى الخطابة مرتفعاً خصباً وعاملا من عوامل نهوضها .

٤ — الوفادة :

من المعروف عند قيام الدولة وتوليها الحكم ، لابد من وفود تفد إليها لتهنيء وتبارك وتناصر ، والوفود فى ذلك العصر كما كان الشأن فى العصر الأموى ، وقد كان الوفود يتبادلون الخطب فى مجلس الخليفة ، ومن ذلك وفد أهل الشام على المنصور بعد استقامتهم إذ جاءوا إليه يعتذرون ، فكانت الوفادة داعياً من دواعى الخطابة .

٥ — المجالس :

وكان يتسابق فى هذه المجالس ، أصحاب اللسن والبيان والفصاحة وكثيراً ما كانت تلك المجالس مكان مناقشات علمية وكلامية ودينية وتناحر بين أصحاب المذاهب ، تستخدم فيها كل أساليب الخطابة الرائعة من محاولة تأثير ، واجتذاب إلى فكرة ، وكان السبق فى تلك المجالس المعتزلة أصحاب الكلام ، حيث الخبرة والدراية فى فنون البيان ، وقد امتاز من بينهم بالفصاحة : عمرو بن عبيد ، وبشر بن المعتمر ، وأبو الهذيل ، والنظام ، وكانت أكثر مبارياتهم الكلامية فى مناقشة أصحاب المبادىء الهادمة للأديان .

٦ — الوعظ الدينى :

كان الوعظ الدينى فى ذلك العصر هدفاً يرمى إليه الخطباء ، ومقصداً من مقاصدهم ، كما كان يجرى الوعظ أيضاً على ألسنة الخلفاء أنفسهم ، حيث كانوا يعتقدون فى أنفسهم أنهم قادة الأمة فى دينهم ، وهداتهم فى معرفة أمر ربهم ، من ذلك قول المنصور يرد على من اعترض عليه فى خطبته يذكره الله قائلا : « أيها الإنسان أذكرك من ذكرت به ، فقال المنصور : وإياك وإياكم معشر الناس وأختها فإن الحكمة علينا نزلت

وعندنا فصلت، فردوا الأمر أهله، ترددوه، وتصدروه مصادره، وهذا يوضح أن خلفاء العباسيين كانوا يضعون أنفسهم موضع المرشدين القادة فى الدين والدنيا جميعا، وكما كان الوعظ من الخلفاء كان أيضا من غيرهم، حيث أنه مبدأ دينى فرض فى صلاة الجمعة والحج والعيدين، فهو من حق الناس جميعاً كل ما استطاع إلى ذلك سبيلا بمقتضى القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ومن هنا كان الوعظ الدينى غرضا من أغراض الخطابة فى كل العصور الإسلامية.

— أسباب رقى الخطابة فى ذلك العصر وأسباب ضعفها —

قويت الخطابة وازدهرت فى صدر الدولة العباسية، وشابهت قوتها وازدهارها صدر الدولة الأموية وذلك للأسباب الآتية:

١ — أحيطت الدولة العباسية بالفتن والثورات والخروج على حكمها فكان لا بد من الرد على ذلك ومقاومة الحجة بالحجة، فكانت الحاجة ماسة إلى الخطب الرائعة، يدافع بها الخلفاء عن أنفسهم ويحثون الناس على تأييدهم، ومقاومة خصومهم، والفتن دائما تحرك الألسنة، وتدفعها إلى القول والبيان، حتى يتبين الحق من الباطل، فيعرف الناس الحق فيلزموه والباطل فيجتنبوه.

٢ — كان الخلفاء فى صدر الدولة هم أولو الأمر والنهى، وكانوا من بنى هاشم والذين اشتهروا بالفصاحة واللسن، وقوة الحجـــة بأسلفهم وخلفهم فى ذلك سواء، «سئل سعيد بن المسيب: من أبلغ الناس؟ فقال: رسول الله ﷺ. فقال السائل: إنما أعنى من دونه. فقال: معاوية وابنه. وإن ابن الزبير لحسن الكلام، ولكن ليس على كلامه ملح فقال

له الرجل ، فأين أنت من علي وابنه : وابن عباس وابنه ، فقال : إنما عنيت من تقاربت أشكالهم ، وكانوا كسهام الجعبة ، وبنو هاشم أعلام الأنام ، وحكام الإسلام .

وقد ظهرت مواهب العباسيين الخطابية فى صدر دولتهم ، وإبان سطوتهم . قال الجاحظ فى بيان مقدرتهم البيانية :

« وجماعة ولد العباس فى عصر واحد ، لم يكن لهم نظراء فى أصالة الرأى ، وفى الكمال ، وفى العلم بقريش والدولة . وبرجال الدولة ، مع البيان العجيب ، والغور البعيد ، والنفوس الشريفة والأقدار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء ، وفوق أصحاب الأخبار وكانوا يجلون الأسماء ، إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك » . وترى من خلال ذلك كيف كانت منزلة هؤلاء من البيان وقد كانت الخطابة قوية ناهضة ، ما كان السلطان فى الدولة للخلفاء أنفسهم .

٣ — كانت جمهرة الأمة فى صدر الدولة العباسية عن يقيمها القول البليغ ويقصدها ، يفقهون مرامى العبارات ، ومرامى الكلام ، فكان حالهم يشجع الخطباء على القول ويحثهم على البيان ، وعندما تغيرت الأحوال وتبدلت ، وغلبت العجمة وماتت العربية أو خبت ولم يكن من القوم من يحسن الاستماع إلى الخطابة ، ولا من الوعاء من يجيد القول والبيان .

أما أسباب الضعف فى ذلك العصر فهى كما يلى :

١ — عندما ثبتت دعائم الدولة العباسية ، وقامت أركانها ، وقل الخروج عليها ، ضعف القول وقلت دواعيه ، لأن الخطابة لا تقوم إلا على هذه الدواعى ، وإذا ضعف الداعى إلى الخطابة وقلت الحاجة إليها ، ضعف أمرها ، وهان شأنها .

٢ — حماة الدولة وهم الجنود غلبت عليهم العجمة ، حيث كان العباسيون يستعينون فى حماية دولتهم بالفرس والترك ، وهؤلاء لا يثيرهم القول العربى البليغ ، وإنما تثيرهم عصبياتهم الجنسية التى كان لها السلطان الأعظم فى ذلك العصر والخطابة مهمتها حث الجند على الجهاد فى سبيل الله، أو إيقاظ الإيثار والتقوى فى نفوسهم ، أو إلقاء الحمية فى قلوبهم ،وعندما تذهب هذه الأشياء ، تذهب معها الخطابة وتضيع .

٣ — فى تلك الفترة ضعف أمر العرب ، وذهب سلطانهم وضاع نفوذهم ، والعرب هم أهل الفصاحة والبيان واللسن وعندما يضعفون ويضيعون تضعف الخطابة وتضيع وتتلاشى .

٤ — فى عصر بنى العباس عرفت الكتابة ، وحلت محل الخطابة ، واتسعت موضوعات الكتابة وتعددت أغراضها حيث صار الخليفة أو الوالى أو القائد إذا أراد أن يدعو من هم تحت إمرته إلى شىء ، أناب كتابه عن خطابه ، فأرسل إليهم كتاباً يقرأ ، ويرجعوا إليه بين حين وآخر ، وبذلك استغنى عن الخطابة فى أخص موضوعاتها .

٥ — قعود الخلفاء العباسيين عن الخطابة ، وإنابة غيرهم منابهم فى الصلاة ، جعل الناس يستهينون بمواقف الخطابة ، تقليداً لخلفائهم ، وقد تبع استهانة الناس بالخطابة استهانتهم بالخطيب ، وقلة احترامهم له ، وبهذا ضعفت الرغبة فى القول .

الألفاظ والأساليب والمعانى :

تقاربت ألفاظ الخطابة وأساليبها ومعانيها فى ذلك العصر وتشابهت مع الخطابة فى العصر الأموى ، حيث وجدت الأسباب التى دفعت الألسنة إلى التبيان والتوضيح ، وأدى تباعد الزمن واتساع نطاق الحضارة

وكثرة المعارف والعلوم وتدوينها إلى وجود فروق بينهما . فالعصر العباسى امتاز بهذه الأشياء عن العصر الأموى وصدر الإسلام .

١ — الألفاظ :

من ناحية الألفاظ لايوجد فرق كبير بين ألفاظ الخطابة فى العصر العباسى والعصر الأموى وصدر الإسلام ، وإن كانت قد زادت عذوبة وقوة وفخامة فى العصر العباسى . وذلك بسبب إطلاعهم على حضارات الأمم الأخرى وتمكنها من النفس العربية ، وهذا قد سهل الألفاظ وألانها ، ولم يعد للصحراء تأثير فى نفوس الخطباء .

٢ — المعانى :

أما المعانى وإن تقاربت مع المعانى فى العصر الأموى ، إلا أنها زادت عليها زيادة ، كانت السبب فى ازدهار الخطابة ورقتها فى صدر الدولة العباسية ، وهذه الزيادة هى : —

(ا) المبالغة والتهويل وخاصة فيما يتعلق بمنصب الخلافة ومنزلة الخلفاء فقد بالغ الخطباء فى خطبهم فى إثبات استحقاق خلفاء بنى العباس للخلافة وذلك بسبب نسبتهم إلى النبى ﷺ ، وبنوا على ذلك النسب من استحقاق للإستعلاء ، فلا بد أن يكون مناطا العزة وسببا للرفعة .

(ب) زيادة التفنن فى المعانى ، والبحث عن دقيقها ، والغوص وراء عميقها ، وذلك لكثرة الترجمة ، وسيادة البحوث العلمية .

(ج) كثرة المعانى الدينية على ألسنة الخطباء ، وخاصة الخلفاء من بنى العباس . لأنهم استولوا على الخلافة باسم الدين ، وادعوا أحقيتهم بها لقرابتهم من النبى ﷺ ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أن تنحو خطبهم منحى دينيا .

(د) كثرة المعاني العنيفة والشديدة ، وذلك عند خطاب قوم يتوقع الخليفة منهم الخروج عليه ، أو عدم النصرة له .

٣ — الأساليب :

وكانت الأساليب أيضاً تقارب في جملتها أساليب الخطابة الأموية ، ففيها الاستشهاد بالقرآن الكريم ، والاقتباس من آية ، كذلك أحاديث الرسول ﷺ ، والاستشهاد بالشعر العربي للمناسب ولكن زادت الأساليب في العصر العباسي في أمور منها :—

(ا) المبالغة في تنسيق الخطبة ، وتقسيمها بأحكام ، حتى أن الواحد كان يضمن المقدمة إشارة إلى موضوع خطبته ، حيث أصبحت الخطابة علما له أصول وقواعد .

(ب) كثرة الكلام ذي الفقرات القصيرة المختومة بكلمات ذات رنين قوي ، تذهب أصداؤه في النفس ، فتستولي عليها .

خطباء العصر العباسي :

امتاز بالخطابة عدد عظيم من رجال هذا العصر ، أقواهم بيانا . وأشدهم تأثيراً ، وأقدرهم على الإدلاء بالحجة خطباء الهاشميين عباسيين وعلويين .

فمن خطباء العباسيين :— داود بن علي بن عبد الله بن عباس ، وعبدالله ابن علي ، وصالح بن علي ، وابنه عبد الملك بن صالح ، وسليمان بن جعفر ومن خطباء العلويين :— محمد بن عبد الله بن حسن الملقب بالنفس الذكية وأخوه إبراهيم ، وجعفر الصادق ، والعباس بن الحسين ، وكان مقرباً من الرشيد والمأمون ، حتى قال فيه المأمون : من أراد أن يسمع لهواً بلا حرج ، فليسمع كلام العباس .

ومن غير الهاشميين : — خالد بن صفوان ، وابن عمه شبيب ، والفضل بن عيسى .

ومن الموالي : — جعفر بن يحيى البرمكي ، والفضل بن سهل ، وطاهر ابن الحسين ، وغير هؤلاء كثير .

— نماذج من خطب العصر العباسي —

١ — خطبة لأبي جعفر المنصور :—

خطب يوما فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على رسوله ﷺ : أيها الناس : إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه . فقد جعلني الله عليه قفلا ، إذا شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم ، وقسم أرزاقكم ، وإذا شاء أن يقفلني عليها أقفلني ، فارغبوا إلى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم من فضله ما أعلمكم به في كتابه إذ يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا[1] » أن يوفقني للرشاد والصواب ، وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

٢ — خطبة هارون الرشيد :—

الحمد لله نحمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصره على أعدائه ، ونؤمن به حقا ، ونتوكل عليه مفوضين إليه ، وأشهد أن لا إله

---

(١) المائدة : ٣ .

إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بعثه على فترة من الرسل ، ودروس من العلم ، وإدبار من الدنيا ، وإقبال من الآخرة بشيراً بالنعيم المقيم ، ونذيراً بين يدي عذاب أليم ، فبلغ الرسالة ونصح الأمة ، وجاهد في الله ، فأدى عن الله وعده حتى أتاه اليقين ، فعلى النبى من الله صلاة ورحمة وسلام .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن فى التقوى تكفير السيئات وتضعيف الحسنات ، وفوزاً بالجنة ونجاة من النار ، واحذركم يوماً تشخص فيه الأبصار ، وتبلى فيه الأسرار ، يوم البعث ويوم التغابن ، ويوم التلاق ، ويوم التناد ، يوم لايستعتب من سيئة ، ولا يزداد من حسنة « يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر ، كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولاشفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور[1] » ، « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون[2] » .

عباد الله :

إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تتركوا سدى ، حصنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء فى الخبر أن النبى ﷺ قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ، ولاصلاة لمن لازكاة له » إنكم سفر مجتازون ، وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهدى بالإنابة ، فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين ، ومغفرته للتائبين ، وهداه للمؤمنين ، قال الله عز وجل وقوله الحق « ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة[3] » ، وقال : « وإنى لغفار من تاب

(١) غافر : ١٨ ، ١٩ . (٢) البقرة : ٢٨١
(٣) الأعراف : ١٥٦ .

وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى(١) ، وإياكم والأمانى فقد غرت وأردت وأوبقت كثيراً ، حتى اكذبتهم مناياهم ، فتناوشوا التوبة من مكان بعيد ، وحيل بينهم وبين مايشتهون فأخبركم ربكم عن المثلات فيهم ، وصرف الآيات وضرب الأمثال ، فرغب بالوعد وقدم إليكم الوعيد ، وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالى جيلا فجيلا ، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ومن بين أظهركم ، لاتدفعون عنهم ، ولاتحولون دونهم ، فزالت عنهم الدنيا ، وانقطعت بهم الأسباب ، فأسلمتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله يقول عز وجل: «وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون(٢) » أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم ، بسم الله الرحمن الرحيم «قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد(٣) » آمركم بما أمركم الله به، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه ، واستغفر الله لى ولكم ، والخطبة فى جملتها تدور حول الوعظ والإرشاد والتذكير بالموت والحساب والوقوف بين يدى الله تعالى يوم القيامة ، كما أنها تدعو إلى الزهد والتقوى والورع وتحذر من الانغماس فى الدنيا وملذاتها .

---

(١) طه : ٨٢ (٢) الأعراف : ٢٠٤

(٣) الإخلاص .

المبحث الرابع عشر

الخطابة فى العصر الحديث

من المعروف أن الجمعة فرضت لتكون مجالا صالحاً متكرراً كل أسبوع ليحلل الخطيب مشاكل المجتمع الذى يعيش فيه ، ثم يقدم لها الحلول ، التى تناسب المستمعين ، وهذا تشريع عظيم إن دل على شىء فإنما يدل على اهتمام الإسلام بالعلم والثقافة والمعرفة ، لأن المستمع يتلقى عن الخطيب كل ما يفيده فى دينه ودنياه إن صدقت النية وخلصت لله عز وجل ، وبقدر ارتقاء الخطبة وانتقاء موضوعها يكون التقـــدم والإزدهار والنجاح ، ولكن الحقيقة تقول غير ذلك فإن الخطبة ضعفت وتراجعت عن مكانها وذلك راجع إلى ما يلى :

أسباب ضعف الخطبة وتخلفها :

هناك أسباب كثيرة تجمعت وأدت إلى تخلف الخطـــابة فى العصر الحديث منها :

١ — عدم وجود الحرية الفكرية : —

الخطبة الدينية لا تزدهر ولا تثمر إلا فى عصور الحرية شأنها فى ذلك شأن الصحافة والخطب الأخرى ، أما فى عصور الإرهاب وكبت الحريات فلا ازدهار ولا تقدم للخطابة ، ومن هنا فإن بعض الدول الإسلامية تحاسب أئمة المساجد وخطباءها على ما يقولون وما يعرضون من أفكار ، بل وصل الأمر إلى وضع قوانين تعاقب الخطيب إذا تعرض بالنقد لأى

نظام أو قرار حكومى، كما أن بعض الهيئات تحدد لخطباء المساجد الموضوعات، التى يتحدثون فيها، حتى إذا كان الخطيب غير مقتنع بها، أو لا تتناسب مع البيئة التى يخطب فيها، كما أن هناك من القوانين والتعليمات لأئمة المساجد وخطبائها بعدم الحديث فى خطبهم ومحاضراتهم عن اليهود والنصارى، وهذا مما أدى إلى تخلف الخطابة وضعفها.

٢ — عدم اهتمام الأساتذة والمعلمين بإلقاء دروسهم باللغة العربية الفصحى، حتى فى الجامعات، لم يعد هناك أى اهتمام باللغة، حيث أصبحت لغة الدروس والمحاضرات هى اللغة العامية الدارجة، كما نجد هذا عند المذيعين سواء كانوا فى الإذاعة أو التليفزيون، أو الذين يكتبون فى الصحف والمجلات وغيرها وهذا تخطيط من الإستعمار وأعوانه لتهوين اللغة العربية وإضعافها إن لم يكن موتها عند أهلها وإعلاء شأن اللغة اللاتينية وأنها لغة العصر والحضارة والمدنية والتقدم، كما أنها لغة التخاطب بين الأمم.

٣ — إلغاء جمعيات الخطابة من المدارس والمعاهد والجامعات، التى كانت موجودة قبل ذلك، والمعروف أن التدريب والممارسة والتمرين من أهم طرق تحصيل الخطابة والتعود عليها، والنبوغ فيها، والواقع يؤيد هذا، فإن شباب الجماعات الإسلامية نبغوا فى فن الخطابة والسبب فى ذلك هو التدريب والممارسة عليها باستمرار، كذلك أبناء الجمعيات الإسلامية نبغوا فى الخطابة بتدريبهم عليها، ومن أشهر هذه الجمعيات التى تتبنى تخريج الخطباء والدعاة فى مصر هى الجمعية الشرعية، التى تقوم بنشاط كبير فى هذا المجال.

٤ — قلة الثقافة الإسلامية عند البعض وعدم المعرفة بما يجرى فى المجتمعات، وبعد الخطبة عن حياة الناس، والواقع الذى يعيشون فيه. ولذلك نجد بعض الخطباء يحفظ الخطبة من الدواوين الصفراء القديمة،

ويلقيها على جمهور المستمعين دون أن ينظر إلى ما فيها من غث وسمين وخرافات يحذر منها الدين ، وإسرائيليات الهدف منها الطعن فى الدين ، كما أن بعض الخطباء يدور فى محيط ضيق هو الحديث عن الجنة والنار ، أو يحدث الناس عن أشياء بعيدة جداً عن حياتهم ، كما أن البعض منهم يؤدى الخطبة على أنها وظيفة يتقاضى عليها أجراً ولا يهمه بعد ذلك إن كانت الخطبة أفادت المستمعين أم لا ، كما أن بعض الخطباء يقوم بإلقاء الخطبة من خلال ورقة مكتوبة وهذا الشىء يقلل من قيمة الخطيب ومكانته، كما أنه يجعل الخطبة غير ذات قيمة أو فائدة .

٥ — بعض الخطباء لايهتم بموضـــوع الخطبة من الإختيار السليم والإعداد الجيد ومراعاة جمهور المستمعين والمناسبات العامة فتأتى خطبته عديمة الفائدة .

٦ — تتعدد أغراض الخطبة ، وهذا كثير فى المساجد فنجد الخطيب يتحدث عن صلة الرحم ، وبر الوالدين ، والرفق بالضعفاء ، ومساعدة الفقراء ، وحسن تربية الأطفـــال ، وهكذا تكتظ الخطبة بعديد من الأغراض وقليل من البحث والتحليل إن كان هناك بحث أو تحليل ، ومثل هذه الخطبة تذهب من أذهان السامعين فور مغادرتهم المسجد ومن هنا فالفائدة المنشودة من الخطبة قد ضاعت هباء منثوراً .

٧ — ضعف التعليم :—

ضعف التعليم عموماً أدى أيضاً إلى ضعف الخطابة وتدهورها ، كذلك التقصير فى التحصيل من جانب الطلاب ، والسبب فى ذلك يرجع إلى الظروف الإقتصادية ، وانشغال كثير من طلاب العلم بالبحث عن لقمة العيش ، وعدم تمكنهم من التفرغ الكامل للدراسة والبحث والتحصيل .

٨ — عدم الإهتمام بعلوم اللغة العربية وانشغال الطلاب والعلماء بالأبحاث العلمية، وبالعلوم العصرية الأخرى، حيث أن نظام التعليم الحالى يجعل من مواد وعلوم اللغة العربية علوماً ثانوية، فلا اهتمام بعلم ببلاغة أو الأدب، أو النحو والصرف ويجعلون من كل هذه المواد مادة واحدة يكفى النجاح فيها بنسبة ٥٠٪

كما لم تعد مادة الإنشاء أو التعبير مادة مستقلة كما كانت فى الماضى، كذلك ألغيت مادة المطالعة، التى تقوم النطق عند الطلاب وتمرنهم على النطق السليم.

٩ — عدم الإهتمام بتدريس مادة الخطابة كعلم له أصوله وقواعده، حتى فى الكليات التى تخرج الدعاة، وذلك ولا شك من أكبر العوامل فى ضعف الأئمة فى هـــذا العصر، ومن هنا لا بد من اعتبار مادة الخطابة من المواد الأساسية التى يجب أن تدرس فى كل الكليات الأزهرية، ولا يكون تدريسها قاصراً على كليات أصول الدين وأقسام الدعوة بهذه الكليات كما هو الحال الآن، لأن المعروف لدينا أن خريجى جامعة الأزهر إما أن يعينوا رسمياً فى وظيفة الإمامة أو يقوموا فى الغالب بإلقاء خطبة الجمعة نظير مكافأة عليها.

١٠ — سيطرة الثقافة الاستعمارية على أقطار عديدة من العـــالم الإسلامى، وما غرسته هـذه الثقافة فى أذهان الناس من أن الإسلام ما هو إلا عبادة وقربى إلى الله ولا شأن له بالحياة الدنيا، أضف إلى ذلك ماتقوم به أجهزة الإعلام من تشويه صورة رجل الدين، وإظهاره بمظهر لايليق به، مما كان سببا فى عزوف بعض خريجى الأزهر عن اعتلاء المنابر وشغل وظيفة الخطابة والإمامة.

١١ — كثرة وسائل الإعلام من إذاعة، وصحافة، وتليفزيون

وقيام هذه الوسائل بدورها فى النشر والتبليغ ، وهذا ما كانت تقوم به الخطابة .

ومن هنا لابد من الاهتمام بالخطابة كعلم وفن لا يقل أهمية عن غيره من العلوم إن لم يكن أعلاها حتى تعود الخطابة إلى سابق عهدها ومجدها .

عوامل رقى الخطابة الدينية فى العصر الحديث :

من المعلوم أن المنبر هو مكان الرسول ﷺ ولجلالة هذا المكان وقداسته يجب على الخطيب أن يتحلى بكل الصفات التى تزين هذا المكان وترقى به إلى المستوى المطلوب وهذه أهم المقومات التى تؤهل الخطيب إلى ذلك :

١ — على الخطيب أن يهتم بموضوع خطبته من ناحية التحضير ، وأن يقوم التحضير على أسس سليمة وذلك بأن يجمع المادة العلمية الخاصة بموضوع خطبته من مصادرها الأصلية وأن يورد الأدلة من المصادر الدينية الصحيحة ، ولا يعيب الخطيب أن يجلس فى بيته بعض الوقت قبل أوان الخطبة ليحفظ أدلة موضوعه خاصة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ولكن العيب كل العيب أن يصعد الخطيب المنبر ثم يطلب الدليل فلا يجده ، ومن هنا كان تحضير الموضوع من الأهمية بمكان .

٢ — أن يلتزم الخطيب بوحدة الموضوع فلا يخرج من موضوع إلى موضوع إلى موضوع ثالث وهكذا ، بل يجعل موضوعه واحداً ذو مقدمة وخاتمة وبينهما موضوعه الذى يتحدث فيه ، فإن الخطيب الذى يخوض فى مواضيع كثيرة يشتت ذهن المستمعين ، وينتقل بهم من واد إلى آخر مما يجعلهم ينفرون من حديثه وسرعان ما ينفضون عنه .

٣ — أن يقسم الخطيب موضوعه إلى عناصر حتى يسهل على المستمع

فهم الموضوع وأن يسوق هذه العناصر فى تسلسل منطقى مقبول حتى يصل بالمستمع إلى ثمرة الموضوع ونتيجته بدون ملل ولا كلل .

٤ — أن يعمل الخطيب على استمالة قلوب الناس دائماً ، وأن يجمعهم جميعاً حوله ، ولن يستطيع ذلك إلا إذا حدثهم فيما يحتاجون إليه ومن ثم لزم الخطيب أن يلمس قلوب الناس وأحاسيسهم ومشاعرهم فيختار موضوع حديثه فيما يهم الناس ، وما أكثر هذه الموضوعات ، فهناك من الموضوعات ما يهم أهل الريف ولا يحتاج إليه أهل المدينة ومن هنا يجب على الخطيب أن يهتم ويراعى أحوال المجتمع الذى يعيش فيه حتى يصل إلى النجاح والفلاح .

٥ — بما أن الخطيب هو إمام القوم وواعظهم والآمر لهم بالمعروف والناهى عن المنكر فيجب أن يكون قدوة حسنة لمن يؤمهم وذلك بأن يهتم بمظهره فليس يعيب الخطيب أن يجلس فى بيته بعض الوقت ليصلح من هندامه ومظهره ولكن العيب أن يظهر الخطيب أمام الناس بمظهر لا يليق فيجعل الناس ينفرون منه ، إن حسن المظهر مما يكسب الخطيب الاحترام والإكبار ويحمله على احترام من المستمعين وهذا لا يكلف الخطيب إلا القليل .

٦ — يجب على الخطيب أن يؤمن ويوقن بأن رسالته هى رسالة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، وأن وظيفته هى أجل الوظائف وأفضلها وأحسنها ويكفيه فضلا وفخراً .

قول الله تعالى : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين »[1] .

إنها العمل الذى يرقى بصاحبه إلى أعلى الدرجات وأسمى المراتب لو أدى عمله على أكمل وجه .

٧ — ألا يركن الخطيب إلى الخطابة المقروءة بأن يقرأ على الناس الخطبة فى ورقة ، فتلك هى الخطابة الميتة التى تموت قبل أن توجد ، فإن الخطيب هو المرآة التى ينظر إليها الناس جميعاً ، وواجهة القوم والمتحدث بلسانهم ، فيجب أن يكون على درجة علمية تؤهله إلى أن يتحدث إليهم شفاهة حتى يستطيع أن يستميل قلوبهم نحوه .

٨ — أن يبتعد الخطيب عن الإسرائيليات والقصص المكذوب خاصة خطبة الجمعة والعيدين ، ويكفى القصص القرآنى وماجاء فى السيرة النبوية وكتب التاريخ الإسلامى ، والسنة النبوية ، وإلا عرض نفسه لنفرة الناس منه فقد أصبح المجتمع الإسلامى ، والحمد لله على وعى كبير بعلوم الدين .

ومن هنا فإن نجاح أى عمل وخاصة العمل فى حقل الدعوة إلى الله عزوجل إنما تتركز أساساً على الإخلاص فيه ، فعلى الخطيب أن يخلص فى أداء رسالته إبتغاء وجه الله تعالى فإن مهنة الخطابة إنما تلقى على كواهل الرجال ، والرجال دائماً قليلون ، والقليلون هم المخلصون الذين وصفهم الله تبارك وتعالى بقوله : « من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

المبحث الخامس عشر

المستمعون

من المعلوم أن المستمعين ركن هام من أركان الخطبة، كما أنهم هم الهدف الرئيسي من كل ما يقدمه علم الخطابة من الإرشاد والوعظ والتوجيه، ومن هنا يجب على القائمين بالخطابة أن يهتموا بمستمعيهم ويتجاوبوا معهم، وأن يراعوا الأمراض والعلل، فيضعوا لكل داء علاجه النافع، لأن جمهور المستمعين هو الرصيد الذي يحرص عليه الخطباء في تنميته، وإرشاده وتبصيره، كما أن الجمهور هو المرآة التي تعكس جهود الخطباء ونجاحهم.

ومن هنا فلابد من توضيح القول وأبانته للمستمعين حتى يكونوا على بينة مما يقال لهم، يقول الدكتور/ عبد الكريم زيدان: يجب أن يكون القول واضحاً بيناً لا غموض فيه ولا إبهام، مفهوماً عند السامع، لأن الغرض من الكلام إيصال المعاني المطلوبة إلى من يكلمه الداعي، فيجب أن يكون الكلام واضحاً غاية الوضوح، والرسول ﷺ وهو القدوة الحسنة والأسوة العلية كان قوله واضحاً بيناً يفهمه كل من يسمعه. فمن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: «كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصلاً - أي بيناً ظاهراً - يفهمه كل من يسمعه»[1].

ولهذا قال الله تعالى «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم»[2].

---

(١) رياض الصالحين: ٢٠٧

(٢) إبراهيم: ٤

فالبيان للمدعوين وليس للداعي .

— كذلك يجب على الخطباء أن يكونوا ذا فراسة مع مستمعيهم ، لأنهم أطباء يعالجون المرضى ، ومن حكمة الطبيب أن يتصرف بحكمة ولباقة مع مرضاه وإلا هرب المريض من الطبيب ودوائه ، كذلك يجب على الخطباء ألا يصطدموا مع معتقدات المستمعين ومشاعرهم ، لأن الجماهير مختلفة العقول والأفكار ، والناس طبقات متعددة ، فيجب مخاطبة كل قوم على قدر عقولهم تصديقاً لقول الرسول ﷺ : « خاطبوا الناس على قدر عقولهم أتحبون أن يكذب الله ورسوله » .

يقول الأستاذ البهي الخولي في كتابه تذكرة الدعاة : وعظ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه ، يوماً ، وقد حضره قوم من غلاظ القلوب ، وكانت عظة موفقة ، أظهر الإمام للناس أنه مفكر في أمر خطير ، فلما سألوه عن شأنه قال : إني مفكر في أمر قد أخبرت عنه : ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة بأنواع المتاجر ، وليس بها أحد يحرسها .. ولا يسوقها ، وهي مع ذلك ، تذهب وتجيء ، وتسير بنفسها . وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها ، وتدخل المرافيء ، وتخرج منها ، وتسير حيث شاءت ، فلا تتجه إلا إلى ما هو مطلوب من غير أن يسوقها أحد .. فقالوا له : هذا شيء لا يصح أن تشغل به نفسك لأنه لا يقوله عاقل ، ولا يصدقه أحد ....فقال . أيها الناس ، إنكم أنتم الذين تقولون هذا الكلام ، تقولونه بلسان الحال ، إن لم يكن بلسان المقال . فهذه سفينة الموجودات بما فيها من العوالم العلوية والسفلية وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ، فهلا تأملتم عجائبها وحكمة المصرف لها ، أم أنها تغدو وتروح بغير مدبر يصرفها ؟ فخشعت قلوب الناس لموعظته ، وأسلم منهم من كان على غير الإسلام » .

— كذلك يجب على الخطباء أن يراعوا طبقات الناس ، لأن منهم

الأمراء والولاة ، والعلماء ، وأصحاب الحرف والمهن ، وغير المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى ، فيكلمون كل طبقة من هؤلاء على قدر ما يعقلون فالكلام للملوك والولاة غير الكلام للسوقة والعادى من الناس .

يقول الجاحظ فى البيان والتبيين : الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس ، كما يفهم السوقى رطانة السوقى ، وكلام الناس فى طبقات ، كما أن الناس أيضاً فى طبقات » .

— كذلك يجب على الخطباء أن يعيشوا فى مشاكل مجتمعاتهم، فيتحدثون معهم فيما يعود عليهم بالنفع والخير والفائدة ؛ وإذا عرفنا أن المناسبات متعددة ومختلفة فيجب على الخطباء أن يراعوا ذلك فى خطبهم ، فالمناسبة الدينية تختلف عن المناسبة القومية ، وهى تختلف عن الإجتماعية ، كما أن الحديث عن الحروب وملابساتها يختلف عن الحديث عن السلام وهكذا لكل مناسبة ما يقال لها ، ومراعاة المناسبة يعنى الإهتمام بالمستمعين ، كما أنه يثمر النجاح فى التأثير والإفادة وهذا هو أمل الخطباء ورجاؤهم من الخطابة .

— كذلك يجب على الخطباء ملاحظة أحوال السامعين « أهم مقبلون عليهم فيزيدوهم من حلو الكلام ، أم معرضون عنهم فيتوقفون عن الكلام . قال بعض الحكماء « من لم ينشط لحديثك ، فارفع عنه مؤونة الإستماع منك » .

— كذلك يجب على الخطباء التلطف والرفق فى القول للمستمعين « خاصة إذا كان القوم من المعاندين الجاحدين لقول الله تعالى « وجادلهم بالتى هى أحسن »[1] وإذا طبق الخطباء هذا المنهج القويم وصلوا إلى قلوب مستمعيهم وجمهورهم من أقرب طريق وأقومه .

---

(١) النحل : ١٢٥

منهج الخطيب مع جمهور المستمعين

ذكرنا أن الناس طوائف مختلفة ومتنوعة ، والخطيب فى وعظه وإرشاده ، يواجه هذه الطوائف والفئات المختلفة والمتنوعة فى الثقافة والتعليم والدين ، لأن منهم المتخصص فى الدين ، ومنهم من لا يعرف من الدين إلا إسمه ، ومنهم المجادل بغير علم ، ومنهم المعاند والجاحد والكافر والمنافق إلى آخر هذه النوعيات المتعددة .

ومن هنا يجب على الخطيب أن يتعامل مع كل فئة بالأسلوب الذى يناسبها ، ويجعلها تميل لدعوته وتستمع لوعظه وإرشاده ، ولا يستطيع الخطيب ذلك إلا إذا طبق للنهج الربانى الذى أمر الله عز وجل رسوله ﷺ بتطبيقه والسير عليه فى حياته هذا المنهج هو قول الله تعالى مخاطباً رسوله عليه الصلاة والسلام : « أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »(١) .

١ — الحكمة :

يراد بالحكمة فى باب الدعوة ، أن يكون الداعية فاهماً لقصده ، عارفاً بأفضل الطرق المؤدية إلى الغرض على خير وجه ، وأن يكون عالماً بقواعد الدعاية بالنسبة لكل نمط وطائفة من طوائف المدعوين » .

فالحكمة هى وضع الشىء فى موضعه ، والحكمة تقتضى أن يكون الخطيب مدركاً لما حوله مقدراً الظروف التى يدعو فيها ، مراعياً لحاجات الناس ومشاعرهم حتى يتمكن من الوصول إلى قلوبهم ، ومن هنا نعلى

---

(١) النحل : ١٢٥

الخطيب أن لا يزهد فى الدنيا والناس فى حاجة إلى النشاط والجد، والعمل، ولا يدعو إلى التبتل والإنقطاع والمسلمون فى حاجة إلى الدفاع عن بلادهم وعقائدهم .

والحكمة تجعل الخطيب ينظر ببصيرة المؤمن فيرى حاجة الناس فيعالجها بحسب ما تقتضيه الظروف ، وبذلك يرون فيه المنقذ بالحريص على سعادتهم وأمنهم وراحتهم .

والحكمة فى القرآن والسنة النبوية الشريفة ، وعند أهل الحل والعقد لها مدلولات كثيرة نذكر منها :

— تذكر الحكمة ويراد منها : الفهم والعلم . قال تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة »[1] .

— تذكر الحكمة ويراد منها القرآن الكريم نفسه بما فيه من عجائب وأسرار ، قال تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء »[2] .

— تذكر الحكمة ويراد منها مواعظ القرآن الكريم . قال تعالى : « ... يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »[3] .

— تذكر الحكمة ويراد منها : النبوة . قال تعالى : « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب »[4] .

— تذكر الحكمة ويراد منها : الوعظ والتذكير . قال تعالى : « وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم »[5] .

---

(١) لقمان : ١٢
(٢) البقرة : ٢٦٩
(٣) آل عمران : ١٦٤
(٤) ص : ٢٠
(٥) النساء : ١١٣

ومما لا شك فيه أن من الناس طائفة أصحاب نفوس مشرقة قوية الإستعداد لإدراك المعانى والإستجابة لها، شديدة الإنجذاب نحو المبادىء واتباع الحق وهؤلاء يدعون بالحكمة، وهى تعنى فى جوهرها بياناً شافياً مؤيداً بأدلته القوية التى تنفى كل شبهة وتقطع السبيل أمام كل تردد.

نماذج من الحكمة : —

من القرآن الكريم : —

من المعلوم أن القرآن الكريم كله حكم نذكر منها على سبيل المثال :

قوله تعالى : « قل كل يعمل على شاكلته »[1] وقوله عز وجل : « ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله »[2] وقوله جل فى علاه « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان»[3].

من السنة النبوية الشريفة : —

قال الرسول ﷺ لأصحابه يوماً : « ألا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا : بلى إن شئت يارسول الله قال: إن شراركم الذى ينزل وحده، ويجلد عبده، ويمنع رفده ، أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى إن شئت يارسول الله : قال من يبغض الناس ويبغضونه قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى إن شئت يارسول الله » قال : الذين لايقبلون عثرة ، ولايقبلون معذرة »

---

(١) الإسراء : ٨٤
(٢) فاطر : ٤٣
(٣) الرحمن : ٦٠

ولا يغفرون ذنباً، قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى إن شئت يارسول الله، قال: من لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره »(١).

من أقوال الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم: —

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: — كفى بالمرء عياً أن تكون فيه خلة من ثلاث:

أن يعيب شيئاً ثم يأتى مثله، أو يبدى من أخيه ما يخفى عليه من نفسه، أو يؤذى جليسه فيما لا يعنيه، وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: « من لانت كلمته وجبت محبته »، وقال: « قيمة كل امرىء ما يحسن ».

من أقوال الحكماء: —

« من أدب ولده صغيراً سر به كبيراً ».

٢ — الموعظة الحسنة: —

هى القول الحق، الذى يلين القلوب، ويؤثر فى النفوس، ويكبح جماح النفوس المتمردة ويزيد النفوس المهذبة إيماناً وهداية.

والموعظة الحسنة أسلوب آخر من أساليب الخطيب يتوجه به إلى أصحاب القلوب اللينة.

والموعظة الحسنة: طريقة جيدة فى التبليغ، وأسلوب حكيم من أساليب الدعوة إلى الله تعالى، فهى تدخل إلى القلوب برفق ولين إذا

---

(١) رواه الطبرانى.

أحسن الخطيب إلقاءها وإجادتها ، والرفق فى الموعظة كثيراً ما يهدى القلوب الشاردة ويؤلف القلوب النافرة ويأتى بخير عظيم أفضل من الزجر والتأنيب وقد وردت مادة الموعظة فى القرآن الكريم فى مواضع متعددة ، وذلك لأن القرآن الكريم هو كتاب المواعظ ، فليس هناك أحكم من أسلوب القرآن فى الدعوة إلى الله تعالى من ذلك قول الله عز وجل : «فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف »[1] .

شروط الموعظة :

١ — أن تكون صادرة عن إخلاص الخطيب .

٢ — أن يكون لها مقتضى يقتضيها من حال المدعو لا أن تكون بمجرد حب القول وتظاهر بالفصاحة والحكمة دون داع .

٣ — أن يصاحبها إقتنــاع المدعو بأنها صادرة عن روح الإخاء والحب الخير قبل كل شىء .

٤ — إذا كانت الدعوة خاصة بفرد أو أفراد معينين فيحسن أن تكون أولا تحت ستار السرية وبعيدة عن التشهير والتجريح الذى يثير الشر أكثر مما ينشر من الخير .

٥ — أن تكون القدوة بالداعى أحد عناصرها فإن العظة بالقدوة من أنجح أساليب الوعظ » .

ومن هنا فالموعظة الحسنة هى الكلمة الطيبة ، التى تخرج من فم الخطيب

---

(١) البقرة : ٢٧٥

بإخلاص لتصل إلى عقول الناس ، فيجدون فيها الخير والسعادة ، ويحسون من خلال كلمته أنه صادق وحريص على جلب الخير لهم ، ودفع الشر عنهم ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا قال تعالى : « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها(١) » .

كما أن الموعظة الحسنة هى الكلمة الرقيقة ، التى تلمس القلوب لترق بها ، وتخالط النفوس فتهش لها وتفرح بها ، وتحمل الناس البشرى وتأخذ بأيديهم إلى طريق الحق والصواب ، وهى البلسم الشافى يداوى الجراح ويخفف الآلام وذلك عندما يلقيها الخطيب لا يقصد بها إلا ابتغاء مرضاة الله تعالى ، لا يقصد بها الشهرة ولا يكون فيها رياء ونفاق أو مداهنة لأحد من الناس .

وفضل الوعظ عظيم ، لأنه يتعلق بطب الأرواح ، وعلاج النفوس ، فالإنسان كما هو محتاج لعلاج جسمه إذا اعتل ، فهو محتاج كذلك لعلاج روحه إذا سقمت ، كما أن الوعظ وظيفة الأنبياء والمرسلين ، ومن على سنتهم من العلماء والمرشدين . وغايته سعادة الحياة الدنيا بالتحلى بالفضيلة والتخلى عن الرذيلة ، ثم الفوز بالسعادة فى الآخرة .

أثر الموعظة فى النفوس :

يبين لنا فضيلة الشيخ على محفوظ أثر الموعظة الحسنة فى النفوس فيقول : —

معلوم أن الأمراض والعلل تعرض للأجسام فتذهب بجمالها ،

---

(١) إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥

وكثيرا ما تودى بحياتها إذا لم تسعف بالعلاج الناجح قبل استفحالها واشتداد خطرها ، والقلوب كالأجسام يعرض لها من الأمراض والعلل مايطفىء نورها ، وقد يفقد حياتها ، وذلك ورودها موارد الغى والضلال، وإنها كها فى اللذات والشهوات والتهاون بالأوامر والنواهى ، وعدم المبالاة بأنواع الفسق والفجور ، وسيئات البدع ونبذ الآداب الدينية والأخلاق المحمدية ، وارتكاب كل مالا يرضاه الشرع والعقل من الشرور والقبائح ، فمن هذه الأفعال تكون أمراض القلوب وعللها ، ولادواء لها إلا مرام الشريعة الغراء المركبة تركيباً علمياً وكيماويا دقيقاً من أجزاء الخطب والمواعظ والإرشادات والنصائح من الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، فبهذه المواعظ والنصائح تصح النفوس ، وتسلم القلوب من المخاطر ، وترجع عن غيها إلى رشادها وتعدل عن الطريق العوجاء إلى الصراط السوى ، وعلى الجملة فالوعظ والإرشاد هو العلاج الوحيد لصلاح العالم ، والدين الحنيف هو الدواء المفيد لشفاء القلوب من أمراضها ، والسر فى ذلك أن النفوس البشرية أمارة بالسوء فهى تدفع إلى الضلال والفساد وإلى ارتكاب المنكرات واقتراف الموبقات ، ولم تقف عند حد أو نهاية فإذا ماوجد الوعاظ والمرشدون ، والمصلحون ، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، كانوا كالكواكب المشرقة فيبددون ظلمات الجهالة ، وينيرون للناس سبل الحياة الكريمة ، ويهدونهم إلى طريق الخير والسعادة ذلك لأنهم يهذبون النفوس ويربونها تربية دينية صالحة ويرشدونها إلى أقوم السبل ، ويحولون بينها وبين الوقوع فى الشهوات والملذات والأهواء الباطلة .

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده .

متى تكون الموعظة مؤثرة ؟ :

لكي تكون الموعظة مؤثرة فى نفوس المستمعين يلزم مايلى : —

١ — أن تكون ذات موضوع :

٢ — أن يدعمها الخطيب بالحجة النقلية من القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ ، والحجة العقلية التى يقتنع بها السامعون مع التلطف فى القول والرفق فى المعاملة ، روى أبو إمامة أن فتى شابا جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا نبى الله أتأذن لى فى الزنا ، فصاح الناس به ، فقال: عليه الصلاة والسلام قربوه أدنو فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال له الرسول ﷺ : أتحبه لأمك قال: لا جعلنى الله فداك ، قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ، أتحبه لابنتك قال : لا ، قال النبى ﷺ فكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم ، أتحبه لأختك ، وزاد ابن عوف أنه ذكر العمة والخالة وهو يقول فى كل واحدة : لا ، جعلنى الله فداك فوضع الرسول ﷺ يده على صدره وقال: اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه ، وحصن فرجه ، فلم يكن شىء أبغض إليه من الزنا » .

٣ — العلم بالكتاب الكريم وسنة الرسول ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم والسلف الصالح ، وبالقدر الكافى من الأحكام الشرعية ، ثم العمل بذلك كله ، فرب حال أبلغ فى التأثير من ألف مقال ، قال مالك بن دينار « إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا » .

ومن أجل ذلك قال تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون[1] » .

---

(١) البقرة : ٤٤ .

٤ — أن يتجمل الواعظ بالعفة واليأس عما فى أيدى الناس ، ففى وصيته ﷺ لأحد أصحابه : «عليك باليأس مما فى أيدى الناس فإن ذلك هو الغنى (١)» .

٥ — أن يعالج الواعظ بالموعظة واقعا يعيش فيه الناس، وأن يحمل منها توجيها يصلح شأنهم جميعاً .

٦ — أن يحسن الواعظ عرض موعظته ، بأن يقسمها إلى أجزاء متصلة ، ثم يصوغها فى أسلوب جميل سهل .

٧ — أن يتخلق الواعظ بما يقول مظهراً ومخبراً ، فبمقدار إخلاصه فى القول والعمل ينتفع سامعوه ، فإنه مما يقوى الخطيب أن تكون له شخصية متكاملة تبعث على تقديره واحترامه ولهذا قال بسكال : لابد للقضاة من الجبة والشعر ، ولولاهما لفقدوا ثلاثة أرباع نفوذهم .

٨ — أن يكون الواعظ ملماً بثروة كلامية يختار منها أفضل الأساليب التى يمتلك بها قلوب السامعين من جمال التصوير ، وطرافة المعنى ، وحداثة الموضوعات ، مع ضرورة الإجادة فى الإلقاء .

٩ — أن يعلم الواعظ أحوال الناس من حيث الطباع والتاريخ والأخلاق مع الإلمام بقدر المستطاع ببعض الدراسات فى علم النفس والتعرف على لغة القوم ، قال عز وجل : «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم (٢)» ، وفى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ أمر زيد بن ثابت رضى الله عنه أن يتعلم كتابة اليهود .

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك .
(٢) إبراهيم : ٤ .

قال زيد : حتى كتبت للنبي ﷺ كتبه إليهم ، وأقرأته كتبهم إذا كتبوا إليه »(١) كما يجب على الواعظ أن يدرس علم الاجتماع حتى يكون على بينة من أحوال الأمم في بداوتها وحضارتها ، وأسباب ضعفها وقوتها وتقدمها وتأخرها .

١٠ — أن يكون ذا فراسة يتعرف حال سامعيه .

نماذج من الموعظة : —

١ — من القرآن الكريم : —

عرض لنا القرآن الكريم نماذج من الدعوة إلى الله عز وجل بالموعظة الحسنة ، في صورة مشرقة رائعة يستفيد منها الخطباء الدعاة في حياتهم ويأخذون منها مايفيدهم .

من ذلك : — موقف سيدنا موسى وهارون عليهما السلام من فرعون الطاغية الجبار العنيد ، الذي قال الله تعالى فيه : إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين »(٢)

فوصفه الله تعالى بالفساد والإفساد في الأرض ، وقال في موضع آخر عن فرعون أيضا : « وقال فرعون ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري »(٣) وقال : « أنا ربكم الأعلى »(٤) .

---

(١) صحيح الإمام البخاري كتاب الأحكام

(٢) القصص : ٤

(٣) القصص : ٣٨ (٤) النازعات : ٢٤

ومع هـــذا الفساد فى الأرض والتكبر والعناد وقصر الألوهية والربوبية عليه وأنه ليس هناك إله أو رب سواه، مع كل هذا يرسل الله تعالى له سيدنا موسى وهارون عليهما السلام كى يدعوانه إلى الله رب العالمين فقال عز من قائل : « إذهب أنت وأخوك بآياتى ولاتنيا فى ذكرى ، إذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى »[1]

سبحانك ربى، مع كل هذا التكبر والعلو والغطرسة والعظمة تأمرهما بأن يقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى، إنه الأسلوب الناجح فى دعوة الطغاة المتجبرين إلى الله عز وجل .

يقول ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : « إذهبا إلى فرعون إنه طغى أى تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ، هذه الآية فيها عبرة وعظة عظيمة وهو أن فرعون فى غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، مع هـــذا أمر أن لايخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين . وقال وهب بن منبه : قولا له إنى إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب والعقوبة » .

من السنة الشريفة : —

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن صهيب بن سنان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

---

(١) طه : ٤٢ — ٤٤

فهذا الحديث الشريف يبين لنا فى وضوح وجلاء طبيعة هذه الحياة وأنها سلسلة متصلة الحلقات من الأفراح والأحزان والهموم، والنعم والمصائب، كما يوضح لنا أن المؤمن بطبيعة الحال لا يقف مكتوف الأيدى أمام هذه الأحداث المختلفة التى سرعان ما تتغير وتتبدل، بل يكون دائماً وأبداً كما يريده خالقه سبحانه، فحينما تقبل عليه النعمة يستقبلها بالشكر والعرفان لا بالكفر والجحود «لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد»[1] وحينما تنزل به النوائب يتلقاها بصبر ورضى قال تعالى: «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب»[2].

٣ — الجدل بالتى هى أحسن:

والجدل بالتى هى أحسن أسلوب من أساليب الدعوة إلى الله تعالى يحتاج إليه الخطيب خاصة فى العصر الحاضر، عصر الفتن والإضطرابات وأصحاب الديانات الوضعية، والإنسان كما وصفه القرآن الكريم ميال إلى الجدل والمجادلة قال تعالى: «وكان الإنسان أكثر شىء جدلا»[3].

والجدال بالتى هى أحسن أسلوب له قيمته فى نجاح الدعوة إلى الله تعالى فليس أسرع إلى القلوب، وأحب إلى النفوس من قول يهدى إلى الحق والخير وذلك بالمسالمة والحسنى، أما السفسطة ومحاولة الغلبة عن طريق الخشونة والتجريح والطعن فهذا أسلوب مرفوض يؤدى إلى نتيجة عكسية، ومن أجل ذلك أمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يجادل بالتى هى أحسن وأن يستعمل الرفق واللين وحسن الخطاب فى دعوته يقول:

---

(١) إبراهيم: ٧
(٢) الزمر: ١٠
(٣) الكهف: ٥٤

الإمام ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية : «وجادلهم بالتى هى أحسن» من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كقوله تعالى : «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن» وأخبره تعالى بلين الجانب فى دعوته».

ويقول الإمام النسفى فى تفسيره «وجادلهم بالتى هى أحسن بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ، أو بما يوقظ القلوب ، ويعظ النفوس ، ويجلو العقول».

وعلى ذلك الخط المستقيم الواضح الذى رسمه القرآن الكريم فى جدله ، يجب على الخطيب الناجح أن يستقيم على هذا الطريق الجاد فى مجادلة من يخالفونه فى الدين ، حتى تنجح دعوته وتؤتى ثمارها المرجوة .

والرسالة الإسلامية هى خاتمة الرسالات ، فكان لزاماً أن يتضمن دستورها منهجاً للرد على كل خصم بالحجة والبرهان ، ومن هنا كان الجدل بالتى هى أحسن ، أساساً من أسس المنهج فى الدعوة إلى الله تعالى .

نماذج من المجادلة بالتى هى أحسن :

١ — من القرآن الكريم :

عرض القرآن الكريم نماذج من الدعوة إلى الله تعالى بالجدال بالتى هى أحسن فى صورة رائعة . يستفيد منها خطباء عصرنا فى حياتهم ومن يأتى بعدهم إلى قيام الساعة .

موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام من عبدة الأصنام .

بعد أن فرغ سيدنا إبراهيم عليه السلام من دعوة أبيه وقومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، لأنها لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر. كان لا بد من مواجهة المجتمع الذى يعيش فيه ، الذى ألف عبادة الأصنام واستقر عليها ، مدعين أنها عبادة الآباء والأجداد، فكيف يتركوها لهذا الدين الجديد ، الذى جاء به إبراهيم عليه السلام .

يحدثنا القرآن الكريم عن هذه المجادلة التى دارت بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وبين عبدة الأصنام ، قال تعالى : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق ام انت من اللاعبين، قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ، وتالله لأكيدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون »[1] .

فسيدنا إبراهيم عليه السلام بتحطيمه الأصنام أقام دليلا حسياً لقومه على بطلان عبادة الأصنام، فلو كانت آلهة حقيقية كما يزعمون لدافعت عن نفسها واصابت بالضرر كل من ارادها بسوء ، وهذه الحقيقة فطن لها الإمبراطور (هيديوشى) امبراطور اليابان، فقد شيد هذا الإمبراطور تمثالا ضخماً لبوذا ولم يكد يتم بناؤه حتى زلزلت الأرض سنة ١٥٩٦ فألقت بالتمثال على الأرض هشيماً .

---

(١) الأنبياء : ٥١ — ٥٨

ويروى فى اليابان ان (هيديوشى) رمى الصنم المحطم بسهم قائلا له فى ازدراء : لقد أفمتك هاهنا بباهظ النفقات فلم تستطع حتى حماية معبدك

ورجع القوم من عيدهم فوجدوا الأصنام كلها محطمة ما عدا الصنم الكبير الذى يتوسطهم وهنا لا بد من التساؤل : من الذى فعل هذا بالآلهة إنه ظالم بفعله هذا ؟ فيقول بعضهم سمعنا فتى يقال له إبراهيم يذكر هذه الآلهـــة بسوء ، ويسرع الجميع فى طلب إبراهيم وتقديمه للمحاكمة العاجلة .

قال تعالى : « قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه من الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به عـــلى أعين الناس لعلهم يشهدون »(١) .

وهنا تحين الفرصة لسيدنا إبراهيم عليه السلام لكى يبين للقوم على ملأ من الناس سفاهة عقولهم وتفاهة معبوداتهم ، لأنها لو كانت آلهة كما يعتقدون لدافعت عن نفسها ولما حدث لها ما حدث من تكسير وتحطيم فسألوه قائلين : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون »(٢) وهـذا تهكم واستهزاء وسخرية من سيدنا إبراهيم عليه السلام لهؤلاء الناس ، الذين يعبدون آلهة لا تنطق ولا تتحرك ولا تجيب .

يقول الإمام ابن كثير : وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام ان يبين فى هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقولهم فى عبادة هذه الأصنام ، التى لا تدفع عن نفسها ضرراً ولا تملك لها نصراً فكيف يطلب منها شىء من ذلك » .

---

(١) الأنبياء : ٥٩ — ٦١
(٢) الأنبياء : ٦٢—٦٣

ثم تنتهي المحاكمة العاجلة بالحرق لإبراهيم عليه السلام ، فينجيه الله تعالى من كيدهم وتدبيرهم قال تعالى : «وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين»[1] .

من السنة الشريفة :

تروى لنا كتب السيرة مواقف متعددة لمجادلة الرسول ﷺ النصارى ودعوتهم إلى الإسلام ، وكيف أن الكثير منهم كان يعتنق الإسلام بعد هذا الجدال ، من ذلك :

ما رواه الإمام أحمد والترمذى وابن جرير عن عدى بن حاتم الطائى أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام ، وكان قد تنصر فى الجاهلية فأسرت أخته فى جماعة من قومها ، ثم من رسول الله ﷺ عليها وأعطاها فرجعت إلى أخيها ورغبته فى الإسلام ، وفى القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عدى المدينة وكان رئيسا فى قومه طيء ، وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه ، فدخل عدى على رسول الله ﷺ وفى عنقه صليب من فضة ، أو من ذهب ، فقرأ عليه الصلاة والسلام هذه الآية : «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله» قال عدى فقلت : إنهم لم يعبدوهم ، فقال ﷺ ، بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم . فتلك عبادتهم إياهم ثم قال عليه الصلاة والسلام ياعدى مايفرك أن يقال (الله أكبر) ؟ فهل تعلم شيئا أكبر من الله ؟ ما يفرك : أيفرك أن يقال (لا إله إلا الله) فهل تعلم من إله إلا الله : ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم » .

والذى نلاحظه فى ذلك أن الرسول ﷺ قد بين له الخطأ فيما هو

---

(١) الأنبياء : ٧٠

عليه من عبادة الأصنام ، ولكن هذا تم فى أحسن صور الجدال وأرفقه بالخصم ، كما بين له الرسول عليه الصلاة والسلام فى جداله أنه أعلم بدينه منه ، وأقام عليه الحجة فى ذلك فى إطار من الرفق واللين والرحمة وإظهار وحب الخير له حتى هداه الله إلى اعتناق الإسلام .

وعلى الخطباء فى عصرنا الحاضر أن ينهجوا هذا المنهج فى جدالهم إقتداء وتأسيا برسول الله ﷺ ، فيجب عليهم الالتزام الكامل بالموضوعية والرفق بالخصم وعدم إثارته حتى لايدفعه هذا إلى العناد والمكابرة بالباطل ، لأن هذا ليس من الدعوة فى شيء .

وقد ذكر الإمام الغزالى فى كتابه الإحياء أهم الأسس التى تبنى عليها آداب الجدال فقال : إن من أدب المجادل الذى يقصد بجداله وجه الله تعالى واحقاق الحق ، أن يكون جداله مع خصمه فى خلوته لا فى حفل جامع ، فإن الخلوة أجمع للفهم وأحرى بصفاء الذهن ودرك الحق ، وفى حضور الجمع الكثير مايحرك دواعى الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محقا كان أم مبطلا ، فحرصهم إذا على المحافل والمجامع ليس لله ولا لوجه الحق ، وأن يكون فى طلب الحق كنا شد الضالة لايفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه ، ويرى رفيقه معينا لا خصما ، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق .

المبحث السادس عشر

رسالة المسجد فى الإسلام

المساجد فى الإسلام هى بيوت الله فى الأرض ، وهى المكان الذى تلقى فيه خطبة الجمعة من كل أسبوع ، حيث يذهب إليها المسلمون خاشعين خاضعين لسماع الوعظ والإرشاد والتوجيه من الخطيب .

ولم تكن المساجد فى الإسلام مكان عبادة وتقرب لله تعالى فقط ، إنما كانت منارة للعلم والمعرفة ، ومثابة العلماء ينفر إليها الطلاب من كل مكان وفى كل زمان للتزود بالعلوم والمعارف ، كما كان يعقد فى ساحة المساجد الحلقات العلمية للتعليم والفتوى ، ومدارسة القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ ، وأحكام التشريع وفى هذا يقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه وعليه : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده .... »[1] .

ومن خلال دراستنا لسيرة الرسول ﷺ نجد أنه أقام المسجد ولم يقصره على العبادة ، وإنما كان المسجد فى عصره كما هو مكان العبادة ، كان مقرا للحكم ، ومكانا للعلم والتعليم ، واستقبال الوفود ، وعقد المعاهدات وغير ذلك مما يوضح الصلة الوثيقة بين الدين والمجتمع ، وشمول الإسلام لكل أنواع النشاط البشرى وتنظيمه لجميع العلاقات التى تربط الإنسان بربه وبالمجتمع الذى يعيش به ، سواء فى ذلك المجتمع الخاص

---

(١) سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٢٨ باب فضل العلماء .

كالأسرة أو المجتمع العام كالوطن والأمة أو المجتمع الأعم كالإنسانية كلها .

ومن هنا كان المسجد من قديم هو القائم على خدمة المجتمع كله بأداء الواجب له والحفاظ على حقوقه ، ولم يكن أبدا حتى فى أقوى العصور حضارة ورقيا بمجرد مكان للعبادة وهذا لأن الإسلام دين شامل نظم العلاقات الإجتماعية كما نظم العلاقات الروحية .

ولهذا شجع الإسلام على بناء المساجد ورقيها ليذكر فيها اسم الله تعالى ، ويقام فيها الخدمات الدنيوية التى تهم المجتمع ، فعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله بنى الله له بيتا فى الجنة » وفى رواية « بنى الله له مثله فى الجنة »[1] .

كما جعل الله المساجد أشرف بقاع الأرض ، كما ورد فى الحديث : « أحب البلاد إلى الله تعالى مساجدها وأبغض البلاد إلى الله تعالى أسواقها »[2] ولشرفها أضافها الله إليه فقال : « وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا »[3] .

وقد تخرج من المساجد الكثير والكثير من الدعاة العاملين ، والعلماء المخلصين الذين أثروا الحياة بكل مايفيد البشرية من علم وعمل ، وبعضهم عليها السعادة والهناء ، والدليل على ذلك : مساجد مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، ومساجد بغداد والبصرة ، والأزهر الشريف ، والزيتونة ، وقرطبة وغير ذلك من المساجد العامرة بنور الإيمان والمعرفة .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) الجن : ١٨

واقتدى الصحابة والتابعون ومن جاء بعدهم رضى الله عنهم بما فعل رسول الله ﷺ من الاهتمام بالمساجد ورعايتها والعناية بها ، فما فتحوا مدينة إلا وأقاموا فيها المساجد ، حتى اشتهرت البلاد التى فتحها المسلمون بمساجدها الجامعة ، حيث كان المسجد الجامع من أهم المنشآت العامة فى المدينة الإسلامية، لما له من دور أساسى وإيجابى فى حياة المجتمع .

ومن هنا كانت علاقة المسلم الروحية بربه متصلة بعلاقته الدنيوية ، ولم يكن بينها فاصل أو مانع وقد بين الرسول ﷺ بقوله للرهط الثلاثة الذين سألوا عبادته وكأنهم تقالوها ، فعزم بعضهم على قيام الليل كله ، والثالث عن الامتناع عن الزواج ، فإذا بالرسول ﷺ ينهاهم عن ذلك ويقول لهم : « أما إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكنى أقوم وأرقد وأصوم وأفطر وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى »[1] .

فالإسلام يهتم بالعلاقات الاجتماعية ، ويجعلها ركنا من أهم الأركان التى يتم بها الإيمان .

وبناء على ذلك فإن المسجد فى صدر الإسلام كان ولا يزال من أهم وسائل الدعوة إلى الله عز وجل ، كما كان وسيلة الاتصال ، وجهاز الإعلام الوحيد قبل اختراع أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية فى العصر الحديث ومن ثم عمل المسلمون على بناء المساجد وعمارتها عملا بقول الله تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين »[2] .

---

(١) رياض الصالحين ص : ٨٢

(٢) التوبة : ١٨

رسالة المسجد فى العصر الحديث

رسالة المسجد فى العصر الحاضر لا تقل أهمية عن رسالته فى صدر الإسلام، وذلك لأن العصر الحاضر فيه من المشاكل وله من المتطلبات ما كان لكل مجتمع سبق وتزيد عليها أمور جدت بحكم التطور الحضارى والتقدم العلمى وسهولة الإتصال بين الأقطار والشعوب وإنتقال النظم والعادات والمشاكل من مجتمع لآخر .

فمشاكل المجتمع الإسلامى على الخصوص كثيرة ومتنوعة، وما يوجد الآن من إنحرافات نتيجة ظهور آراء، وأفكار، ومذاهب، وفلسفات دخيلة، وردت إلينا من المجتمعات الأجنبية بصيغتها وطابعها المعين، ونشأ عن كثرة هذه الآراء وتنوع المذاهب : فرق، وأحزاب، وجميات، وتنظيمات، وصحف ووسائل دعاية، لكل منها أتباعها المتعصبون لها وأصبح فى ذلك كله الخطر كل الخطر على وحدة الجماعة وتماسكها .

كل ذلك زاد من قيمة المسجد وأهميته فى العصر الحديث، حيث يلجأ الناس دائما إلى إمام المسجد يبحثون عنده عن العلاج الناجح لمشاكلهم، ويطلبون منه الحلول النفسية والدينية والإجتماعية والإقتصادية للمشاكل التى تحيط بهم من كل جانب .

— كذلك فى مجتمعنا الإسلامى الآن تيارات الوجودية والشيوعية، والإنحلال الذى تروج له الصهيونية العالمية، وكلهم يقصدون الدين الإسلامى ويريدون النيل منه وتنفير المسلمين من نظامه .

— كذلك فى المجتمع الإسلامى المعاصر، مشاكل العمال والفلاحين

والتجار ، والموظفين ، وهم جميعا ينتظرون رأى رجال الدين ، لأن كثيرا من هذه المشاكل تتعلق جذورها بالإيمان الكامل فى قلوبهم .

— كذلك فى المجتمع المعاصر تنتشر السموم والمخدرات ، وراحت أفكار ومفاهيم تريد أن تبرر هذه المحرمات بنوع من التأويل القرآن الكريم والسنة الشريفة .

— فى المجتمع الحديث هجرات متتابعة من القرى إلى المدن نشأت عنها أزمات فى المساكن والمدارس وطرق المواصلات وفى المرور ، كما نشأ عنها نشاط لبعض الإنتهازيين والمخربين مستغلين حاجـــة الناس وازدحام السكان ، وكانت السرقات وكان التحايل والنصب وكان الإحتكار والجشع ، وكان أكثر من ذلك مما يتطلب حملة قوية لوقف هذه الأنشطة الضارة بالمجتمع .

فى المجتمع الحديث نهضة صناعية كبرى وحركة عمالية واسعة تحتاج إلى توجيه دائم لبيان سيرها فى الطريق المستقيم والوقوف ضد الإنحرافات التى تقضى على المكاسب أو تثير الفتن والقلاقل فى الحياة العماليـــة أو الأسرية وذلك يحتاج إلى إثبات وجود الدين بهدايته الشاملة ليوجه هذه الحركات ويعالج هذه المشاكل ، ويساعد فى تغطية المطالب ويسهم فى كل نشاط جديد فى جميع المجالات .

إن المسجد فى العصر الحاضر يستطيع أن يقدم خدمات جليلة عن طريق الدين ، بحيث يمكن أن يوجد حلا لكل مشكلة ، وحكما لكل حادثة ، وجوابا لكل سؤال ، والداعية الناجح والخطيب اللبق يمكن أن يتناول كل ما يحدث فى المجتمع تناولا يوضح المبهم ويصحح الخطأ ، ويقوم المعوج ويعالجه معالجة تساعد الخير على أن يبقى ويثبت ضد الشر ليزول .

مواصفات المسجد فى العصر الحديث

إذا كان المسجد بهذه الأهمية والمكانة فى العصر الحديث كما كان قبل ذلك ، فلابد له من مواصفات وشروط ، حتى يستطيع أن يلبى حاجات المجتمع ، وهذه المواصفات هى :

١ — أن يختار للمسجد الخطيب الناجح ، الذى تسند إليه إمامة الناس ووعظهم وهدايتهم وإرشادهم فلابد من وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب وأن يكون الاختيار على نحو يحقق للدعوة أهدافها ، ومن هنا فلا مكان للأدعياء الذين يزجون فى هذا المكان على غير علم ومعرفة من الدين .

٢ — يجب أن تلحق بالمساجد مكتبة مزودة بالكتب الدينية والثقافية العامة ، ليسهل إطلاع الجمهور عليها داخل المسجد وخارجه ، ويشرف عليها عامل مختص للمحافظة عليها وعلى ما فيها من كتب .

٣ — أن يبنى المسجد فى مكان بارز من الحى ، أى لا يكون فى زقاق من الأزقة تحيط به القاذورات والنجاسات من كل جانب ، بل يجب أن يختار للمساجد الأماكن التى تليق بها ، حيث يراها الناس فى أحسن صورة ، كما أنها بيوت الله فى الأرض وأولى ببيت الله أن يختار له مكان مناسب ونظيف بعيداً عن القذارة والنجاسة .

٤ — أن تلحق بالمسجد وحدة علاجية مبسطة للحالات العاجلة ، وقد استعمل الرسول ﷺ المسجد لإسعاف الجرحى فى الغزوات بإشراف السيدات .

٥ — أن يلحق بالمسجد مكتب لتحفيظ القرآن الكريم لكبار السن والناشئين فى وقت فراغهم .

٦ — أن تخصص بالمسجد حجـــرة لفض المنازعات صوناً للسرية ومنعاً لما قد يحدث من تشويش على الحاضرين بالمسجد ، لأنه غالباً ما يلجأ المتنازعون إلى إمام المسجد لحل منازعاتهم ، وهذا عمل جليل يجب أن يقوم به الإمام للتوفيق بين المتنازعين .

٧ — أن يكون فيه صنـــدوق للشكاوى والإستفسارات وما يتعلق بها .

٨ — أن يلحق بالمسجد مكان لتعليم الأميين القراءة والكتابة وهذا التعليم مأذون فيه حتى فى المسجد فلا بأس به إذا كان فى مكان خاص به .

٩ — أن يلحق بالمسجد استراحة للزائرين أو لمن يحتاج الأمر إلى إقامتهم بعض الوقت فيه ، على غرار الصفة التى كانت فى مسجد النبى ﷺ .

١٠ — يجب أن يلحق بالمسجد ساحة لممارسة الألعاب الرياضية والنشاط الفنى والهوايات البريئة ، وخاصة ما يتصل بإعداد الجيل إعداداً صالحاً لخدمة الوطن ، وحماية الشباب من الإنحراف .

١١ — أن تلحق بالمسجد قاعة فسيحة تصلح لعرض الأفلام الثقافية الهادفة ، ولإقامة الحفلات فى المناسبات الدينية وغيرها كحفلات عقد القرآن واجتماعات العزاء ، والإجتماعات الأخرى .

١٢ — يجب العناية بنظافة المساجد والإهتمام بها من ناحية مظهرها ومبناها ، بأن تظهر بالمظهر اللائق بها كبيوت لله تعالى دون مبالغة ولا إسراف ولا تقتير وقد أمر الله عز وجل بأخذ الزينة عند الذهاب إلى المساجد قال تعالى : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد »[1] .

---

(١) الأعراف : ٣١

ومن هنا أمر الإسلام بنظافة المسجد ورغب فى ذلك كما جاء فى الحديث الشريف : « البصاق فى المساجد خطيئة وكفارتها دفنها »[1] .

وقد أمر الله تعالى سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام بأن يطهرا بيته ، فقال عز وجل : « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود »[2] .

١٣ — أن يكون فراشه مناسباً لجلال المسجد وللمعنى الدينى الذى يؤدى فيه . وأن يزود بالمراوح الكهربائية لتلطيف الجو فى وقت الحرارة لراحة أعصاب المصلين ومساعدتهم على أداء الواجب الدينى فى خشوع واطمئنان ، وأن يتعهد بالنظافة التامة فى جدره وفراشه ، وأن ينبه المترددون على المسجد أن يحافظوا على نظافته ، كما يحافظون على نظافة بيوتهم أو أكثر .

١٤ — أن يزود المسجد بمكبر للصوت لإعلام الناس بالأوقات وإذاعة الخطب والندوات والمحاضرات لينتفع بها أكبر عدد من الناس .

١٥ — أن يزود المسجد بتليفون لتمام اتصاله بالحى واتصال الحى به .

١٦ — أن يخصص فى المسجد مكان للسيدات لأداء الصلاة . وصلاتهن وإن كانت فى البيوت أفضل كما ورد فى الحديث الشريف ، لكنهن قد يرغبن فى صلاة الجماعة والإفادة من خطب الجمعة والدروس ، وقد ورد فى الحديث أيضاً عدم منعهن من الذهاب إلى المساجد . فعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى — ﷺ — قال : « لا تمنعوا النساء أن يخرجن إلى المساجد وبيوتهن خير لهن » .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن انس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) البقرة : ١٢٥

ومن خلال هذه المواصفات وغيرها يستطيع المسجد في العصر الحاضر. أن يقدم خدمات كبيرة . ويسهم إسهاماً فعالاً وإيجابياً في المشروعات الإصلاحية .

يستطيع أن يسهم في إقرار الأمن بالمصالحات ومحاربة الإجرام ، ومكافحة العصبيات الطائفية والقبلية والأخذ بالثأر ومقاومة الآراء المنحرفة والتيارات المضادة للإصلاح ، ومحاربة الاستغلال والإقطاع والإحتكار . كما يحارب المسجد المخدرات والشائعات ، ويسهم في التقليل من أخطار الحرائق والمرور والزحام ، كما يسهم في تطهير المجتمع من البدع والخرافات والعادات الباطلة وفي الدعوة إلى البر والتقوى والمعونة على الخير، ورعاية الأسرة وتنظيمها ، وفي نشر الوعي الصحي ، وتوجيه الشباب إلى الخير ، وصيانتهم من الانحراف ، كما يسهم المسجد في تشجيع العامل على إتقان عمله ، وحسن الصلة بينه وبين رب العمل ، وفي تشجيعه على الادخار ، والإسهام في المشروعات الوطنية المثمرة ، وفي حماية الثروة الزراعية من الآفات ، والعمل على زيادة الإنتاج ، كما يحارب المسجد الغش والتحايل والنصب والتزوير . كما أنه يقوى الروح الوطنية في نفوس المواطنين ويدعوهم إلى البذل والتضحية والجهاد المقدس لحماية بلادهم ومقدسات المسلمين إلى غير ذلك من كل نشاط يقول الدين فيه كلمته .

وهذه الخدمات الجليلة من قبل المسجد . التي يؤديها للمجتمع يجب أن تلقى تعاوناً من الأجهزة الأخرى وسيرها معه في اتجاه واحد لخدمة المصلحة العامة، والوصول إلى الهدف المرجو وهو الخير والسعادة والرقي للجميع وصدق الله إذ يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان »[1] .

---

(١) المائدة : ٢

— مواصفات الإمام الحديث —

كى يؤدى المسجد وظيفته على أكمل وجه، لا بد له من إمام يرقى به إلى المستوى اللائق به ، لأن المسجد دائماً يأخذ مكانته وسمعته الطيبة من مكانة الخطيب ، وسمعته ، ومن هنا لا بد من توافر آداب فى إمام المسجد وخطيبه حتى يكون خطيباً ناجحاً يستطيع أن يلبى حاجات المجتمع من هذه المواصفات : —

١ — يشترط فى الإمام أن يكون من ذوى المؤهلات العالية ، الذين حصلوا على قدر كبير من العلم والمعرفة. مع ضرورة اختيارهم من المتقدمين الممتازين المعروفين بغيرتهم الدينية وإيمانهم بالدعوة إيماناً كاملا ، فإذا آمن إمام المسجد بدعوته ورسالته ، وأنه مكلف من قبل الله تعالى بأدائها دفعه هذا الإيمان إلى العمل بما يرضى الله عز وجل فلا يهدأ ولا يستريح حتى يرى الناس جميعاً على الطريق السوى والصراط المستقيم .

٢ — أن يكون الإمام مدركاً لما حوله من مذاهب هدامة، وتيارات منحرفة وأديان باطلة ، ودعوات فاسدة ، حتى يستطيع أن يحدث الناس بما يحتاجون إليه وأن يجادل من يخالفوه فى الدين بالتى هى أحسن ، كما أمر الله تعالى بذلك . « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن »[1] .

ولن يستطيع الإمام ذلك إلا إذا درس ما عند القوم من علوم ومعارف .

٣ — أن يضم الخطيب إلى علمه خلقاً كريماً وسلوكاً مستقيماً ، حتى يتعلق الناس به ويؤمنوا عن صدق بما يقول ، ليجد الناس فيه القدوة الحسنة الصالحة، والإسلام الحى المستنير ، إن سلوك الخطيب هو الصورة

---

(١) العنكبوت : ٤٦

الحية العملية لدعوته ، يراها الناس فى سكونه وحركته ووقوفه ومشيته ، وبكائه وضحكه ، والقدوة الحسنة تصيب من قلوب الناس أكثر ما تصيب الكلمة مهما كانت طيبة ومؤثرة .

ويكفى الخطباء شرفاً أن يتخذوا من رسول الله — ﷺ — القدوة الحسنة كما أمر الله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر »[1] .

٤ — أن يحافظ الخطيب على زيه الأزهرى فإنه مظهر الاحترام عند الناس ، وأدعى إلى ثقة الجمهور به ، وتقديرهم لشخصه وعمله .

٥ — إعداد المسكن المريح لإمام المسجد بحيث يكون قريباً من مسجده ، وذلك حتى يشعر بالاستقرار والهدوء النفسى فيتفرغ لعمله ، ويقبل عليه بجد وإخلاص ، وليرتبط بالحى ارتباطاً يساعده على فهم مشاكله والإسهام فى حلها .

٦ — أن يكون له مساعدون يعاونونه فى القيام بنشاط المسجد ، الذى يعد وحدة دينية شاملة ، وألا يلقى عبء الإمامة والخطابة ، والدروس وغيره من الأعباء عليه وحده ، وليكن هناك إمام خاص بالصلوات ، ويتفرغ الإمام للخطب والدروس والأنشطة الأخرى .

٧ — ألا ينقل من مسجده إلى مسجد آخر إلا بعد فترة طويلة يكون قد أدى فيها الحى خدمة ظاهرة ، فإن الإصلاح لا بد له من دراسة قد تستغرق وقتاً طويلا ثم يأتى العلاج بعد ذلك على بينة وبصيرة .

٨ — يجب ألا يقتصر عمل الإمام على مجرد العمل فى حدود المنطقة التى يعيش فيها ، وإنما يمكن للإمام أن يقوم برحلات مع أهل الحى إلى

---

(١) الأحزاب : ٢١

المناطق الدينية ، والأماكن الإسلامية للتعرف على ما فيها من أشياء تعود عليهم بالنفع والفائدة ، ويكون فيها الدافع إلى الجد والإخلاص والعمل لصالح الدعوة الإسلامية .

٩ — وهناك من الآداب التي يجب أن يتحلى بها إمام المسجد الكثير، إذ من الآداب: أن يتحلى بالصفح ،والحلم ، والتواضع ، والصبر، والزهد والتجرد من زينة الحياة الدنيا ،ومطابقة القول العمل ، لأن هذا شيء مهم جدا في نجاح دعوته ، ومن هنا فلا بد لإمام المسجد أن يحقق هذه الأشياء في نفسه أولا ، فدعوة الناس إلى الخير تقتضي أن يكون الإمام سباقاً إلى الخير ، عاملا بما يقول مجتهدا في فعل الخيرات داعياً إليها الناس. فإن تحقق ذلك كان للإمام هيبته واحترامه وللمسجد روعته، وبهاؤه ، واستطاع إمام المسجد أن يكون له الدور الأمثل في المجتمع الإسلامي المعاصر ، وأن يؤدي وظيفته على أكمل وجه وأوضح بيان .

المبحث السابع عشر

ــ نماذج من الخطب العملية ــ

١ ــ الإسلام دين العزة والكرامة :

الحمد لله رب العالمين ، خلق فسوى ، وقدر فهدى ، وبعث رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ؟ أحمده سبحانه وتعالى وأتوب إليه ، واستغفره ، ونطلب منه الهداية والتوفيق والرشاد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أنعم على الإنسانية برسالة الإسلام دين العزة والكرامة ، وجعلنا خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه وخليله ، بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، اللهم صل وسلم وتبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته والمهتدين بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد : ــ

فيقول الله عز وجل فى محكم آياته وهو أصدق القائلين « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ،ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم [1] » .

---

(١) الجمعة : ٢ــ٤ .

أيها المسلمون : —

لقد كانت بعثة نبينا محمد ﷺ نعمة كبرى من الله عز وجل لهذا العالم الحائر المتخبط فى دياجير الظلام والجهل ، واستكمالا لرسالات الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام ، التى جمعها الله سبحانه وتعالى فى رسالة الإسلام ، ولقد أخذ الله العهد والميثاق على جميع الأنبياء والمرسلين لئن جاءكم محمد ﷺ لتؤمنن به ولتنصرنه ، فأقروا بذلك وأعطوا ربهم عهداً بهذا الإيمان ، فكان نبينا بهذا نبى الأنبياء جميعاً ، ورسول الله إلى العالم أجمع يقول الحق تبارك وتعالى فى ذلك : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين[1] » .

ونحن بإيماننا برسالة سيدنا محمد ﷺ نؤمن أيضا برسالات الأنبياء جميعاً لا نفرق بين أحد من رسله قال عز وجل : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير[2] » .

أيها المسلمون : —

لقد غيرت رسالة الإسلام وجه التاريخ ، فأعادت للإنسان كرامته ، وحررته من ذل الإستعباد ، وأعادت للعقيدة فهمها الحقيق ،

---

(٢) آل عمران : ٨١ .

(٢) البقرة : ٢٨٥ .

ومفهومها الصحيح ، وجعلت توحيد الله أساساً للتفكير ، ونفت الشبيه عن الله الخالق القدير ، ونظمت حياة الناس جميعاً على أساس المساواة الكاملة ، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، وكلكم لآدم وآدم من تراب ، وجعلت العدل هو القانون الذى يجب أن يسود ، فلا ظلم ولا عدوان ولا طغيان ، وأشاعت الحب بين أفراد المجتمع ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه[1] »وشرعت للأسرة مافيه حياتها وللأمة مافيه أمنها ، وللدولة مافيه نظامها بما يكفل الأمن والطمأنينة للجميع ، وحدت الحدود لمن يخرج على الشريعة ويقترف الآثام ، وجعلت الناس أمام القضاء سواء ، وقررت الفضائل والأخلاق، وربطت الجميع برباط الحب والإخاء ، وجعلت كل هذا عبادة من الإنسان لله الواحد القهار ، الذى يحاسب الجميع على أعمالهم « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره[2] » .

وبعث فى الأمة العربية روح الإنطلاق لينقذوا الإنسانية من جبروت الظلم والظالمين ، ويحرروا البشرية من الخوف ، بعد أن عاش العرب فى جزيرتهم عبدة للأصنام ، يأكل قويهم ضعيفهم ، يقترفون الآثام ، ويسيئون الجوار ، حتى جاءهم رسول الله — ﷺ — بمكارم الأخلاق ، وأرسى فيهم قواعد نظام إلهى كامل حولهم من رعاة الغنم إلى هداة البشر .

يقول جعفر بن أبى طالب للنجاشى ملك الحبشة عندما هاجر والمسلمون معه إلى الحبشة ، أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

القوى الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولا منا ، نعرف نسبه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات .

أيها الإخوة المسلمون :ــ

بهذا المفهوم الجديد انطلق المسلمون العرب يحررون الدنيا بعد أن حرروا أنفسهم من الآثام ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » . على هذا المستوى من الفهم والعلم والخلق والسلوك ، مضى الصحابة الأطهار من اتباع رسول الله ﷺ ، حتى أقاموا دينا عزيزا لله تعالى ، ودنيا كريمة بتوفيق الله عز وجل ، ثم ماذا بعد ذلك «فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا» والغى كما يقول أهل التفسير هو واد فى جهنم أو نوع من الحياة الضالة البعيدة عن هدى الله ، وهو ذل يصيب الناس لبعدهم عن الحق .

فالواجب علينا أن نعيد الفهم السليم إلى العقول ، والعقيدة الصحيحة إلى القلوب ، والنظام الصالح للمجتمع ، والخلق الفاضل للأمة حتى يمكن أن نسترد مافات وأن نعيد مامضى من العزة والكرامة فى ظل الله وحده الواحد الأحد ، فلا مادية تبعدنا عن الروح ، ولا إلحاد يبعدنا عن توحيد الله ، ولا فرقة تنفى الحب عن مجتمعنا ، ولا ضلال يبعدنا عن الصراط المستقيم ، « صراط الله الذى له ما فى السموات والأرض » .

ولن يكون ذلك إلا إذا سلكنا طريق النبي الكريم سيدنا محمد ﷺ نفهم الإسلام على أنه عقيدة إلهية ، ونظام حياة ، وقانون مجتمع ، نجمع الناس على كلمة سواء ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . عندئذ يتحقق لنا النصر العزيز على الأعداء ، ويتم لنا الفرج القريب ، فنحرر الأرض وينشر السلام ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » :

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

٢ ــ هجرة الرسول ﷺ

الحمد لله رب العالمين ناصر المؤمنين ومؤيد الموحدين ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم أحمــده سبحانه وتعالى وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفر ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، أيد رسوله ﷺ بنصره وأعزه بجنده ورعاه بعنايته وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا وعظيمنا محمداً رسول الله ، جمع الله به بين المؤمنين فهداهم من ضلالة ، ووحدهم من فرقة ، جاهد فى الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع طريقه وسار على نهجه إلى يوم الدين .

أما بعـــد

فيقول الحق تبارك وتعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين»[1]

---

(١) الأنفال : ٣٠

أيها الإخوة المؤمنون : ـ

فى هذه الآية الكريمة يذكرنا الله عز وجل فضله على نبيه وحبيبه محمد ﷺ ، حين كان بمكة المكرمة ومكرت به قريش ، ليشكر نعمة الله تعالى فى نجاته من مكرهم وما أتاح له من حسن العاقبة .

ذلك أن الحبيب المصطفى ﷺ عاش فى مكة قبل الهجرة ثلاثة عشر عاماً يدعو إلى التوحيد ويعمل على اقتلاع الشرك من جذوره ويوجه النفوس إلى عبادة الله وحده « قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا »[1] وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم »[2] .

ولكن معظم قادة قريش ومن تبعهم أصموا آذانهم عن سماع كلمة الحق ، وأعلنوا جحودهم على ما كان عليه آباؤهم ، فسفه الحبيب ﷺ عقولهم ، وقبح تقليدهم لآبائهم وتحدث إليهم بخطاب الله عز وجل فى قوله : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون »[3] بمثل هذا الخطاب كان لسان الوحى يقرعهم ويؤنبهم ، فما هو إلا أن هاج هائجهم ، فطاشت ألبابهم ، وخرجت أحقادهم وراحوا يتفننون لرسول الله ﷺ فى طرق الإيذاء ويعرضون عليه مغريات الدنيا ليكف عن دعوته ونسوا أن دنياهم وما فيها من متاع وزخرف وزينة لا تساوى عنده مثقال ذرة ، إنما قرة عينه وراحة نفسه أن يعلى كلمة الحق ، وأن يغسل أدران الإنسانية ، وأن يقيم دولة التوحيد النقى الخالص ، وأن يدعم الفضيلة وأن يؤدى رسالته كما أمره ربه عز وجل ومن أجل ذلك أخذ الرسول ﷺ يتلقى المحن ، ويستقبل الإيذاء صابراً محتسباً ، داعياً أصحابه إلى الصبر والتسليم لأمر الله حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

---

(١) الجن : ٢٠ (٢) البقرة : ١٦٣
(٣) البقرة : ١٧٠

ولنتدبر هذا الحديث الذى رواه الإمام البخارى رحمه الله عن قيس قال: سمعت خباباً يقول: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو فى ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر الوجه. فقال عليه السلام: «قد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد مادون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه؛ وليتمن الله هـــذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله عز وجل والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون بمثل هذا الأسلوب العالى كان الرسول ﷺ يربى أصحابه على الصبر مع ما كان يشعر به من شدة الألم لما ينزل بهم من الإيذاء. والتعذيب، ونحن لا ننسى أبداً قوله ﷺ لآل ياسر وهم يعذبون أشد ما يكون التعذيب: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة».

أيها المؤمنون: —

ثم أذن الله عز وجل أن تنتشر الدعوة بين الأوس والخزرج من أهل المدينة بعد طول احتباسها فى مكة: ففى السنة الثانية عشرة من البعثة اجتمع إثنا عشر رجلا من الخزرج والأوس بالنبي ﷺ ليلا عند العقبة الكبرى وبايعوه على الإسلام، وفى العام التالى بايعه ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان، وبايعوه على النصرة والسمع والطاعة وكانت البيعة الثانية خيرا وبركة، إذ هيأ الله عز وجل للمؤمنين دار هجرة يخرجون إليها ليجدوا الأمن، كما قيض لهم إخوة من أهل المدينة فآووهم ونصروهم وقاسموهم أموالهم وديارهم، وآثروهم على أنفسهم بكثير من الطيبات وفتح الله لهم أبواب رحمته، فبدل خوفهم أمناً.

أيها الإخوة المؤمنون :-

أحست قريش مبلغ الخطر الذى يهددها من بيعة العقبة الثانية ، فقد بايع الأنصار رسول الله ﷺ على حرب من يحاربونه ، وبايعوا رسول الله ﷺ على أن يكون واحداً منهم يحارب من حاربهم ويسالم من سالمهم، فخاف القرشيون أن يتفاقم أمره ، ويعظم شأنه ، فلما رأوا ذلك حذروا خروج رسول الله ﷺ ، وعرفوا أنه قد جمع لحربهم فاجتمعوا فى دار الندوة وأخذوا يتشاورون فيما بينهم حتى انتهى بهم المطاف إلى أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً ويعطوه سيفاً صارماً فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل وهنا لا يستطيع بنو هاشم محاربة هـذه القبائل ويرضون بالدية فيأخذوها .

ودبر المشركون وياليتهم مادبروا وخططوا وياليتهم ما خططوا ، ونزل الوحى على رسول الله ﷺ وأخبره بما دار فى دار الندوة وأمره ألا يبيت فى فراشه وأذن له فى الهجرة إلى المدينة ، فأمر الرسول ﷺ على بن أبى طالب رضى الله عنه بالنوم فى فراشه وقال له : إتشح ببردى فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه ، وأمره كذلك برد الودائع والأمانات إلى أصحابها .

وبات فتيان قريش على باب رسول الله ﷺ مترصدين متأهبين ، وخرج النبى ﷺ من بينهم ، وقد أعماهم الله عنه وهو يتلو قول الله تعالى «وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » ، ولحق الرسول ﷺ وصاحبه الصديق رضى الله عنه بالغار ومكثا فيه ثلاث ليال حتى تهدأ ثائرة الثائرين ، ولكن القوم لم يهدأوا وأخذوا يبحثون ويفتشون الصحراء شبراً شبراً حتى انتهى بهم المطاف عند الغار ، وهنا عناية الله عز وجل ورعايته تحوط برسوله وتعمى أبصار هؤلاء عنه ،

ويشعر سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالخطر ، الذي يحيط بالرسول صلى الله عليه وسلم فيقول : يارسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يهدىء من روع صاحبه ويطمئنه قائلا له : « لا تحزن إن الله معنا ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما » .

وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى مذكراً المؤمنين بذلك : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا، والله عزيز حكيم[1] » .

أيها الإخوة المؤمنون : —

إن الهجرة لم تكن فراراً ، بل كانت إنتصارا ، لأنها كانت انتقالا بالدعوة إلى آفاق واسعة . وإلى مجال تأمن فيه الدعوة على نفسها ، وليستطيع المؤمنون أن يجدوا تربة طيبة تنمو فيها شجرة التوحيد ، ويبنوا دولة الإيمان ، بعد فترة التمحيص والإختبار التى نجح فيها المهاجرون، وخرجوا منها أقوى عزيمة وأشد صلابة ، واصلب عودا ، وكانوا مع إخوانهم الأنصار جند الحق ، وأعوان الخير ، ودعاة إلى الهدى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن سعد عن عمرو بن حبان الكلبى : « أنا النبى الأمى الصادق الزكى ، والويل لمن كذبنى ، وتولى عنى ، وقاتلنى ، والخير لمن آوانى ، ونصرنى ، وآمن بى ، وصدق قولى ، وجاهد معى » .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

---

(١) التوبة : ٤٠ .

٣ ـ التعاطف والتراحم بين المسلمين

الحمد لله رب العالمين نحمده ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره ونتوب إليه، ونتوكل عليه، ونسأله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة أحمده سبحانه، أرسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم الأخلاق، ويدعو إلى التعاون والتكافل والتعاطف بين المؤمنين، وأجزل سبحانه الثواب لأهل المروءات...

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ولا معبود بحق سواه، وأشهد أن حبيبنا ومعلمنا وهادينا محمدا رسول الله بعثه ربه رحمة للعالمين أدبه ربه فأحسن تأديبه فكان قدوة طيبة لأهل التوحيد الراغبين فى سعادة الدارين، والفوز بالحسنيين، اللهم صل وسلم وبارك على نبينا الأمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: ـ

فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه: ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه[1]».

---

(١) رواه الإمام مسلم.

أيها الاخوة المؤمنون :

هذا الحديث الشريف من جوامع كلمه ﷺ . وقد اشتمل على جملة من الفضائل ومكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب التى تعد من خصال ذوى المروءات ، وصفات المؤمنين الصالحين الذين يعرفون للإخوة فى الدين حقها ، ويقدرون المروءة حق قدرها ، ويستزيدون من الخيرات بفعل الصالحات ، ويرون للضعيف حقاً ومن قوتهم ، وللفقير نصيباً من أموالهم ، وللمغبون حظاً من جاههم وسعيهم .

فنى الحديث الشريف الترغيب فى تنفيس كربات المؤمنين ، والكربة هى الشدة العظيمة التى توقع صاحبها فى الكرب والضيق .

وتنفيس الكربة : أن يخفف عنه منها ، وأن يهون من أثرها على نفسه فإذا فرجها عنه كان جزاؤه أعظم ، لأن تفريج الكربات معناه إزالتها فيزول همه وغمه ، ولذا جاء فى رواية ابن عمر : « ومن فرج عن مسلم فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » لأن الجزاء من جنس العمل .

وفى الترغيب فى تفريج الكروب وإزالة الهموم عن المسلم يقول أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : « أيما مؤمن أطعم مؤمنا على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة ، وأيما مؤمن سقى مؤمناً على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن كسا مؤمناً على عرى كساه الله من خضر الجنة » .

فطوبى لمن وقف إلى جانب أخ له مسلم فى شدته ومحنته يخفف عنه ويمد له يده ، ويحمل عنه بعض همومه ومتاعبه ، لأن ذلك من المروءات التى يجزل فيها الثواب ، وما دام العمل خالصاً لوجه الله فلن يضيع عند الله عز وجل .

وعن أبى مسعود رضى الله عنه قال : «يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط ، وأجوع ما كانوا قط ، وأظمأ ما كانوا قط ، وأنصب ما كانوا قط ، فمن كسا لله كساه الله ، ومن أطعم لله أطعمه الله ، ومن سقى لله سقاه الله ، ومن عفا لله أعفاه الله » .

أيها المؤمنون :

يقول الرسول ﷺ : « ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة » .

وقد وصف الله عز وجل يوم القيامة بقوله : « الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً »[1] .

وقال عز وجل : « فإذا نقر فى الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير »[2] .

فمن يسر على معسر من المؤمنين يسر الله أموره فى الدنيا ويسر عليه شدائد يوم القيامة .

والتيسير على المعسر فى الدنيا من جهة المال يكون بأحد أمرين :

إما بإمهاله حتى يتيسر له المال كما جاء فى قوله : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة »[3] .

وإما بالوضع عنه ، أى التصدق عليه ببعض الدين إذا كان للمتصدق

---

(١) الفرقان : ٢٦
(٢) المدثر : ٨ — ١٠
(٣) البقرة : ٢٨٠

هو المقرض ، أو بإعطائه ما يزول به إعساره ، وكلاهما له فضل عظيم وأجر كبير .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « كان تاجر يداين الناس ، فإذا رأى معسراً قال لصبيانه تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا . فتجاوز الله عنه » .

وفي المسند عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أراد أن تستجاب دعوته أو تكشف كربته فليفرج عن معسر » .

إن التفريج عن المعسر فيه تعاون ، وفيه بر ، وفيه صلة فطوبى لمن جعله الله أهلا للخير ابتغاء مرضاة الله .

أيها المؤمنون :

ومما جاء الترغيب فيه ، والحث عليه : الستر على المؤمنين ، وعدم التحدث عن المساوىء ، أو ذكر العيوب ، أو تتبع عورات البيوت ، ففي الحديث : « ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة » .

وقد جاء الوعيد لمن يسعى لإشاعة السوء عن المسلم وتتبع عوراته التحدث عنها في قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة ، ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته » .

فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، طوبى لمن ينظر إلى نفسه وصلاح بيته ، ويشغل نفسه بما يعنيه ، ويقف عند حدوده ، ولا يعمل على إشاعة السوء في المجتمع ، ولا يسيء إلى مسلم مستور الحال ، ويكف أذاه ويمسك لسانه إلا عن خير .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « ولا تجسسوا ولا تحسسوا » والتجسس البحث عن معايب الناس وأحوالهم للتحدث عنها وهذا من أقبح الخصال ودنىء الأخلاق .

أيها المؤمنون :

ثم حث الرسول صلى الله عليه وسلم على السعى فى قضاء حوائج المسلم

وهذا من التعاون على الخير والبر فيقول :

« والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » .

فمن سعى فى حاجة أخيه المسلم باذلا من وقته أو جاهه أو ماله حتى تقضى له فإن الله عز وجل ييسر له أموره ، ويعينه ويرشده ويسدده ، والرسول صلى الله عليه وسلم وهو قدوتنا فى طريق الخير والبر .

والهدى كان يخلف المسلم فى أهله عند سفره ، فيقضى لهم ما يحتاجون إليه .

تقول بنت خباب بن الأرت : « خرج خباب فى سرية ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يتعاهدنا حتى كان يحلب عنزة لنا فى جفنة لنا فتمتلىء حتى تفيض ، فلما عاد خباب حلبها فعاد حلابها إلى ما كان » وكذا كان يفعل أبو بكر وعمر وغيرهما من أجلاء الصحابة رضى الله عنهم .

عباد الله :

وجاء فى الحديث ما يدل على فضل العلم ومرتبة أهله وفضل السعى إلى طلبه فقال صلى الله عليه وسلم : « ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقا إلى الجنة ... إلخ » .

لأن طالب العلم من أعلى أهل الإيما منزلة إذا هو أخلص فى طلبه وجد فى مدارسته ، ورجا بطلبه وجه الله لمنفعة نفسه ، ومنفعة أهله وأمته .

وأشرف علم يسعى الإنسان إلى طلبه هو ما يعين المسلم على معرفة ربه والعلم بما يليق به سبحانه وتعالى من صفات الكمال ونعوت الجـــلال ، وحقوقه سبحانه وتعالى فى أعناق عباده .

ومن سعى لطلب العلم النافع مع الإخلاص والصدق مهد الله له طريقه إلى جنة الخلد ، حيث النعيم الدائم ، وما أشرف مجالس العلم ، ومجالسة العلماء العاملين المخلصين ، فمجالس العلم تظلها رحمة الله عز وجل ، ويشعر أهلها ببرد الطمأنينة والقناعة ، وتجالسهم الملائكة ، ويباهى بهم السميع العليم أهـــل السماء ، فطوبى للمتنافسين فى طاعة الله ، الراغبين فى عفوه ورحمته .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

٤ — الصيام وتربية النفس

الحمد لله رب العالمين جعل السعادة للصائمين القائمين الخاشعين ، أحمده سبحانه وتعالى وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فتح للطائعين باب رحمته ومغفرته ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا وعظيمنا محمداً رسول الله إمام الصائمين الصابرين المتواضعين ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، الذين صانوا صيامهم عن اللغو والكذب فكانوا هم الفائزين .

أما بعد :

قال الله عز وجل : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى

وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه »[1] .

أيها المسلمون :

الشهر هو شهر رمضان المبارك ، وقيل إنما سمى رمضان لأنه يرمض الذنوب أى يحرقها بالأعمال الصالحة ، من الإرماض وهو الإحراق .

ورمضان شهر رحمة ونعمة فيه تلين القلوب من حرارة الموعظة ، وتتجه النفوس إلى الفكر فى أمر الآخرة والإستعداد لها ، وفيه تخف وطأة الشهوات على النفس المؤمنة ، ويحفظ النادمون من شر الشيطان ونزغه ، ويعظم الرجاء فى عفو الله وجوده وبره وكرمه ، وترفع أكف الضراعة بالليل والنهار لتستقبل الرحمات .

يقول سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : «أتاكم رمضان شهر مبارك ، فرض الله عز وجل عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب السماء ، وتغلق فيه أبواب جهنم ، وتغل فيه مردة الشياطين ، لله فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم » .

فما أعظم رحمة الله على عباده الصالحين فى هذا الشهر الكريم ، وطوبى للتائبين العابدين الشاكرين ، الذين يشملهم فضل الله العظيم فى هذه الأيام والليالى المباركات .

وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه : « إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين » .

فرض الله صيامه على المكلفين فقال آمراً بذلك : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه أى من كان مقيماً عند دخول الشهر من المسلمين البالغين

---

(١) البقرة : ١٨٥

العقلاء الأصحاء وجب في حقه الصوم ، وفي الحديث الذي رواه عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى فرض صيام رمضان عليكم وسننت لكم قيامه فمن صامه وقامه إيماناً واحتساباً خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

أيها المسلمون ،

الصوم في الشرع هو الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وتمامه وكماله باجتناب المحظورات وعدم الوقوع في المحرمات لقوله ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه من أجله » .

فليس الغاية من الصوم هو الإمساك عن الطعام والشراب ونحوها من المفطرات ، بل المراد أن يكون الصائم مراقباً ربه ، متقياً غضبه ، راجياً رحمته وعفوه ، فلا يشهد زوراً ، ولا يكذب ، ولا يشتم أحداً ، ولا يتكلم إلا بخير .

وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الصيام جنة ، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إني صائم » فعلى المسلم إذا أراد أن يجني أعظم الثمرات في هذا الشهر المبارك ويخرج منه بغنيمة هي أعظم من الدنيا وما فيها من متاع وزينة ، عليه أن يداوم على طاعة الله ، وأن يجتنب كل ما يغضب الله تعالى وأن يغض بصره عن الحرام ، وأن يلهج لسانه بذكر الله وشكره ، وأن يكثر من تلاوة القرآن الكريم وسماعه وتدبر آياته ومعانيه ، وأن يغشى مجالس العلم ، وأن يجالس الأتقياء الحلماء ، ويبتعد عن أهل اللهو والفسق ليله ونهاره .

وعلى المسلم في شهر الصوم المبارك أن يبر أهله ، وأن يصل رحمه ،

وأن يصافى من عاداه من المؤمنين ، وأن يصافح من خاصمه ، وأن يتحبب إلى أهل الفقر والمسكنة بمواساتهم وإظهار المودة لهم ، وتقديم العون لهم ، وبذل ما يقدر عليه فى سبيل الله .

أحباب رسول الله :

طوبى للمؤمن إذا حرص على أداء الصلوات فى أوقاتها ، وشهد الجمعة والجماعات ، ولم تفته ليلة دون أن يقدم خيراً لنفسه من صلاة وصدقة وذكر ، فالعمل الصالح فى هذا الشهر العظيم يضاعف ثوابه ، يقول النبى ﷺ : « جعل الله صيامه فريضة ، وقيام ليله تطوعاً ، من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه فطوبى لمن كسا عارياً ، وفطر صائماً ، وسعى بالخير والبر ، وجعل عمله له خالصاً ، وطوبى لمن يحافظ على فضائل الصوم وآدابه ليحظى بما أعدالله عز وجل للصائمين من الثواب والمنزلة ، يقول عليه الصلاة والسلام مخبراً عن رب العزة سبحانه وتعالى . قال تعالى فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » .

وإنما خص الصوم بأنه له وإن كانت العبادات كلها له ، لأمرين :

أحدهما : أن الصوم يمنع من ملاذ النفس وشهواتها ما لا يمنع منه سائر العبادات .

الثانى : أن الصوم سر بين العبد وبين ربه ، لا يظهر إلا له ، فلذلك صار الصوم مختصا به وما سواه من العبادات ظاهر ربما فعله العبد تصنعا ورياء .

أيها المؤمنون :

إن هذا الشهر المبارك عظيم الخير ، والموفق هو الذى يحرص على الإستزادة من فضل الله فيه ، ولهذا ينبه النبى ﷺ المؤمنين إلى ذلك فيقول : « لو علمت أمتى ما فى رمضان من الخير لتمنت أن يكون رمضان السنة كلها » :

وإن أفدح الخسارة أن يفطر المسلم يوماً من رمضان عامداً بلا عذر ، وفى هذا يقول المصطفى ﷺ: «من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يعوضه صوم الدهر كله» .

فعلى المسلم أن يتقى الله عز وجل فى صيامه ، فإن العبادة أمانة ، والله رقيب على عباده وحاسبهم ومجازيهم .

وليحذر المؤمن أن يكون ممن قال فيهم الرسول ﷺ: «كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش»، وهؤلاء هم الذين لا يراقبون الله تعالى، ولا يتورعون عما حرم الله، ولا يحفظون ألسنتهم ، بل يطلقونها بفاحش القول وسيء الكلام .

فطوبى لمن صام رمضان إيمانا واحتسابا وأمسك لسانه عن لغو الكلام وباطله ، وحافظ على الصلوات فى أوقاتها ، وأقبل على ذكر الله وشكره .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ؟

٥ — سبب الشقاء مخالفة الدين[1]

الحمد لله رب العالمين كتب العزة والكرامة لمن أطاعه ، وقضى بالذلة والهوان على من عصاه ، وهو العزيز الحكيم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أنعم علينا بالكتاب المبين والرسول الصادق الأمين، فهذب بالكتاب أخلاقنا ، وأصلح به أعمالنا ، وهدانا إلى وسائل الرقى والسعادة فى هذه الحياة الدنيا، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله المبعوث

---

(١) هذه الخطبة مأخوذة من كتاب هداية المرشدين للشيخ على محفوظ .

رحمة للعالمين ، والداعي إلى الصراط المستقيم ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تأدبوا بآداب الدين . ووقفوا عند حدوده، فخضعت لهم رقاب الجبابرة، وأسقطوا عروش الأكاسرة وكانوا هم السادة الفائزين المنصورين .

أما بعد : —

فقد قال الله عز وجل : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

أيها المؤمنون : —

لقد كانت الأمة الإسلامية فيما مضى متمسكة بكتاب الله تعالى ، عاملة بسنة نبيها ﷺ ، صحيحة في عقائدها ، صالحة في أعمالها ، حسنة في معاملاتها وعاداتها ، كريمة في أخلاقها ، بصيرة في دينها ودنياها ، راقية في آدابها وعلومها ، فكانت عزيزة الجانب ، قوية الشوكة ، جليلة مهيبة ، صاحبة السلطان والصولة على من عداها » .

واليوم تغير أمرها ، وتبدل حالها ، اختلت عقائدها ، فسدت أعمالها ، ساءت معاملاتها وعاداتها ، تدهورت أخلاقها ، جهلت أمر دينها ودنياها ، تأخرت في علومها وصنائعها ، فصارت ذليلة الجانب ، ضعيفة الشوكة ، ساقطة الكرامة ، فاقدة الهيبة مغلوبة على أمرها ، متأخرة في مرافق حياتها ، تتخبط في ظلمات الجهل ، وتنقاد للخرافات والأوهام ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

والسبب في ذلك كله ، أنها خالفت كتاب ربها ، وانحرفت عن طريق الهادي نبيها ﷺ ، وسارت وراء هواها ، وفتنت بزخارف الحياة

المزيفة ، والمدنية الكاذبة ، وظنت الإباحية حرية والخلاعة رقياً ، فتعدت حدود الدين والعقل ، وأغضبت خالق الأرض والسماء ، فساءت حالها، وسلط عليها عدوها ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .

أيها المؤمنون : —

لقد ذاقت الأمة وبال أمرها ، وعوقبت بشر أعمالها ، وتجرعت مرارة الذلة والهوان ، والتفرق والإنحلال ، كل ذلك نتيجة لازمة لعدم استقامتها وانحرافها عن الصراط المستقيم «صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور » .

كل ذلك نازل بها وواقع عليها وهى لا تفيق من سكرتها ، ولا تتنبه من غفلتها ، ولا تنزجر بالمحن والبلايا ، ولا تعتبر بحوادث الأيام ، لو كان لها نفس حية، وقلب يقظ، لو كان لها شعور حى وإحساس قوى ، لنبهتها البلايا ، وأيقظتها المؤلمات.

عباد الله : —

الدين عقيدة صحيحة ، وعبادات قويمة ، ومعاملات حسنة ، عادلة ، وأخلاق كريمة ، هل ما نحن عليه اليوم من سوء المعاملة وتهتك النساء وفساد الأخلاق من تعاليم الدين ؟ هل من الدين أن يكون المرء كاذباً محتالا ، أو مرائياً ختالا ، أو مداهنا منافقاً ؟

هل من الدين أن يكون المرء نماماً أو مغتاباً أو لعاناً أو سباباً ، أو غاشاً أو خائناً ؟ .

هل من الدين أن يكون المرء ناقضاً للعهد، مخلفاً للوعد، متكبراً جباراً عنيداً ، ظالما فى حقوق الناس ؟

هل من الدين أن يكون المرء مهملا لأولاده ، عاقاً لوالديه ، قاطعاً للرحم ، مسيئاً لزوجه ، مؤذياً لجيرانه ؟ .

هل من الدين أن يكون المرء قاسى القلب: لا يرحم مسكيناً ، ولا يكرم يتيما ، ولا يعطف على ذى عاهة أو أرملة ؟ كلا . أين هذا من قول الله عز وجل : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ... » وأين هذا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

أيها المسلمون : —

ما هذا الفساد فى أمة شعارها الإسلام، وأساس دينها القرآن ، ما هذا التدهور الخلقى فى أمة رسولها سيد ولد عدنان هل تحكمت الشهوات فى النفوس فأفسدتها ؟ أم تسلطت الأهواء على العقول فنبذت الفضيلة واعتنقت الرذيلة ؟ « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » .

أرأيتم أن دينكم لا ينهض بكم إلى مراتب الرقى والسعادة فاتبعتم دينا غيره ينهض بكم ويسعدكم ؟ .

كلا والله ، لا رقى إلا به ، ولا سعادة إلا به ، ولا فلاح إلا به ، ولا خلاص للناس من مخاطر الشقاء فى الدنيا والآخرة إلا به ، « ومن يبتغ غير الإسلام دينــا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم: « اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً » .

عباد الله : —

لا خلاص للأمة من هذا الشقاء، ولا نجاة البلايا إلا بإصلاح القلوب واستقامة الأعمال، وذلك بالرجوع إلى العمل بأوامر الدين ، وإحياء سنة سيد الأنبيا. والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قال صلى الله عليه وسلم: « لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى ، كتاب الله وسنة رسوله » .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ؟ .

٦ — منزلة العمل فى الإسلام

الحمد لله رب العالمين، رفع قدر العاملين ، وأجزل الثواب للمخلصين، أحمده سبحانه وتعالى وأستعينه وأستهديه وأتوكل عليه من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له خلق الكون للإنسان وسخره ، ويسر له السبل ليعمره ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا وعظيمنا محمداً رسول الله، قدوة العاملين المجاهدين، والداعى إلى الصراط المستقيم ، حذر أمته من العجز والكسل ، ونفخ فيهم روح الجد والعمل اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، الذين استمعوا قوله ، واتبعوا أمره ، فكانت لهم العزة والمجد والسلطان .

أما بعد :

فقد قال الله عز وجل : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »[1].

---

(١) التوبة (١٠٥) .

أيها المسلمون :

لم يعرف التاريخ دينا اجتماعيا كدين الإسلام ، لقد وفق بين مطالب الروح والجسد بحكمة ، وجمع بين خيرى الدنيا والآخرة بدقة ، ونفخ فى الناس روح العمل والإقدام ، وحبب إليهم الجهاد والكفاح، لتتحقق خلافتهم فى الأرض ، ويكونوا بذلك خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

لقد فهم المسلمون الأوائل دينهم هذا الفهم الصحيح ، فاندفعوا إلى كل ميدان مجاهدين ، لم يتركوا بابا إلا طرقوه ، ولا سبيلا إلا سلكوه، حتى السمت رقعتهم ، وارتفعت رايتهم ، فى زمن كان قمة الإعجاز فى تاريخ البشرية .

ولكن جاء من بعدهم قوم بعدت صلتهم بمنابع الدين الصافية. وانتشرت بينهم الدعايات المغرضة ، وشاعت فى أوساطهم الآراء الباطلة، فاحتقروا السعى والعمل ، ورضوا بالخمول والكسل مدعين أن هذا هو عنوان الزهد فى الحياة ، الذى دعاهم إليه الإسلام ، وتركوا كنوز الأرض يستغلها قوم فهموا حكمة الوجود ، وأدركوا أسباب العظمة والخلود ، فسخروا قوى الموجودات . واكتشفوا بعلمهم المجهولات وملكوا بخبرتهم الزمام ، واستأثروا بالثروات وصار لهم السلطان فى هذه الأيام

عباد الله :

إن الإسلام هو دين العمل ، رفع قيمته، وأعلى منزلته، وقد حث الله عز وجل المسلمين عليه فقال: «هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور »[1] وقال تعالى : «وجعلنا لكم

---

(١) الملك : ١٥

فيها معايش ومن لستم له برازقين»[1] .

ورسولنا ﷺ يبين قيمة العمل ويحث عليه المسلمين .

يروى المقداد بن معد يكرب الكندى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» رواه البخارى هذا ويشمل العمل فى الإسلام أنواعا كثيرة حث عليها القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ .

منها العمل الزراعى: وفيه يقول الله عز وجل: «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون»[2].

وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»  البخارى ومسلم .

ومنها العمل التجارى ، وفيه يقول عز وجل: «وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق»[3].

وقد حض الإسلام كل من يشتغل بالتجارة أن يتحرى الصدق والأمانة وبين أنه إن صدق كانت له عند الله تعالى منزلة عظيمة ، قال عليه الصلاة والسلام: «التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء» ، الترمذى .

---

(١) الحجر : ٢٠ (٢) يس : ٣٣—٣٥

(٣) الفرقان : ٢٠

ومنها العمل الصناعى : وفيه يقول تبارك وتعالى : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا »[١] .

وقال ﷺ : «إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب فى صنعته الخير ، والرامى به ، ومنبله» أبو داود .

أيها المؤمنون :

وكما وجه الإسلام المسلم إلى الانتفاع بخيرات الأرض ، وجهه كذلك إلى الانتفاع بخيرات البحر ، فقال تعالى: «وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون»[٢].

وكذلك وجه الإسلام الإنسان إلى الانتفاع بالثروة الحيوانية عامة فقال جل فى علاه : «والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون»[٣].

وهكذا نرى أن الإسلام يحث المسلمين على العمل فى شتى جوانب الحياة سواء كانت زراعية أو تجارية ، أو صناعية أو سمكية أو حيوانية وقد اشترط الإسلام فى العمل الذى يقوم به الإنسان أن يكون عملا متقنا لقول الرسول ﷺ : «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»

والعمل المتقن هو القائم على أساس علمى ، وتخطيط مدروس .

---

(١) هود : ٣٧ (٢) النحل : ١٤
(٣) النحل : ٥—٨

يبذل فيه أفراد المجتمع غاية ما فى وسعهم نهوضا بالأمـة وتقدما بالمجتمع .

هذا وقد رفع الإسلام من قيمة العمل مهما كان نوعه، حتى لا يتخاذل الناس فى ميدان الحياة ، أو يتحرج بعض أصحاب الأعمال البسيطة فبين أن العمل خير للإنسان، من أن يسأل الناس، لأن ترك العمل يؤدى إلى الفاقة ، وهى بدورها تسلم الإنسان إلى ذل المسألة فبين رسول الله ﷺ أن العمل مهما كان نوعه فهو خير من أن يسأل الرجل النـاس فقال عليه الصلاة والسلام : «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة حطب فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل النـاس أعطوه أو منعوه»

أيها المسلم :

تقدم إلى وطنك بعمل يرفع شأنه ولو كان قليلا ، فإن القليل إلى القليل كثير ، لا تحتقر عملا فى نظرك، فربما كانت فيه حياة وطنك أرض الله واسعة تنتظر من يحييها ويعمرها ، وميادين الجهـاد فسيحة تنادى الكـفايات لتكافح فيها .

وفى الجبال والصحراء كنوز لا تستعصى على من يستخرجها ، فالله سبحانه قبل أن يخلق آدم ويستخلفه فى الأرض بارك فيها وقدر فيهـا أقواتها ، وأودع فى خزائنها كل ما يكفيه ويكفى ذريته إلى أن تقوم السـاعة ، فمن يشكو فقراً فليس مرده نفاذ خزائن الله، فالله أجل وأكرم من أن يخلق عبده ويسلمه إلى العناء والشقاء ، ولـكن مرد الشكوى هو الجهل بمواطن الرزق أو التكاسل عن السعى إليـه ، والعلم يفتح الأبواب وينير الطرق إليها .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

٧ — الإستقامة وأثرها فى صلاح الفرد والمجتمع

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أمر عباده أن يلتزموا دينه ويستقيموا على هداه فقال عز وجل : « فاستقيموا إليه واستغفروه » .

وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا وعظيمنا محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة والنعمة المسداة والسراج المنير ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، ومن دعا بدعوته ، واهتدى بهديه وسار على سنته إلى يوم الدين .

وبعـــد :

فقد قال الله عز وجل : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون »[1] .

أيها المسلمون :

إن الإسلام أولى الإستقامة إهتماماً خاصاً ، ودعا إليها بأسلوب شيق يحتوى الأنفس ويؤثر فى أعماقها بما وعد الله عز وجل المستقيمين من الأجر العظيم والثواب الكبير فى الدنيا والآخرة .

---

(١) فصلت ٣٠

لأن الإستقامة فى الإسلام منهج متكامل جمع بين العقيدة والشريعة والدين والدنيا ، إنها تعنى القيادة الظافرة والمسيرة الحازمة .

إن الإستقامة فى الإسلام تعنى الإيمان الكامل بالله وحده، والإذعان التام لمشيئته ، والخضوع لجلاله ، والإحتكام فى كل صغيرة وكبيرة إلى دينه ، والتطبيق لشريعته ، وصوغ الحياة العامة والخاصة وفق ما يأمر به وينهى عنه ، وسرعة التخلص من كل مالا يتفق مع دين الله تعالى من عقيدة وفكر ومن خلق وسلوك، فى جميع المجالات وسائر الشئون لأن الإسلام دين يصلح به الزمان والمكان ، والبشر جميعا ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

عباد الله :

إن الأمة إذا أخذت نفسها بهذا ومضت عليه كان الله لها فى دنياها وفى آخرتها بأمنه وولايته وطمأنينته وسكينته ، ورضوانه وجنته وصدق الله العظيم إذ يقول : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم إستقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون »[1] .

فإن الله عز وجل قد وعدهم على توحيدهم له ومعرفتهم بجلاله واستقامتهم على الطريقة المرضية ، الأمن من كل المخاوف والسلامة من جميع المكاره، فى الدنيا ، وضمن لهم النعيم الدائم فى الآخرة ، وذلك لأنهم جمعوا بين توحيد الله تعالى وهو خلاصة العلم ورأس العلوم ورئيسها، وبين الاستقامة على أمور الدين كلها من صحيح العقائد وخالص العبادات وحسن المعاملات ومكارم الأخلاق ، لهذا كان لا خوف عليهم من لحوق مكروه ولا هم

---

(١) الأحقاف ١٣ ، ١٤

يحزنون لفوات مطلوب وضياع محبوب هذا ما لهم فى الدنيا أما مالهم فى الآخرة فأغلى وأعلى ، أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ، أى لهم من صنوف البر وأنواع الحسنات العلمية والعملية والمآثر النافعة لهم ولأمتهم .

أيها المسلمون :

أن الإستقامة على دين الله ومنهجه ضرورة لازمة ما تمسكت بها الأمة وحرصت عليها فى كل موقع ومع كل عمل إلا كان فى ذلك مجدها وشرفها وسعادتها وذكرها فى الدنيا والآخرة قال تعالى : « فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم ، وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون »(1) .

وقال عز وجل : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير »(2) .

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « فاستقم كما أمرت » ما نزل على رسول الله ﷺ فى جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية . ولذا قال ﷺ لأصحابه حين قالوا له : قد أسرع إليك الشيب يا رسول الله : « شيبتنى هود وأخواتها » ، وهى الواقعة والحاقة وسأل سائل وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت والقارعة .

قال العلماء : ولعل ذلك لما فيهن من التخويف العظيم والوعيد الشديد ، وبيان أحوال الهالكين والمعذبين مع ما إشتملت عليه هود من الأمر بالاستقامة كما أمره مولاه ، لأن قوله تعالى : « كما أمرت » يدل على أن

---

(1) الزخرف ٤٣ ، ٤٤ (2) هود ١٢

الاستقامة تكون بحسب المعرفة فمن كملت معرفته بمولاه عظم عنده أمره ونهيه فإذا سمع « كما أمرت » علم أنه مطالب باستقامة تليق بمعرفته بعظمة سيده وجلال مولاه.

عباد الله :

جاء في صحيح الإمام مسلم رحمه الله عن أبي عمرو سفيان بن عبد الله رضي الله عنه ، قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك ، قال : « قل آمنت بالله ثم استقم ».

فقد سأله رضي الله عنه أن يبين له في دين الإسلام وشريعته قولا جامعاً لأموره يكفيه بحيث لا يحتاج إلى أن يسأل عنه أحداً بعد رسول الله ﷺ لكونه واضحاً في نفسه مبينا لغيره ، فأجابه ﷺ بالإقرار بالتوحيد لله تعالى ومعرفته بربه أولاً ، ثم الإستقامة على طريقة الدين أوامره ونواهيه ، عقائده وعباداته معاملاته وآدابه ، وهذا من بديع جوامع الكلم التي اختص بها ﷺ فإنه جمع للسائل في هاتين الجملتين جميع معاني الإسلام لأنه إجمالا أمور أربعة : عقائد ، وعبادات ، ومعاملات ، أخلاق كريمة.

فالعقائد مستفادة من الجملة الأولى وما عداها من الطاعات والمعاملات والأخلاق الحسنة فهو في ضمن الجملة الثانية، إذ الإستقامة إمتثال كل مأمور واجتناب كل منهي.

أيها المسلمون :

إن الإستقامة من أشرف الفضائل ، وأسمى الخلائق ، إذ هي التي توقف صاحبها دون حدود الله عز وجل فلا يتعداها ، وتنهض به إلى الفرائض فلا يقصر في أدائها ، أو يفرط في جزء من أجزائها ، وهي التي تعلمه العفة فيكتفي بما أحل الله له عما حرم عليه.

وأصل الإستقامة : إستقامة القلب على التوحيد ، توحيد الله عز وجل ، فتى إستقام القلب على معرفة الله جلت قدرته وعلى خشيته ، وإجلاله ومهابته ومحبته وإرادته ورجائه ودعائه والتوكل عليه والإعراض عما سواه إستقامت الجوارح كلها على طاعة الله جل وعلا ، لأن القلب هو ملك الأعضاء وهى جنوده ، فإذا إستقام الملك إستقامت جنوده ورعاياه ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[1] .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

٨ — خلق الحياء

الحمد لله رب العالمين خلق الإنسان فأحسن خلقه، وهداه إلى الصراط المستقيم ، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له جمل الإنسان بالحياء ، وزانه بالخلق العظيم ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا وعظيمنا محمداً رسول الله ، أدبه ربه فأحسن تأديبه، وأثنى عليه فى قوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

أما بعد : —

فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن لكل دين خلقاً وخلق الإسلام الحياء »[1].

أيها المؤمنون : —

جاء الإسلام بعقائدة وخصال ، وهى أركان لبناء الأمة ، وأسس لسعادتها وعماد محكم لبناء مدنيتها الطاهرة الصحيحة ، وفى كل فضيلة وفى كل خصلة من الخصال التى جاءنا بها هذا الدين الحنيف ، باعث للأمة على استكمال مقومات حياتها الراقية ، ومحرك للهمم إلى إسعادها .

ومن الخصال الجليلة التى حث عليها الإسلام خلة الحياء . وهو تأثر النفس ، وانفعالها من كل ما يعيبه الدين أو لا يرضى عنه ذوق المؤمنين الصادقين ، الذين يخشون الله ويرجون رحمته .

« والحياء لا يأتى إلا بخير » ، لأن من كان الحياء له زينة فإنه يرتدع عن القبيح ، ويمتنع عن مجاوزة الحدود التى رسمها له الدين ، ويعود دائماً إلى الحق والعدل والإنصاف ، فكأن الحيـــاء لصاحبه رقيب على أفعاله ، وحاجز يرده عن الآثام ، يرده عن الفسوق والعصيان .

لذا كان الحياء من أجل الأخلاق التى يمنحها الله عبده ويجبله عليها .

فصاحب الحياء يتحلى بالفضائل ، ويتخلى عن الرذائل ، صاحب الحياء لا يجور ولا يفسق ، ولا يؤذى أحداً بيد أو لسان ، يخجل ويستحى من إغضاب الله عز وجل ، ولا يرتكب ما يغضب الرحمن .

---

(١) رواه الإمام مالك فى الموطأ .

عباد الله : —

قال الماوردى : الحياء فى الإنسان ثلاثة . أحدها : حياؤه من الله تعالى الثانى : حياؤه من الناس ، الثالث : حياؤه من نفسه .

— فأما حياء الإنسان من الله تعالى فيكون بامتثال أوامره ، والكف عن زواجره ، وهذا يكون من صحة الدين ، وقوة اليقين .

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « استحيوا من الله عز وجل حق الحياء . قلنا : إنا لنستحى من الله والحمد لله . قال : ليس كذلك ، ولكن الإستحياء من الله حق الحياء : أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا وآثر الآخرة على الأولى فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء[1] .

فصاحب الحياء يكون دائما على خشية من الله عز وجل ، فهو يؤمن بالحق ويتبعه ، وينكر الباطل وينبذه ، ويأنف من تعاطى المنكرات ، ويغار على الحقوق ، ويصون الحرمات .

والإنسان الصدوق حيى ، والعفيف حيى ، فالحياء كله خير ، ثمراته الطيبة تعود على الفرد وعلى الجماعة بكل خير .

وأما حياء الإنسان من الناس ، فيكون بكف أذاه عنهم ، ورعاية حقوقهم كما يكون بترك المجاهرة بالقبيح ، فالمرء إذا كملت مروءته إستحيا من الناس ، وحسنت سيرته فى المجتمع ، ووثق به المحيطون به وأحبوه .

---

(١) رواه الترمذى فى سننه

وقد أكد الحبيب المصطفى ﷺ ، قبح صنيع من يجاهر بالمعصية ، ويظهر على الملأ عدم المبالاة ، بقول أو فعل مما لا يرضى الله عز وجل فقال ﷺ في تقبيح ذلك : كل أمتي معافى إلا المجاهرين ، إن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا ، ثم يصبح وقد ستره الله فيقول : يافلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه و يصبح يكشف ستر الله عليه ».

وأما حياء الإنسان من نفسه فيكون بالعفة والطهارة ، وصيانة الخلوات وهذا قد يكون من فضيلة النفس ، وحسن الغريزة ، والشعور الدائم بأن الله عز وجل يعلم سر العبد ، وعلانيته ، ولا يخفى عليه سبحانه خافية فالحياء لا يأتي إلا بخير ، يصون الإنسان من كل شر ، ومتى كمل حياء الإنسان من وجوهه الثلاثة ، أي حياؤه من الله تعالى ، وحياؤه من الناس ، وحياؤه من نفسه ، فقد كملت فيه أسباب الخير ، وانتفت عنه أسباب الشر ، وصار بالفضل مشهوراً وبالجميل مذكوراً .

أيها المسلمون :

إن الحياء للإنسان بمثابة الماء للزرع ، كما أن الزرع إذا نال حاجته من الماء نما وصارت له نضارة وبهاء ، فكذلك المؤمن الحيي ترى في وجهه بهاء الخير ، وسمات الصلاح ، وتلمح في أفعاله ما يدل على نماء الإيمان وقوة اليقين في قلبه ، ولذا كان المؤمن الحيي من أهل النعيم الأخروي أما أهل الجرأة على القبيح الذين لا يجدون من الحياء ما يزجرهم عن ارتكاب المحظور . فإنهم أهل البذاء وهؤلاء يقول فيهم الهادي البشير ﷺ «الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء في النار ».

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ما كان الفحش

فى شىء إلا شانه، وما كان الحياء فى شىء إلا زانه، وإذا كان الحياء خلق الإسلام فما أجمل أن نتخلق به وأن يكون لنا منه الزاد، الذى نواجه به الأعاصير، التى تكاد تعصف بكل القيم والمبادىء، وأن يكون شعارنا فى دنيا الناس التى تموج بالفتن والحافز القوى على رفع لواء الحق، والبعد عن السير فى ركب الباطل والإنحراف مع الهوى، ما أجمل أن يكون لنا من الحياء السياج، الذى يحفظ على المسلم نور الإيمان، ويلبسه ثوب التقى والطهر والعفاف ويكون به بين الناس مبعث نور، ومصدر بر، ومنار هدى تتميز به شخصيته، وتظهر من خلاله ملامح عزته واستقلاله وكرامته.

قال صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الايمان» رواه البخارى.

إننا بالايمان والاسلام لنا شخصيتنا المتميزة، ومقوماتها الحية القوية، وتقاليدنا العريقة الطاهرة، ومن الحياء ألا نتخلى عن هذه الأمجاد حتى نتعرف فى الوجود مكانتنا الصحيح، ويعرف الناس لنا حقنا فاتقوا الله عباد الله، واذكروا أن الإيمان قرين الحياء، وأن من لا حياء فيه لا خير فيه، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون.

قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»

أقول قولى هذا واستغفر الله لى لكم.

٩ — الخمر أم الكبائر

الحمد لله رب العالمين أنعم على عباده بنعمة العقل والإدراك ، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له أمر بحفظ العقول ، والأبدان ، والأموال وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا وعظيمنا محمداً رسول الله ، حذرنا طريق الضلال والفساد ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الأطهار ، الذين اتبعوا طريقه وساروا على هديه إلى يوم الدين

أما بعد : —

فقد قال الله تعالى : « ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين »

أيها الأخوة المؤمنون : —

الإنسان فى الدنيا سلاحه عقل سليم ، وصحة قوية ، ومال يغنيه ، وكرامة وشرف يعليه ، والدين حارس على أتباعه ، حريص على سعادتهم حرم عليهم مايضر بعقولهم وأبدانهم ، ويذهب أموالهم ويشرفهم ، ولكن الشيطان يغرى الناس بالمحرم الممنوع ، والنفس تتشوق البعيد ، ولو كان فيه هلاكها ودمارها فى الدنيا ، عذابها وسعيرها فى الآخرة ، حرم الله شرب الخمر لإفسادها العقول ، وضياع الأموال وتهدم الأبدان ، وفقدان الكرامة ، وتدهور الأخلاق ، فمدمن الخمر مآله الخبل والجنون ، والفقر والحاجة ، والضعف والعلل ، وكم من رجل مجد نافع أرسلته الخمر

لمستشفى المجانين ، وكم من بيوت أغلقت ، وعائلات تعذبت ولتشردت ، لأن كبيرها عاقر الخمر . وترك أهله فى حاجة للخبز المجرد ، والقوت الضرورى ، وكم من رجال أشداء أقوياء هدمتهم الخمر وطحنتهم ، فصاروا مجمعاً للعلل ، وكشكولا للأسقام ، وكم من رجل فاضل صيرته الخمر سفيهاً بذيئاً ، لا يستحى من أقبح الأقوال .

إن الإسلام حرم الخمر ليمنع التباغض والتقاتل بين الناس ، فإن السكير يسب ويلعن ويؤذى ويضرب ويعتدى على عفاف النساء ، فيزنى ويفسق ، وإن لزم الأمر يسرق وينهب ، ويقتل النفس التى حرم الله قتلها ، فتكون الجرائم والمصائب والنزاع والعداوة حرم الدين الخمر ، لأنها تصد عن ذكر الله تعالى وتصد عن الصلاة وهى عمود الدين وعلامة الإيمان : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون »

عباد الله : —

قال رسول الله ﷺ : « الخمر أم الخبائث » .

ويقول السكارى إن الخمر تذهب الهموم والأحزان ، وتجلب المسرة والفرح ، وفاتهم أنه فرح مزيف مغشوش ، ومسرور كاذب يعقبه هبوط وحسرة ، وركود وذلة ، وهل خلق الإنسان ليفر من الهموم ، فيقع فى محرم يضاعف همه ، ويزيد غمه .

ويقولون إنها تقوى الجسم ، وتفيد الصحة ، تحدث فى الوجه نضرة واحمراراً ، وفاتهم أن المخمر رد فعل يصحبه اصفرار وهزال ، وقىء

وكسل، وفاتهم أن الطب الحديث أثبت أن الخمر سبب لالتهاب الكبد، والكلى، والشلل، والصرع، والجنون، وضعف النسل.

دخلت الخمر البيوت فانصرف الفلاح والمزارع عن الري والحرث يقولون ليس في الدين ذكر الكونياك والويسكي والشمبانيا، وديننا يضع الأصول لتشمل الفروع، يضع القواعد العامة، ويحرم الشيء لعلة الضرر، والرسول ﷺ يقول: «كل مسكر خمر وكل خمر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا ومات وهو يدمنها لم يشربها في الآخرة».

أيها المسلمون:

إن الدين الإسلامي لم يدع سبيلا إلى الخير إلا أرشد إليه، ولم يترك طريقاً إلى الشر إلا حذر منه قال رسول الله ﷺ: «ما تركت شيئا يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به، ولا شيئا يبعدكم عن الله تعالى إلا وقد نهيتكم عنه»، وبذلك قد وضح الأمر، وتبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال.

إن الأمة هي جماعة تتكون من الأفراد، فإذا تكونت أمة من الأقوياء الأصحاء، سليمي العقول، مهذبي الأخلاق، كانوا خيراً لأنفسهم، وسعادة لأمتهم، كانوا أساس عزها ومجدها، وأركان رقيها ونهوضها، أما إذا تكونت أمة من أمثال السفهاء المرضى، ضعاف العقول، فاسدي الأخــلاق، كانوا شراً على أنفسهم، وشقاء على أمتهم، كـانوا سبب ذلها ومهانتها وعلة تأخرها وانحطاطها، وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير، لقد تمكنت الخمر من نفوس العرب قبل الإسلام، لا يخلو منها بيت، ولا يتركها إنسان، فكان من حصافة الإسلام أن تدرج في تحريمها

وترقى فى منعها فنزل أولا قول الله عز وجل : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما [1] » فتركها قوم لاثمها الكبير ، وشربها آخرون لنفعها الحقير ، ولما صلى بعضهم وهو سكران فهذى وخلط نزل قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون [2] » .

ولما قل شربها ، وأعرض الكثير عنها ، وتمشى الإيمان فى القلوب ينيرها ويهديها . قال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه اللهم أنزل لنا فى الخمر بياناً شافياً ، فنزل التحريم القاطع بقول الله جل فى علاه : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب . والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون [3] » .

ثم أقيم الحد على كل شارب فانعدم شربها أو كاد ، حتى إذا أهملت الحدود الشرعية وضعف وازع الدين ، واختلط المسلمون بغيرهم ، يقلدونهم فى السوء والمنكر ، ويتشبهون بهم فى الشر صارت الخمر تشرب بلا حياء وخجل ولا خوف من الله تعالى .

---

(١) البقرة : ٢١٩ .

(٢) النساء : ٤٣ .

(٣) المائدة : ٩٠ ، ٩١ .

عباد الله : —

كل ما يقول الأطباء عن المنافع في الخمر وشربها كان عند شهادة القرآن أن فيها منافع الناس أما بعد نزول آية المائدة ، فإن الله تعالى الخالق لكل شيء سلبها المنافع جملة ، فليس فيها شيء من المنافع ، وبهذا تسقط مسألة التداوي بالخمر .

فعن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم [1] .

وعن وائل الحضرمي أن طارق بن سويد رضي الله عنه ، سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الخمر يصنعها للدواء ، فقال : « إنها ليست دواء ، ولكنها داء [2] » .

فاتقوا الله في دينكم ، وعقولكم ، وأموالكم ، وأعراضكم ، فطهروا من الدمار والأذى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن على الله عهداً لمن يشرب المسكر أن يسقيه الله من طينة الخبال ، قيل يا رسول الله وما طينة الخبال . قال صلى الله عليه وسلم عرق أهل النار [3] » .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

---

(٢) أخرجه البيهقي في السنن وصححه ابن حبان .
(٢) أخرجه مسلم وأبو داود .
(٣) صحيح الإمام مسلم .

١٠ - الإسلام وبر الوالدين

الحمد لله رب العالمين أنزل الناس منازلهم في الرعاية والإحترام ، وجعل حقوق الوالدين في أعلى مقام ، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له جعل طاعة الوالدين سبباً في حبه ورضاه ، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وعظيمنا محمداً رسول الله خير من حفظ الحق لأصحابه ورعاه ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين .

أما بعد : —

فقد قال الله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً[1] » .

أيها الإخوة المسلمون : —

إن البر بالوالدين لمن أوجب الحقوق وأقدس الواجبات ، وطاعتهما من أفضل الطاعات ، لهذا قرن الله حقهما بحقه ، وشكرهما بشكره ، فقال عز وجل : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير » .

فمن حقهما عليك أن تكرمهما ، وتحسن إليهما ، وتبذل نفسك ومالك

---

(١) الإسراء : ٢٣ ، ٢٤ .

فى سبيل سعادتهما ومصلحتهما ، وتسعى جهدك فى كسب رضاهما ، وإن بلغا عندك الكبر فلاطفهما ، واحتمل أذاهما ، ولا تضجر من حوائجهما ، وأحسن إليهما فى حال الضعف والكبر ، كما أحسنا إليك فى حال العجز والصغر ، وكن بهما رءوفاً رحيماً ، وعليهما عطوفاً رحيماً ، واعلم أنك مهما فعلت فى بر الوالدين والإحسان إليهما ، فلست قائماً بواجبهما ولا موفياً حقوقهما ، فسل الله تعالى أن يكافئهما عنك بواسع رحمته وجزيل رضوانه .

فاتقوا الله أيها الأبناء واحرصوا على رضا الوالدين ، فإن رضا الوالدين سعادة فى العاجل والآجل ، واحذروا غضب الوالدين ، فإن غضب الوالدين شقاء فى الدنيا ووبال فى الآخرة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رضا الله فى رضا الوالد ، وسخط الله فى سخط الوالد » . أخرجه الترمذى والمراد بالوالد الأب والأم ، وروى الطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما بإسناد حسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بروا آباءكم تبركم أبناؤكم ، وعفوا تعف نساؤكم » .

أيها المسلم :ـــ

إن والديك أحق الناس بحسن معاشرتك وجميل برك وإحسانك ، لعظيم فضلهما عليك ، وكثرة إحسانهما إليك ، وشدة عنايتهما بك فى الصغر وحرصهما دائماً على راحتك وسعادتك فى جميع أطوار حياتك ، بسببهما خرجت من العدم إلى الوجود ، وبفضل رعايتهما قوى عضدك ، واشتد ساعدك ، حتى صرت إنساناً كاملا ، ورجلا نافعاً ، قوياً على الجهاد فى معترك الحياة .

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال ثم من ؟ قال : أمك، قال ثم من ؟ قال : أبوك ».

عباد الله :

إن عقوق الوالدين من أفحش السيئات ، وأكبر الذنوب التي يعجل الله عقوبتها في الدنيا قبل الآخرة ، فهو نكران للجميل وكفران بالنعمة، ومقابلة الإحسان بالإساءة ، قال رسول الله ﷺ : «كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات» .

وروى أن ولداً اشتكى إلى رسول الله ﷺ أباه ، وأنه يأخذ ماله فدعا به فإذا هو شيخ يتوكأ على عصا . فسأله فقال : إنه كان ضعيفاً وأنا قوي ، وفقيراً وأنا غني ، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالي ، واليوم أنا ضعيف وهو قوي وأنا فقير وهو غني ، ويبخل على بماله ، فبكى رسول الله ﷺ وقال : «ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى» ثم قال للولد : أنت ومالك لأبيك مرتين .

كما شكى إليه آخر سوء خلق أمه ، فقال : لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر ؟ قال : إنها سيئة الخلق ، قال : لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين ؟ قال : إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أسهرت ليلها وأظمأت نهارها ؟ قال : لقد جازيتها . قال : «ما فعلت؟ قال: حججت بها على عاتقي . قال : ما جزيتها ولو طلقة » .

أيها المسلمون :

إن ديننا الحنيف يأمر ببر الوالدين وإن كانا كافرين أو مشركين ، ولم يجعل من الاختلاف في العقيدة والدين سبباً لهجرهما وقطيعتهما فلهم

دينهم إن كانا على غير الإسلام ، وإذا دينًا ، ولو كانا مخالفين للدين فإن الإسلام لا يبيح للمسلم الإساءة إليهما أو ترك البر والإحسان إليهما قال عز وجل : « ... وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفاً »[1] أي لا طاعة لهما في معصية الله لا طاعة لهما إن طلبا من ولدهما المؤمن الإشراك بالله ، ولكن طاعتهما فيما ليس فيه معصية لله عز وجل . فينبغي أن يصاحبهما الولد بالمعروف مع الإحسان إليهما والبر بهما وطاعتهما وخفض الجناح لهما .

فعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت : قدمت على أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت النبي ﷺ قلت : قدمت على أمي وهي راغبة أفأصل أمي ؟ قال : نعم صلي أمك » .

وفي هذا تأكيد لحق الوالدين في حسن الصلة أن من بر الوالدين الدعاء لهما بعد موتهما ، والوفاء بعهدهما بإنفاذه وإكرام أصدقائهما ، وصلة أرحامهما .

فعن مالك بن ربيعة قال : « بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل فقال : يارسول الله هل بقي علي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد وفاتهما ؟ قال : نعم ، الصلاة عليهما والإستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما » .

إن فضل الوالدين عظيم ، لهذا قضى الله في محكم كتابه علينا بتوحيده وعبادته وحده لا نشرك به أحداً ، وقرن سبحانه الأمر بتوحيده بالأمر بالإحسان إلى الوالدين وعدم الإساءة إليهما ولو بأدنى كلمة تصدر من اللسان .

---

(١) لقمان : ١٥

فاتقوا الله عباد الله وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم وتوبوا إلى الله واطلبوا منه العون على طاعته .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

١١ — الدعاء سلاح المؤمن —

الحمد لله رب العالمين ، يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أمر عباده بالدعاء والتوسل إليه فقال : «وقال ربكم ادعونى أستجب لكم» ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا وعظيمنا محمداً رسول الله ، خير من دعا ربه وخير من استعان بالله ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن سلك طريقه إلى يوم الدين .

أما بعد :

فقد قال الله عز وجل : «وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون»[١] .

أيها المسلمون :

إن الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض ، وليس شىء أكرم على الله من الدعاء ، وليس شىء أنفع منه فى تحقيق المطلوب ، ودفع الضر والشر وتفريج الكرب والهم ، وجلب الخير والبركة ، وإذا فوض العبد أمره إلى الله وأحسن توكله عليه ، وأخلص الإتجاه ، وصدقت نيته ، وحضر قلبه ، وألح على الله فى دعائه وسؤاله

---

(١) البقرة : ١٨٦

متوسلا إليه بأسمائه وصفاته، موقنا بالإجابة غير يائس ولا شاك، مقراً بعجز نفسه وفاقته وحاجته إلى ربه فإن الله عز وجل لا يرده خائباً ولا يشمت فيه عدواً ولا حاسداً.

لقد استعان الرسل والصالحون والطيبون والطيبات بالدعاء في أشد أوقاتهم، وفي أشق المحن فأزال الله كربهم، وحقق لهم الخير ونجاهم من الغم، وآمنهم من الخوف، وشفاهم من المرض.

فهذا خليل الله إبراهيم عليه السلام يجتمع عليه أهل الكفر والضلال، وهو الوحيد بينهم يعبد الله ويوحده، يوثقونه بالحبال، ويضرمون له النار، ويلقونه فيها، فاستعان عليهم بتفويض الأمر لصاحب الأمر، وحمد الله ووصفه بكل صفات الكمال، وحمده على كل حال، وأقر له بالملك، ونفى عنه الحاجة إلى الشريك فقال: «لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك» وحين استقر في النار قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» أي أن الله يكفيني ما أهمني وجميع أموري كلها، وهو وكيلي ونعم الوكيل، وهذا من أنفع الدعاء حين يصدر من قلب واثق فاهم يقول الرسول ﷺ: «إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل».

فوض إبراهيم الأمر لصاحبه الذي يقول للشيء كن فيكون، فقال الله عز وجل: «يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم»(١).

فتحول المكان حوله إلى أجمل ما يكون من النسيم والطيب، يقول سيدنا إبراهيم عليه السلام بعد خروجه من النار: «ما كنت أياماً وليالي قط أطيب عيشاً إذ كنت فيها، ووددت أن أعيش حياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها».

---

(١) الأنبياء: ٦٩

أيها الأخوة المؤمنون :

ومحنة النبي أيوب عليه السلام كانت قاسية شديدة فقد ابتلاه الله فى ماله فهلك كله، وكان ذا ثراء وغنى، وابتلى فى البنين والبنات فماتوا جميعا حين انهدم عليهم البيت ، وابتلى فى جسمه بالأمراض الموجعة التى نفرت منه الناس فعاش وحيداً منفرداً تخدمه زوجه الوفية البارة الصابرة وتسعى على قوته ، ولم يكن هذا الاختبار والإبتلاء لهوانه عليه السلام ولكن لتمحيصه وزيادة ثوابه ورفع درجاته ورسولنا ﷺ يقول : « أشد الناس بلاءاً الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يقول عليه الصلاة والسلام : « يبتلى الرجل على قدر دينه فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه » وبلغ النبي أيوب عليه السلام الغاية فى الصبر والتسليم لقضاء الله وقدره حتى صار قدوة يضرب به المثل ، قالت له زوجه : يا أيوب لو دعوت الله يفرج عنك؟ فقال : قد عشت سبعين صحيحاً ، فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة .

ثم شعر النبي أيوب عليه السلام ، أن المرض وصل إلى الحد الذى أعجزه عن النهوض للصلاة وأحس بشماتة الأعداء ، الذين أشاعوا أن مرضه إنما هو لغضب الله عليه ، فرفع عليه السلام أكف الضراعة إلى الله تعالى مقراً بعجزه قائلا : « رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » وصدر الدعاء من القلب الصافى ، فأجاب الرحمن دعاءه وحفظ عبده الصابر فأمره « اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » فعل الله به ذلك رحمة به ، وتذكيراً للعباد فى كل زمان ، فالله لا يبتلى الصالحين من عباده لهوانهم عليه ، وإنما ليضاعف الثواب لأحبابه ، ويعلى منازلهم ، وليكون النبي أيوب عليه السلام قـدوة لكل مبتلى فى الصبر والشكر ، « فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين »[1] .

---

(١) الأنبياء : ٨٤

عباد الله .

وسيدنا يونس بن متى عليه السلام ، اختبره الله عز وجل بالحبس في بطن حوت أمر بألا يأكل له لحماً ، ولا يهشم له عظماً ، فقد أراد الله أن تكون بطنه لعبده الصالح سجناً ، لأن يونس عليه السلام يئس من إيمان أهل قريته ، فأسرع بالخروج منها باجتهاده بعد أن أنذرهم بعذاب من الله بعد ثلاثة أيام ظاناً أن الله عز وجل لن يضيق عليه أو لن يقضي عليه بعقوبة لمكانته عند ربه قال تعالى: «وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه» .

فلما آل الأمر إلى قاع البحر في بطن الحوت ، وسمع تسبيح الحصا ، وتسبيح دواب البحر سبح يونس عليه السلام ، وجأر إلى ربه ومولاه « فنـــادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » .

وفي هذا الدعاء توسل إلى الله بتوحيده ، ونزه ربه وقدسه ، وأقر عليه السلام قائلا : « إني كنت من الظالمين » وفوض الأمر إلى الله وحده فأجاب الله دعاءه : « فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين » .

وهنا العبرة والعظة لكل مؤمن ، فالله عز وجل ينجي المؤمنين من شدائدهم ، ويكشف عنهم الضر إذا هم وحدوه ، وأخلصوا النية لله واتجهوا إليه بقلوب نقية ونفوس صافية .

وقد جاء في الأثر « من دعا بدعاء يونس استجيب له » .

قال ﷺ : « إسم الله الذي إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى » .

قال سعيد بن مالك راوى الحديث : قلت يا رسول الله : هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين قال: هى ليونس بن متى خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله عز وجل : « وكذلك ننجى المؤمنين » .

أيها الإخوة المؤمنون :ـ

وهذه آسية ابنة مزاحم امرأة فرعون الطاغية الجبار العنيد ، هى مؤمنة ، وزوجها فظ غليظ ، يريد أن يكرهها على الكفر ، فشد لها أوتاداً فى الشمس ، وأمر أن تلقى عليها صخرة عظيمة إن لم تكفر بالله ، وتؤمن بفرعون ، لجاءت الملائكة وأظلتها بأجنحتها من حر الشمس .

لقد جأرت المرأة الصالحة إلى الله بالدعاء تريد الخلاص: « قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين » .

فأجاب الله دعاءها ورأت بيتها فى الجنة ،فضحكت ، واستبشرت فلما هموا بألقاء الصخرة عليها، انتزع الله روحها، ونجاها من القوم الظالمين ، ونزلت الصخرة على جسد لا روح فيه.

فما أعظم رحمة الله فعليكم بالدعاء والتضرع وفى الحديث :« سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل » .

واتقوا الله عباد الله وادعوه وتضرعوا إليه يعطكم واستغفروه يغفر لكم إنه سميع الدعاء .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

١٢ — لا يعلم الغيب إلا الله

الحمد لله رب العالمين ، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له حذرنا من الكفر والضلال ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه وخليله ، حذرنا من الكهان والمنجمين ، الذين يقولون مالا يعلمون ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه إلى يوم الدين .

أما بعـــد :ـــ

فقد قال الله عز وجل : « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير »(١) .

أيها الإخوة المؤمنون :ـــ

نزلت هذه الآية الكريمة فى الحارث بن عمر بن حارثة أتى النبى ﷺ فقال : يارسول الله ، أخبرنى عن الساعة متى قيامها ؟ وإنى قد ألقيت حباتى فى الأرض ، وقـــد أبطأت عنا السماء فمتى تمطر ؟ وأخبرنى عن امرأتى ما فى بطنها أذكر أم أنثى ؟ وإنى علمت ما عملت أمس فماذا أعمل غداً ؟ وهذا مولدى قد عرفته فأين أموت ؟ .

---

(١) لقمان : ٣٤

قال سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : من ادعى علم هذه الخمسة فقد كفر ، إياكم والكهانة فإن الكهانة تدعوا إلى الشرك وأهله فى النار .

عباد الله : —

إن مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله عز وجل ، ومن ادعى علم شيء منها فهو كاذب أثيم مغضوب عليه . فالله وحده يعلم متى تقوم الساعة، ولم يؤت علم ذلك أحداً من خلقه ، إذ لا فائدة للعباد فى معرفة وقتها وإنما عليهم أن يستعدوا لها بالخوف من الله وخشيته ، وبالعمل الصالح ومداومة الطاعة .

قال تبارك وتعالى : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها »[1].

أى أنت يا محمد لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة الذى لا فائدة لهم فى علمه وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يكون انذارك لطفاً له فى الخشية منها .

وقال عز وجل : « إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه »[2] .

فمتى تقوم الساعة ؟ ومتى ينتهى العالم ؟ علم ذلك عند الله وحده لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب ، ولله جلت قدرته يقول لنبيه «وما يدريك لعل الساعة قريب، يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين

---

(١) النازعات : ٤٢—٤٥

(٢) فصلت : ٤٧

آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد »[1] .

والحق سبحانه وتعالى هو الذى ينزل الغيث فى إبانه ووقته من غير تقديم ولا تأخير وفى بلد لا يتجاوزه به ، وهذا من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى : « وينزل الغيث » .

كما أنه سبحانه يعلم ما فى الأرحام ، أذكر أم أنثى ؟ أتام أم ناقص؟ أبيض أم أحمر ؟ وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال .

قال عز وجل : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام ، وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال »[2] .

أيها المؤمنون أحباب رسول الله : —

إن المستقبل بين الخالق العظيم والخبير العليم ، وعلى العبد أن يأخذ بالأسباب مع التوكل على الله وحده، أما ماذا يحدث غدا فهذا غيب لا يعلمه إلا القادر الحكيم الذى يقول للشىء كن فيكون ، وما تدرى نفس برة أو فاجرة ، ماذا تكسب غدا من خير أو شر ، وربما كانت عازمة على خير فعملت شراً ، وعازمة على شر فعملت خيراً .

وقديماً قال الشاعر الحكيم : —

وأعلم علم اليوم والأمس قبله
ولكننى عن علم ما فى غد عمى

---

(١) الشورى : ١٧ ، ١٨

(٢) الرعد : ٨ ، ٩

أجل إن الغد غيب مفاتيحه بيد علام الغيوب سبحانه وتعالى قال تعالى: «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبـــة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين»[1].

ومن أجل ذلك اشتد غضب الرحمن على السحرة والكهان والعرافين وغيرهم من الدجالين، الذين يوهمون الناس أنهم يعرفون الغيب ويشاركون علام الغيوب فى معرفة المستقبل ألا ساء مايدعون .

وقد تبرأ الحبيب المصطفى ﷺ من كل من يتعلق بغير الله ويجرى وراء الوهم والباطل، فعن عمران بن حصين رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له ، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» .

فليحذر المؤمن الجرى وراء الأوهام وليحذر الدجالين والعرافين لأنهم كاذبون أفاقون ، وليعتصم المؤمن بإيمانه بربه وحسن توكله عليه فى الأمور كلها ، مع الأخذ بالأسباب التى أمر الله عز وجل بها .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد برىء مما أنزل على محمد ﷺ ومن أتاه غير مصدق له لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» .

أيها المسلمون : —

أمر الإسلام بالأخذ بالأسباب مع حسن التوكل على الله وحده ،

---

(١) الأنعام : ٥٩

وبالإيمان بأنه لا نافع ولا ضار إلا هو ، وأن الأمر بيده سبحانه وتعالى
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ما أنزل داء
إلا أنزل له شفاء ، وقال : « تداووا يا عباد الله فإن الله تعالى لم يضع داء
إلا وضع له شفاء إلا السام ، أي الموت .

وهكذا يحثنا ديننا الحنيف على الأخذ بالأسباب ، وينهانا عن الجري
وراء الأوهام والخرافات ، ويحذرنا من الدجالين والسحرة والكهان
وغيرهم ممن غضب الله عليهم .

والموت علينا حق ، وعلى المؤمن أن يضع أمام عينيه الموت ، لا يغفل
عن تذكره ليستعد دائماً للقاء ربه ولكن ، وما تدري نفس بأي أرض
تموت ، فربما أقام المرء بأرض وضرب أوتاده بها ، وقال لا أبرحها حتى
أقبر فيها فترمي به مرامي الأقدار حتى يموت في مكان لم يخطر بباله
ولا حدثته به نفسه ذلك لأن هذا غيب علمه بيد صاحب الأمر ، « إن الله
عليم خبير » .

وفي الحديث : « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها
حاجة » .

فسبحان الواحد الأحد ، سبحان علام الغيوب . القائم على كل نفس
بما كسبت لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء .

وطوبى للعبد المؤمن الصالح المتوكل على ربه ، طوبى للعبد المؤمن
المقر بعجز نفسه أمام كمال القدرة الإلهية ، وكمال العلم الإلهي ، طوبى لمن
يستعد للقاء العزيز الجبار بالعمل الصالح واليقين الصادق .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ؟

١٣ — الإسلام هو صراط الله المستقيم

الحمد لله رب العالمين ، إذا أراد بأمة خيراً وفقها للتمسك بدينها ، والمحافظة على كيانها ، أحمده حمد الشاكرين القانتين ، وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كتب السعادة للطائعين ، والفوز للمستقيمين ، وأشهد أن سيدنا وعظيمنا ونبينا وحبيبنا محمداً رسول الله ، جاء بعقيدة التوحيد والتنزيه ، وأمر بالطاعة وحث على التحلي بأخلاق الإسلام العالية ، اللهم صل وسلم وبارك على هادينا محمد وعلى آله وأصحابه الذين اقتدوا به ، فأحيوا دينه ونشروا شريعته .

أما بعد :

فقد قال الله عز وجل : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه، وهو فى الآخرة من الخاسرين »[١] .

أيها المسلمون :

قبل أن تشرق على الدنيا أنوار الدعوة المحمدية ، كان البشر يعيشون فى حيرة وعمى ، كانت العقائد زائغة باطلة ، والأخلاق كانت فاسدة ، وأفكار البشر كانت متضاربة مختلفة ، فتنافرت القبائل ، وتنابذت الأمم ، يأكل قويها ضعيفها ، وفشا الإثم والعدوان والبغى ، واضطرب حبل الأمن ، وحرم الناس من نعمة الاستقرار والطمأنينة ، وضل سعيهم فى الحياة الدنيا .

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يهدى عباده إلى صراطه المستقيم ، وأن ينقذهم من الكفر والضلال والعمى والجهل ، الذى يعيشون فيه .

---

(١) آل عمران ٨٥

أراد الله عز وجل للناس أن يعيشوا فى محبة وسعادة ، وكرامة ، فأرسل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم برسالة الإسلام ، وبعثه داعياً ، إلى دين الفطرة ، وهادياً إلى الحق ، ومرشداً إلى كل خير وفضيلة ، فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس قائلا مردداً قول الله تعالى : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ، ويهديهم إليه صراطا مستقيما »(١) .

نادى محمد عليه الصلاة والسلام فى الناس داعياً إلى الحق والخير والهدى ، والناس فى لهف شديد إلى نور جديد ، يبدد ظلمات المعتقدات الباطلة ، والأفكار البشرية المضلة ، فأقبل الناس على صوت الحق ، يدخلون فى دين الله أفواجاً ، أقبل الناس على دين الإسلام ، لأنه الدين الذى يحقق لهم الخير فى الدنيا ، والفوز بالنعيم فى الآخرة .

فتعاليم الإسلام ونظمه هى صرط الله المستقيم الذى لا عوج فيه ولا إنحراف .

أيها المؤمنون :

الإسلام صراط مستقيم فى العقيدة ، إذ دعا إلى التوحيد الخالص ، دعا إلى الإيمان بأن الله واحد ، ولا معبود بحق سواه .

« قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »(٢) .

والإسلام صراط مستقيم فى الأخلاق ، حث على التحلى بالفضائل

---

(١) النساء ١٧٤ ، ١٧٥ (٢) الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣

بلا إفراط ولا تفريط ، فلا جبن ولا تهور ، ولا استكبار ولا استخذاء : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً »[1]. والإسلام صراط مستقيم فى صلة الإنسان بالحياة ونعيمها : وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »[2] .

والإسلام صراط مستقيم فى طريقة التشريع ، ووضع القوانين ، التى تهدف إلى خير الفرد والجماعة ، فالقرآن الكريم ، كتاب الله عز وجل ، دستور خالد ، ومبادئه صالحة لكل زمان ومكان، وقد أمرنا الله عز وجل وهو خالق البشر ، والعليم بما تصلح به حياتهم ، وتستقيم عليه أمورهم ، أمرنا سبحانه باتباع كتابه الكريم والعمل بسنة نبيه ﷺ والإمتثال لما جاء به الوحى واتخاذه سبيل الحياة ودستورها .

وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه »[3] وقال عز وجل : « أتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم »[4] .

أيها المسلمون :

الإسلام هو دين الله ، الذى رضيه لعباده ، وتعاليم القرآن ومبادئه هى صراط الله المستقيم ، الذى لا يضل سالكه . ولا يهتدى تاركه ، ورسول الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ، هو رسول رب العالمين إلى الناس كافة ، أنقذ البشر برسالة الإسلام من الضلال ، ودعاهم إلى ما يحقق لهم السعادة الكاملة فى كل جوانب حياتهم ، والمسلمون دائماً يكونوا بخير إذا ما استمسكوا بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، ورجعوا إليها فى كل أمورهم ، وجعلوا مبادىء الإسلام أساس حياتهم .

---

(١) الإسراء ٢٩ (٢) القصص ٧٧

(٣) الأنعام ١٥٣ (٤) الأعراف ٣

يقول الحق تبارك وتعالى : « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم[1] وأشد تثبيتا ، وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما » .

وقال الهادى البشير ﷺ : « لقد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك » .

وقال الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أما إنها ستكون فتنة . قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تعالى ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالى ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: « إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به »[2] ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم »[3] .

عباد الله :

إن الله بفضله ورحمته يقيض لهذه الأمة من أبنائها من يعيد بناءها على الأساس الذى قام إبه وعليه المجتمع الإسلامى الأول ، فأمر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها ، وذلك يحتم علينا أن نكون بقلوبنا

---

(١) النساء ٦٦ — ٦٨ (٢) الجن ١-٢

(٣) أخرجه الترمذى .

معهم وأن نتجمل بأخلاق أسلافنا ، وأن نتذرع بالأسباب التى تمسكوا بها والوسائل التى ساروا على هداها ، فالعقيدة الحقة أقوى سلاح وأمضى عدة ، والسلوك القويم أهدى سبيل وأنبل غاية ، وهذا لا يكون إلا فى الإسلام صراط الله المستقيم .

اللهم أهدنا صراطك المستقيم .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

١٤ — التحذير من تقليد الأجانب(١)

الحمد لله رب العالمين ، أمر بالتحلى بالفضائل ، ونهى عن الوقوع فى مهاوى النقائص والرذائل ، لا إله إلا هو الحكيم العليم ، نشكره تعالى ميّز لنا القبيح من الحسن ، ونلجأ إليه سبحانه مما نزل بنا من البلايا والفتن ونعوذ بالله من التقليد فى سوء الأخلاق وقبائح البدع والعادات، وأشهد أن لا إله إلا الله هدانا بالإسلام إلى خير وسائل السعادة ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله فتح لنا بسنته أبواب الرقى والسيادة ، اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وأصحابه ، الذين تأدبوا بآداب الدين . فبلغوا ذروة الكمال والعزة .

أما بعـــد :

فقد قال الله عز وجل: «وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون» .

---

(١) هذه الخطبة من كتاب هـــداية المرشدين للشيخ على محفوظ ص ٤٥٠

أيها المسلمون :

معنى هذا : أن دين الإسلام هو طريقى الذى أسلكه فاسلكوه مثلى ، ولا تسلكوا الطرق المخالفة له ، وهى طرق البدع والإنحرافات والضلال فإنها تبعدكم عن الدين القويم ، الذى اختاره الله طريقا لسعادة الدارين أمامنا طريق السعادة مفتوح فلماذا لا نسلكه ؟ أمامنا سبيل الرقى والفلاح واضح ، فلماذا نعدل عنه ونتركه ونسلك طريق التأخر والشقاء والخسران ؟ .

أرأيتم أن دينكم قصر فى إرشادكم إلى سبيل الفلاح فعدلتم عنه ؟ أم قرأتم فى تعاليمه ما يصدكم عن جلائل الأعمال ومكارم الأخلاق فهجرتموه ؟ كلا ! إنه دين الله الذى يبقى طريقا للسعادة والرقى إلى يوم يبعثون ، إذ ما من فضيلة إلا حث على التخلق بها ، وما من رذيلة إلا حذر من قبحها وبين سوء عاقبتها ، فما لنا نسير على غير هدى ، ونقلد الأجانب فيما ينهى عنه الدين ، ولا يتفق مع آداب المسلمين .

أيها المسلمون :

لقد جلب علينا تقليدنا للأجانب شرًا وبيلا ، فقد أهمل كثير من كبرائنا أمر الدين ، واستهانوا بحقوقه ، وعبثوا بواجباته ، بل صار الكثير من الشبان إباحيا لا دين له ، جريئا على انتهاك الحرمات لا يبالى بارتكاب ما لا يرضاه الشرع والعقل من الشرور والقبائح والآثام سائرا كل واحد منهم وراء شهوته وهواه « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين » .

ويا ليتنا قلدنا الأجانب فيما يفيد وينفع من الأخلاق الفاضلة والعادات الحسنة ، كالصدق والوفاء ، والإخلاص والأمانة ، والاقتصاد وعدم الإسراف ، وكل ما يرقى شئوننا من الفنون والصنائع ، ولكننا

قلدناهم فيما يضر ولا ينفع ، قلدناهم فى الربا ولعب القمار ، وم ن بما يلحقنا من المضار المالية ، قلدناهم فى تناول المسكرات والمخدرات ولم نبال بمضارها البدنية والعقلية قلدناهم فى التبرج والتهتك وقلنا حرية ، أخذنا عنهم أنواع اللهو والخلاعة وقلنا مدنية وتقدم ، ربينا بناتنا على عاداتهم فنشأن عاريات من الفضائل ، جاهلات بأمور الدين ، طرحن ثياب الحشمة وخلعن برقع الحياء ، وبرزن فى الشوارع بالأزياء الغربية والشرقية فإذا رأيت المسلمة رأيت منها امرأة غربية فى ملابسها وحركاتها وسكناتها ، وهى ابنة أو زوجة من يعد نفسه من جماعة المسلمين ، وأقبح من هذا أن يذهب المسلم بأهله وأولاده إلى أماكن اللهـو ، وبيوت الخلاعة والفجور ، وبدل أن ينفق أمواله فى أعمال نافعة يضيعها فى النقائص والرذائل ، والله يعلم أن هذه الأماكن ما أقيمت إلا لسلب ماله ، وإفساد أخلاقه ، والقضاء على البقية الباقية من دينه ، وبذلك يجنى على نفسه ، وعلى أولاده وعلى أمته ، ويكون لبناء الدين والفضيلة من الهادمين .

أيها المسلمون :

إن لكل أمة محاسن وقبائح يعرفها الأعمى والبصير ، وإن لنا دينا قويما كله آداب وفضائل ومحاسن ، فمن العار بل من الحرام أن نترك محاسن ديننا ، ونقلد الأجانب فيما ينهى عنه الدين ، ويغضب علينا الله رب العالمين .

أتدرون ما عاقبة تقليدنا للأجانب فى بدعهم السيئة ، وعاداتهم القبيحة إننا بهذا التقليد نندمج فى غيرنا ، ونهدم بناء ديننا ، نقضى على آدابنا وعاداتنا ، ونمحو معالم حياتنا ، ونصبح بين الأمم ضائعين أذلاء مستضعفين .

أيها المسلمون :

إن الأجانب أنفسهم عرفوا ضرر كثير من عاداتهم كالخمر والميسر والزنا ، فنبهوا شعوبهم وأممهم فأقلعوا عنها ، وإن دينكم والحمد لله ما ترك التنبيه على ضررها ، ولطالما حذر من خطرها وشرورها ، فارجعوا إلى دينكم وكونوا بهديه متمسكين ، اتقوا الله يا قوم واحذروا هذا التقليد الأعمى ، فإنه يضر ولا ينفع ، وأمامكم كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ففيهما كل خير وسعادة .

وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » .

لقد فشا فى هذا الزمان بين الخاصة والعامة تقليد الأجانب فى كثير من العادات ، من غير تمييز بين النافع منها والضار ، والسبب فى ذلك ما يرونه من قوة الأجنبى وضعفهم ، وتلك سنة الله تعالى فى أمة أهملت أمر دينها . واتبعت أهواءها حتى ذهبت ريحها وضعفت قوتها ، فذلت واستكانت .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره موافقة الأجانب فى كل أحوالهم ، حتى قالت اليهود إن محمدا يريد ألا يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه وكان يقول صلى الله عليه وسلم : « من تشبه بقوم فهو منهم» رواه أبو داود .

وكان عليه الصلاة والسلام يقول أيضا : «ليس منا من تشبه بغيرنا الترمذى ويا ويل من تبرأ منه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وذلك لا شك يفيد حرمة التقليد من المسلمين للأجانب فيما هو من خصائصهم.

أدعوا الله يستجب لكم واستغفروه يغفر لكم .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

١٥ – قوة الأمة الإسلامية فى وحدة صفها

الحمد لله رب العالمين ، هدانا للإسلام ووحد بيننا بالإيمان أحمده سبحانه وتعالى وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أنزل على نبينا القرآن تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة لقوم يوقنون ، وأشهد أن سيدنا وعظيمنا ونبينا وحبيبنا محمدا رسول الله جمع الله به بين المؤمنين فهداهم من ضلالة ، ووحدهم من فرقة . وجمعهم من شتات ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، الذين آمنوا به واتبعوا النور الذى أنزل معه ففازوا بالسعادة فى الدنيا والآخرة وكانوا من الصادقين .

أما بعد :

فيقول الله تبارك وتعالى : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »(1) .

أيها المسلمون :

الإسلام دين يؤمن بالجماعة المسلمة القوية ،ويؤمن بالفرد المسلم القوى ، وهو ينظر إليهما نظرة دقيقة تستهدف كرامة الإنسان ، وتحقق له ما يصبو إليه من خير فى حاضره ومستقبله إنطلاقا من قوله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

ولو نظرنا إلى الدين الإسلامى ، الذى امتدت رقعته فى كل قارات

---

(١) الأنبياء ٩٢

الدنيا نجد أنه ظل من بعثة سيدنا رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا وسيظل إلى قيام الساعة لا يعرف إلا كتاباً واحداً وقبلة واحدة ، وبلغ من عظمة هذا الدين أن دائرته لا تختص بجنس دون جنس أو لون دون لون ، لقد وسعت شتى الألسنة والألوان ، وانضم تحت لوائه عدد لا يحصى من المؤمنين من مختلف الأجناس والأقطار ، فكان من الرعيل الأول أبو بكر القرشي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وصدق الله إذ يقول : «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً»(١) .

لقد وحدت بين هؤلاء جميعاً راية الإيمان ، التي تظلل كل من ينطق بكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، كما وحدت بينهم أخوة الإسلام ، على اختلاف الأمكنة والأزمان ، وهي إخوة فوق أخوة الدم والنسب وفوق الإخوة المحدودة بحدود الوطنية الضيقة .

وإذا كان الإسلام قد وحد الأجناس البشرية تحت لوائه فلقد ربطها على الحب الخالص وعلى الإخاء الصادق وسلامة الصدور من الأحقاد ، وانتزع منها جذور العداوة والبغضاء والتعصب .

عباد الله :ـــ

بهذه الإخوة الدينية وبهذا الحب الصادق يشعر المسلم بأن إخوانه ظهير له في السراء والضراء ، وأن قوته لا تتحرك وحدها ، بل تساندها قوى المؤمنين جميعاً ، وتشاركها أعباء الحياة والكفاح ، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، إنه يفرض التناصر والتآزر لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول «من ...

---

(١) الأعراف : ١٥٨ .

مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام[1] » .

إن رسولنا ﷺ أقام أول مجتمع إسلامى بالمدينة على هذا الإخاء الكامل القائم على الحب لله وفى الله ، والذى يدفع المسلم إلى أن يؤثر أخاه بما عنده « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون[2] » .

فكان المسلمون الأولون بهذا الإخاء وهذه القوة وحدة متماسكة ، لا تنال منها العواصف والرياح ، وكانوا قوة قوية حمت الإسلام وأقامت دولته ورفعت رايته .

إن المسلمين أطاحوا بقوتى فارس والروم ، وهما ماهما من ضخامة ثروة ، وقوة بطش ، وشموخ عز واتساع عمران ، واستحكام ملك .

كيف اجتاح المسلمون هاتين الدولتين وزلزلوا عروشها ؟ هل بعددهم وعدتهم كلا ! إنما هو الإسلام ، الذى بدل أحوالهم وأنشأهم خلقاً آخر وغير ما كانوا عليه من قبائل متناحرة وبطونا متدابرة ، يضرب بعضهم رقاب بعض .

لقد أزال الإسلام تلك الأحقاد ، واستخرج تلك الأضغان وألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً متحابين متآلفين .

أيها المسلمون :—

إن العلل التى أصابت الأمة الإسلامية وأذوت حضارتها ترجع فيما ترجع إلى تفكك الأمة وانفراط عقد الجماعة ، وتمزيق عرا الإخوة ،

---

(١) رواه الأصبهانى .   (٢) الحشر : ٩ .

والسياق كل امرىء فى سبيل منفصل دون الرجوع إلى هذا الدين، وهذا التمزيق والخلاف دون تحكيم الإسلام هو الذى مهد للحروب الاستعمارية فى القرون الوسطى، والتى ظلت مشتعلة طوال قرنين من الزمان، وما كان لها أن تستغرق هذه المدة لو أن الأمة الإسلامية والعربية كانت صفاً واحداً وعلى قلب رجل واحد إن الإسلام يحرم أشد التحريم إثارة العداوة والبغضاء ويعد ذلك من أرذل الرذائل وأكبر الكبائر ويحذر بخطره .

فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم « دب إليكم داء الأمم من قبلكم الحسد والبغضاء ، والبغضاء هى الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين[1] » .

ويقف عليه الصلاة والسلام فى حجة الوداع ويقول : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم وجوه بعض[2] » .

وفى الوقت الذى يحرم فيه الإسلام كل التحريم إثارة العداوة والبغضاء والصراع بين الناس ، يوجب بكل قوة التدخل بكل طاقة ممكنة لوقف الخصومات والعداوات وزرع الحب بدل البغض ، وإحلال الوئام محل الخصام ، والسلام محل النزاع . وصدق الله العظيم إذ يقول « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين[3] » .

ويقول : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس[4] » .

---

(١) رواه البيهقى . (٢) رواه الترمذى .
(٣) الأنفال : ١ (٤) النساء : ١١٤

عباد الله :

ألا ما أشد حاجتنا إلى ربنا ، حتى نوحد الصف ونجمع الكلمة ، ونقضى على الفرقة والفتنة ، وهو سبحانه كما قال فى كتابه « حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم[1] » .

فاتقوا الله يامعشر المسلمين واعلموا أنه ليس أمامنا إلا طريق واحد هو طريق الله ، يتعين علينا أن ننطلق منه وصدق الله العظيم : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين[2] » .

ولنأخذ العبرة من ماضينا ولنحكم الإسلام فى كل تصرفاتنا ، فنكون صفاً واحداً ورأياً واحداً ، وكلمة واحدة ، وأمة واحدة « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون »[3] « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً[4] » .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما وخط عن يمينه وشماله ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعوا إليه ثم قرأ : وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »[5] .

وقال رسول الله ﷺ : « أنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً

---

(١) الحجرات : ٧ — (٢) يوسف : ١٠٨

(٣) المؤمنين : ٥٢ — (٤) آل عمران ١٠٣

(٥) رواه الحاكم فى المستدرك .

فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الرشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار »(١) .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

١٦ — الشهود على الإنسان يوم القيامه —

الحمد لله رب العالمين ، خلق الخلق بقدرته ، وأخضعهم لمشيئته ، وألشأهم لعبادته . أحمده سبحانه وتعالى وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، القائم على كل نفس بما كسبت المحصى عليها كل مااجترحت ، فهو القائل سبحانه وتعالى « وأن ليس للإنسان إلا ماسعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمد رسول الله وضح لنا طريق الخير ، ورغبنا فى العمل الصالح حتى يكون لنا زاداً ورصيداً يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله . اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، الذين اهتدوا بهديه ، وتأدبوا بآدابه فرضى الله عنهم أجمعين .

أما بعد : —

فيقول الحق تبارك وتعالى : « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »(٢) .

---

(١) رواه أبو داود فى سننه .

(٢) الحشر : ١٨

أيها المسلمون : —

إن الدين الإسلامى هو دين العمل لخيرى الدنيا والآخرة ، يأمر الإنسان بأن يستعمل كل مواهبه وقدرته فى عمارة هذه الحياة الدنيا ، وتحصيل الخير من دنياه لآخرته ، مستعملا كل طاقة فى كل مايرضى الله عز وجل ، وموقنا أن الله تبارك وتعالى مطلع عليه ويراه ، فهو سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وأنه مهما أوتى من سلطان أو جاه ، ومهما طال به العمر ، فإنه ملاق ربه ، وسيسأله عن كل ماجنت يداه ، عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعلمه ماذا عمل به أحفظ أم ضيع ، سيسأله ربه عز وجل عن كل تصرفاته فى هـــذه الحياة ، وستشهد عليه جميع جوارحه فى يوم لايخفى على الله خافية من أمر عباده .

قال عز وجل : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » .

عباد الله : —

على ضوء هذا الاعتقاد يجب أن يتصرف كل إنسان فى حياته ، ويراقب ربه عز وجل فى عمله ، الذى هياه الله له ، فلايترك مجالا للدنيا تغريه ، أو الشيطان يغويه ، ويحاسب نفسه فى الدنيا ، قبل أن يحاسبه علام الغيوب يوم القيامة ، فى هذا الموقف العظيم يكون على الإنسان شاهد من نفسه ، ينطق بما فعل إسمع إلى قول الله تعالى : « حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون »[1] .

---

(١) فصلت : ٢٠

ومعنى هذا أن كل عضو من أعضاء الإنسان سيتكلم وينطق بما عمل وما سمع أو رأى ، ثم يوضح الحق تبارك وتعالى ، أن الإنسان العاقل ربه من طبعه العناد والمكابرة والمجادلة والخصام ، وأنه حينما يرى أن الشهود عليه من نفسه وهي جوارحه ، وأن الحجة عليه دامغة وواضحة ، سيتخاصم ويتعارك مع جوارحه ، وأنها سترد عليه بالحقيقة التي لاشك فيها ولامراء يعتريها يوضح لنا المولى عز وجل هذا المشهد فيقول : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون »[1] .

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك : فقال هل تدرون مم أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : من مخاطبة العبد ربه يقول : يارب ، ألم تجرني من الظلم ، قال . يقول ، بلى ، قال : فيقول فإني لا أجيز اليوم على نفسي إلا شاهداً مني ، قال : يقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً . قال : فيختم على فيه ، فيقال لأركانه : إنطقي ، فتنطق بأعماله قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام ، قال : فيقول بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل » .

أيها المسلمون : —

فيجب على كل إنسان يريد النجاة في هذه الحياة الدنيا والسعادة في الآخرة ، أن يعمل في هذه الحياة مايجده مدخراً له في ميزان حسناته ناظراً دائماً إلى غده وموقفه بين يدي الله عز وجل ، وإلى مصيره بعد الحساب وشهادة الشهود عليه إما إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدها

---

(١) فصلت : ٢١

الله لعباده المتقين، وإما إلى نار وقودها الناس والحجارة يقول الحق تبارك وتعالى «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون. ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون . لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون»[1] .

فليتق الإنسان ربه ، وليخش يوماً تبـــلى فيه السرائر ، وتتكشف الخبايا ولا يستطيع العبد جحود ذنوبه إذ تشهد عليه الأرض ، وتشهد الأيام والليالى ، وتشهد الجوارح ، وما أحسن قول القائل :

العمـــر ينقص والذنوب تزيد
وتقال عـــثرات الفتى فيعود

هل يستطيع جحود ذنب واحد
رجـــل جوارحه عليه شهود

والمرء يسأل عن سنيه فيشتهى
تقليلها وعن الممات يحيد

أما الأرض التى عاش الإنسان عليها سنين عمره يمرح ويلعب ويتكبر ويلهو ويجرى فستشهد عليه بما عمل فوقها من خير أو شر .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قـــرأ رسول الله ﷺ قول الله عز وجل : «يومئذ تحدث أخبارها» فقال أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها . أن تقول : عمل كذا أو كذا يوم كذا أو كذا . قال : فهذه أخبارها»[2] .

(١) الحشر : — ١٨ — ٢٠
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده

وعن الحارث بن زيد رضى الله عنه قال: سمعت ربيعة الجرشى يقول: قال رسول الله ﷺ : « تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، وأنها ليس من أحد عامل عليها خيرا أو شراً إلا وهى مخبرة به »[1].

وعن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال : « ليس من يوم يأتى على ابن آدم إلا وينادى فيه : يابن آدم أنا خلق جديد، وأنا فيما تعمل غدا عليك شهيد ، فاعمل فى خيراً أشهد لك به غداً ، فإنى لو قد مضيت لم ترنى أبداً، ويقول الليل مثل ذلك »

عباد الله :

كما يجب على المسلم دائما فى كل أحواله ، أن يعتقد أن لله ملائكة كراماً كاتبين ، يلازمون الإنسان صباح مساء ، يحصون عليه ما يصدر منه من قول أو فعل ، يقول عز وجل : « وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون »[2] .

وفى يوم القيامة يوم الحساب والجزاء يجد كل إنسان جميع اعماله ، فى صحف مدونة بأيدى الملائكة الكرام البررة ، ثم ينادى الحق تبارك وتعالى على كل إنسان أن يأخذ كتابه ويحاسب نفسه أمام ربه .

يقول عز وجل : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً »[3] .

وفى هذا اليوم لا يستطيع الإنسان أن يخادع أو يزور ، لأن شهوده من نفسه . فعلى المؤمن أن يبادر بفعل الخيرات ، وأن يكثر من الصالحات

(١) أخرجه الطبرانى (٢) الانفطار : ١٠ — ١٢
(٣) الإسراء : ١٣ — ١٤

وأن يتوب من ذنبه ، ويندم على ما فرط منه عسى أن يبدل الله سيئاته حسنات ، وأن يوفقه لأداء الطاعات ، ولا يرجىء التوبة وفعل الخير إلى غد ، فالإنسان لا يضمن الغد وما أحسن قول القائل :

قضى أمسك الأدنى شهيداً معدلا
ويومك هذا بالفعال شهيد

فإن تك بالأمس اقترفت إساءة
فثن بإحسان وأنت حميد

ولا ترج فعل الخير منك إلى غد
لعل غداً يأتى وأنت فقيد

واعلم أخى المسلم : أنك مطالب بشكر المنعم على كل نعمة له مطالب بشكر الحواس والطعام والشراب وما نعمت به فى حياتك قبل أن تسأل عنها وتحاسب .

ولنتدبر الحديث الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله تعالى له : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالا وولداً وسخرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وترتع . أكنت تظن أنك ملاق يومك هذا ؟ فيقول : لا . فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتنى » .

فالعاقل لا ينسى حقوق ربه ، ولا يغفل عن ذكره وشكره ولا ينى عن طاعته ويراقب الله فى السر والعلن مؤمنا أن الدنيا إلى زوال ، وأن المرء محاسب على كل صغيرة وكبيرة ، وأنه فى حاجة إلى رحمة الله عز وجل يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ولا ينبغى لعاقل أن تلهيه الأمانى حتى يخرج من الدنيا ولا حسنة

له إتكالا على المغفرة والرحمة بدون عمل . فهؤلاء هم المفلسون في الدنيا .

قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ما عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه » .

نسأل الله التوفيق لما يحبه ويرضاه إنه على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

١٧ — سعادة الإنسانية بميلاد خير البرية —

الحمد لله رب العالمين أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ونسأله الهداية والتوفيق ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أكرمنا بهذا النبي العظيم وجعله رحمة للعالمين . وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله أرسله ربه «بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً» فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الغمة ومحا الظلمة وجاهد في الله حق جهاده فصلوات الله وسلامه عليك ياسيدي يارسول الله يامن شرح الله صدرك فقال : «ألم نشرح لك صدرك»[1] :

وزكى عقلك فقال : «ما ضل صاحبكم وما غوى»[2] .

وزكى لسانك فقال : «وما ينطق عن الهوى»[3] .

وزكى فؤادك فقال : «ما كذب الفؤاد ما رأى»[4] .

---

(١) الشرح : ١ (٢) النجم : ٢
(٣) النجم : ٣ (٤) النجم : ١١

وزكى بصرك فقال : « ما زاغ البصر وما طغى »[1] .

وزكاك كلك فقال : « وإنك لعلى خلق عظيم »[2] .

وعلى آلك وأصحابك ، الذين اهتدوا بهديك ، وساروا على سنتك واتبعوا النور الذى أنزل معك فرضى الله عنهم أجمعين .

أما بعد :

فقد قال الله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »[3] .

أيها المسلمون :

منذ فترة من الزمن كان المجتمع الإنسانى يعانى من الوهن والإنحلال ما كاد يودى به إلى الهلاك والفناء ، كان يعانى وهنا فى العقائد ، وفساداً فى العادات ، وإباحة للمنكرات ، وشغفاً بالحروب والغارات، لقد كانت مهمة كل رسول أن يأتى إلى أمة بعينها يدعوها إلى عبادة الله وحده وإلى فعل الخير ، ونبذ ما يغضب الله عز وجل من الأخلاق السيئة والعادات القبيحة ، فنهم من يؤمن ويهتدى إلى الرشد ، ومنهم من يكذب ويعاند ، ومنهم من لا يكتفى بالتكذيب والعناد ، بل يعتدى على الرسل وعلى أتباعهم قتلا وتعذيباً ، ثم ينتهى دور الرسول بانتهاء حياته مع أمته ، ثم تعود أمته إلى ما كانت عليه من قبل من فساد وكفر وغواية وضلال، ويأتى رسول آخر وهكذا .

والقرآن الكريم يضرب لنا الأمثال ويقص علينا ما عاناه المؤمنون أتباع الرسل من قتل وتعذيب على أيدى الكافرين وغير المؤمنين ، الذين قست قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة .

---

(١) النجم : ١٧ — (٢) القلم : ٤

(٣) الأنبياء : ١٠٧

يقول الله تعالى فى سورة البروج : « قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد »[1] .

هذا مثال للظلم البشع الذى عانت منه الإنسانية فى طور من أطوار حياتها ، وجريمتها أنها آمنت برسول بعثه الله إليها ليهديها إلى الطريق الحق وإلى الصراط المستقيم .

عباد الله :

وهناك نوع آخر من الظلم كان موجودا وشائعا قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو وأد البنات وهن أحياء فكان أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسودا من سوء ما بشر به أيدسه فى التراب أم يمسكه على هون فينتهى به الأمر أخيرا إلى دسها فى التراب ليتخلص من العار على حد فهمه السقيم .

قال تعالى موبخا هذه العادة السيئة : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون »[2] .

ومنهم من كان يطفف الكيل ويخسر الميزان ويبخس الناس أشياءهم ومنهم المدمن للخمر لا يفيق منها أبداً ، ومنهم المتعامل بالميسر العابد للأصنام والمستقسم بالأزلام والمفوض أمره إليهما وهو ضرب من الأوهام .

---

(١) سورة البروج : ٤ — ٩

(٢) النحل : ٥٨ ، ٥٩

أما الحروب فحدث عنها ولا حرج، فكانت تشن من حين لآخر بين القبائل لاتفه الأسباب، فلا قانون غير قانون الغاب، ولا شريعة غير شريعة الغاب. القوة الرعناء دأبهم والسلب والنهب ديدنهم، القوى يأكل الضعيف وذو الحسب والنسب يدوس غيره ممن لاحسب له ولا نسب، كان شريفهم إذا سرق أجازوه، وكان إذا سرق غيره أقاموا عليه الحد، كما كانوا يطوفون حول الكعبة المشرفة وهم عرايا رجالا ونساءا تفوح من أفواههم رائحة الخمر، هذا فضلا عن الجرائم الخلقية التي اشتهر بها قوم لوط وما أسرفوا فيه من الفاحشة.

أيها المسلمون:

ومن قبل هؤلاء وهؤلاء كان قوم نوح عليه السلام يفعلون نفس هذه المحظورات ويكذبون رسولهم ويعاندونه حتى جأر بالدعاء عليهم ليستأصل الله تعالى شأفتهم ويطهر الأرض من رجسهم فنادى: «رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا[1]».

هذه كانت بعض حالات الأمم عامة والعرب خاصة قبل مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد آن لهذه الصور الكريهة أن تختفي تماما لأن السماء قد استجابت لأنات المظلومين الذين اكتووا بنار الظلم الذي وقع عليهم من حكام دولتي الفرس والرومان وغيرهم ممن لايدينون بأي دين من الأديان السماوية.

نعم استجابت السماء فولد محمد صلى الله عليه وسلم، وولد يتيما وتربى في حجر جده عبد المطلب ثم تولى رعايته بعد جده عمه أبو طالب.

وكان صلى الله عليه وسلم مثالا للطهر والعفاف والصدق والأمانة،

---

(١) نوح: ٢٦، ٢٧

والهمة والمروءة والبسالة والشجاعة ، والبعد عما ألفه شباب العرب من مجون ولهو وسمر ، ولأن الله عز وجل كان يدخره لغاية سامية فقد أدبه فأحسن تأديبه ، ورباه فأحسن تربيته ، وصنعه على عينه ووصفه وصفا واثما لم يحظ به أحد فى الوجود سواه فقال: «وإنك لعلى خلق عظيم»[١] لم يسجد لصنم قط وكان يتعبد على شريعة أبيه إبراهيم عليه السلام . كان يفكر طويلا فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وظل هكذا مستغرقا فى عبادته بعيدا عن أرجاس الجاهلية ، حتى اختاره الله واصطفاه ليكون رسولا ورحمة للعالمين وخاتما للنبيين فلا نبى بعده ولا رسول بعده إلى يوم الدين .

عباد الله :

لقد كان مجيئه إلى العالم استجابة أيضا لدعاء أبى الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، إذ أنه بعد أن فرغ هو وابنه اسماعيل عليهما السلام من رفع قواعد البيت الحرام قال : «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم»[٢].

وكان مجيئه ﷺ أيضا مصداقا لنبوءة السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام : «وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى إسمه أحمد»[٣].

---

(١) القلم : ٤
(٢) البقرة : ١٢٧ — ١٢٩
(٣) الصف : ٦

وأيضا مصداقا لما جاء فى التوراة: (لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع جميع الشعوب).

وشيلون كلمة عبرية معناها الإسلام أو رسول السلام.

ومعنى هذا أنه لن ينقضى ملك بنى إسرائيل وشرعهم حتى يأتى الإسلام أو رسول الإسلام ويكون له الغلبة والسيطرة على الجميع.

وصدق الله العظيم إذ يقول: «هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا»[1].

فلا عجب بعد هذا أن تجىء شريعته صلى الله عليه وسلم شاملة كاملة وافية صالحة للعمل بها فى كل زمان ومكان، لأنها تحمل كل مقومات البقاء والخلود.

فكان ميلاد المصطفى صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، حيث كانت رسالته لإخراج الناس من الظلمات إلى النور: «الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور»[2].

وكان عليه الصلاة والسلام الرحمة المهداة والنعمة المسداة وصدق الله إذ يقول «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»[3].

وكان صلى الله عليه وسلم السراج المنير، الذى أضاء الطريق لمن أظلم عليهم الليل وهم سائرون فى صحراء دامس، لا يستطيعون معرفة الطريق، فإذا بهم بالنور الذى أخرجهم من ظلماتهم وضلالهم.

قال تعالى: «يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا»[4].

---

(١) الفتح: ٢٨ — (٢) إبراهيم: ١

(٣) الأنبياء: ١٠٧ — (٤) الأحزاب: ٤٥، ٤٦

وكان الكتاب الذى جاء به ﷺ إنما هو القرآن الكريم ، كتاب : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »[١] فيه بيان كل شىء ، وهدى ورحمة .

كما جاء بشريعة مفصلة ، تدعو إلى كل فضيلة ، وتنهى عن كل رذيلة .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

١٨ — الحج وحكمته فى الإسلام

الحمد لله رب العالمين ، جعل البيت مثابة للناس وأمناً ، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره ، وأتوب إليه واستغفره ، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، جعل حج البيت من الشريعة ركناً ، وصرف وجوهنا إلى قبلته فكان ذلك من نعمه العظمى ، وأشهد أن سيدنا وهادينا محمداً رسول الله خير من طاف بالبيت العتيق وكبر ، ذاكراً أسماء ربه الحسنى ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الهداة الأكرمين إلى يوم الدين .

أما بعـــد : —

فيقول الحق سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين »[٢] .

أيها المسلمون :

الحج أفضل أركان الإسلام بعد الصلاة ، وهو من الشعائر الإسلامية المجيدة ، ذات الأثر الكبير فى تقوية الروابط الأخوية ، وتوثيق أواصر

---

(١) فصلت : ٤٢ (٢) آل عمران : ٩٧

المحبة والمودة بين المسلمين جميعاً ، حيث يأتون من مشارق الأرض ومغاربها ، متجهين بقلوبهم نحو الخالق الأعظم سبحانه وتعالى ، محرمين له ، مغيرين ملابسهم وأزياءهم ، متساوين فى ذلك ، لا فـرق بين عظيم وحقير ، ولا بين غنى ولا فقير بل الكل أمام الله عز وجل سواء ، يجتمعون حول بيته الحرام ، وفى رحاب كعبته المشرفة ، ناهلين من الموارد الإلهية الصافية ، وهناك يتعارفون ويتعاونون ، ويتدارسون مصالحهم وشئونهم فى هذه الأماكن المقدسة التى كانت مشرق أنوار الهداية والإسلام .

فحينما يطوفون بالبيت العتيق ، يذكرون أنه أول بيت بنى فى الأرض لعبادة الله تعالى وتقديسه وتعظيمه يقول الحق تبارك وتعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا »[1] .

والمراد من مقام إبراهيم الحجر الذى كان يقف عليه الخليل عليه السلام ، وهو يبنى البيت الحرام بأمر الله تعالى ، وكان أثر غوص قدميه فيه باقياً مع كونه حجراً صلداً وتلك آية من آيات الله ، وقال العلماء : إن هذا الحجر كان يرتفع وينخفض به عليه السلام وهو يبنى البيت حسب إرادته ، وتلك آية من آيات الله عز وجل ، وفيه يقول الحق تبارك وتعالى : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى »[2] .

فيسن لكل من يطوف بالكعبة المشرفة ، أن يصلى ركعتين بعد الطواف خلف مقام إبراهيم عليه السلام .

---

(١) آل عمران : ٩٦، ٩٧

(٢) البقرة : ١٢٥

عباد الله : —

وعندما يسعون بين الصفا والمروة ، يذكرون سعى السيدة هاجر رضى الله عنها زوج الخليل عليه السلام ، وأم ولده سيدنا إسماعيل عليه السلام ، حينما سعت بينهما بحثاً عن الماء ، لتطفىء ظمأ الحبيب إسماعيل عليه السلام فإذا بالحق تبارك وتعالى يفجر من بين الصخور والأحجار، عيناً دائمة ، ذات ماء صاف عذب إكراماً للوليد العزيز ، هى عين زمزم التى أصبح ماؤها شفاء للناس ، والتى قال فيها سيد الأنبياء وخاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ : « ماء زمزم لما شرب له » وتلك آية من آيات الله ونعمة من نعمه الكبرى ، وكانت هذه العين سبباً فى تعمير هذا المكان المقدس كما جعلت العرب يدينون بالطاعة والولاء لإسماعيل عليه السلام .

وفى الصفا والمروة يقول الحق تبارك وتعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم »[1] .

وعندما يقفون عـــلى عرفات ، ذلك الموقف العظيم الذى قال فيه سيدنا رسول الله ﷺ : « الحج عرفة » يذكرون أنه أول مكان فى الأرض إلتقى فيه أبونا آدم عليه السلام ، مع أمنا حواء رضى الله عنها وتعارفا فيه ولذلك سمى عرفة .

وقال بعض المفسرين : إنها سميت فى الأصل عرفة ، لأن جبريل عليه السلام ، عرف إبراهيم عليه السلام المناسك ، فلما وقفه بعرفة ، قال له : أعرفت ؟ أعرفت؟ قال : عرفت عرفت فسميت عرفة .

أو أن الناس يتعارفون بها ، أو أن العباد تتعرف إلى الله تعالى فيها بالعبادات والأدعية ، أو أن الناس يعترفون بذنوبهم فيها .

(١) البقرة : ١٥٨

ذلك الموقف الرائع ، الذى يقف فيه الحجاج حسراة الرؤوس والأجساد فى صحراء قاحلة ، عرت من مظاهر الترف والرفاهية ، خاشعين خاضعين ضارعين متجهين بقلوبهم نحو الخالق العظيم ، والإله الرب الكريم ملك الملوك ، صاحب القوة والجبروت ، داعين ملبين قائلين : «لبيك اللهم لبيك لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» .

فى هذا الموقف تنخلع القلوب هيبة وإكباراً ، وتتضاءل النفوس خشية واعتباراً وتطأطئ الرءوس ذلة وإنكساراً ، فى هــذا المكان يتفضل الحق تبارك وتعالى برحمته وفضله وكرمه وإحسانه على عباده بالعفو والغفران ، والكرامة والرضوان ، فما أجله من موقف ، وما أروعه من إجتماع .

ويوم عرفة هــذا من الأيام العظيمة المباركة التى شرع الله صيامها لغير الحاج لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «صيام يوم عرفة يكفر سنتين ، ماضية ومستقبلة»(١) .

أما الحاج فلا يندب له صوم يوم عرفة . لإنشغاله بالحط والترحال والتلبية والدعاء .

أيها المسلمون :

وعندما يأتى العيد الأكبر عيد التضحية والفداء ، يذكرون نعمة الله تعالى عليهم ، بإعطائهم هذا العيد بعد أداء ركن عظيم من أركان الإسلام هو الحج المبارك ، ويذكرون أن هذه الأضحية سنة الخليل إبراهيم عليه السلام حينما أمره ربه فى المنام ، أن يذبح ولده إسماعيــل عليه السلام ورؤيا الأنبياء وحى وحق وفى ذلك يقول المولى عز وجل : «فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال

---

(١) رواه الإمام مسلم .

يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء من الصابرين »(١) .

وهذه القصة من أروع القصص، التى ذكرها الله تعالى فى كتابه العزيز ذلك أن الخليل إبراهيم عليه السلام لما بلغ ابنه إسماعيل معه السعى، يعنى لما كبر وشب وأصبح قادراً على السعى مع أبيه ومعاونته أمرَ فى المنام بذبحه فأخبر ولده بذلك فلم يجزع الوليد ، ولكنه رضى بقضاء الله تعالى وقدره وقال لأبيه « ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » أى من الطائعين الراضين .

وهذا مثل كريم طيب فى طاعة الأبنا للآباء . ومظهر من مظاهر الإيمان والرضى بما يأتى به الله تعالى .

وهكذا أطاع الأب وابنه أمر الله تعالى ، وأسلما له وانقادا ، وتل الأب الكبير ابنه الصغير وصرعه على الأرض وألقاه على جنبه لينفذ مشيئة الله ويذبحه ، وإذا بالإبن الكريم يقول لأبيه العظيم يا أبت أشدد وثاقى كيلا أضطرب ، واكفف عنى ثيابك حتى لا ينتضح عليها شىء من دمى ، واستحد شفرتك ، وأسرع مرها على حلقى ليكون أهون على وإذا أتيت أمى فاقرأ عليها منى السلام ورد عليها قميصى لتتسلى به عنى . فقال له أبوه : نعم العون أنت يا بنى على أمر الله ، وفعل الخليل عليه السلام — ما أمره به ابنه ، ثم وضع السكين على حلقه فلم تفعل شيئاً ، فحدها مراراً فلم تفعل شيئا ، عند ذلك ناداه الرب الرحيم يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ونفذت أمرى وظهرت طاعتك وانقيادك لى ، فاقبل عفوى وإحسانى ، ونزل جبريل الأمين عليه السلام ومعه كبش من الجنة فقال يا إبراهيم هذا فداء ابنك فاذبحه دونه « وفدينـــاه بذبح عظيم » وأصبح ذلك سنة عظيمة دائمة إلى يوم الدين ، وإحسانا وتوسعة على الفقراء والمساكين .

---

(١) الصافات : ١٠٢

وعندما يرمون الجمرات الثلاث يذكرون ما كان من إبليس اللعين حينما تعرض لإبراهيم عليه السلام ثلاث مرات فى ثلاثة مواطن، محاولا منعه من تنفيذ أمر الله تعالى بذبح ولده، فرجمه الخليل فى كل مرة بسبع حصيات، صدا له ومنعاً وطرداً.

هذه ذكريات كريمة تتجدد كلما هل علينا شهر ذى الحجة الحرام ما أحرانا أن ننتفع بها وأن نتخذ منها العظة والعبرة، وأن نقوى بها إيماننا بالله وثقتنا فيه.

نسأله أن يقوى إيماننا، وأن يمنحنا الهداية والتوفيق، وأن ينصرنا على أنفسنا وعلى أعدائنا إنه نعم المولى ونعم النصير.

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم؟

• • •

١٩ — المساواة فى الإسلام

الحمد لله رب العالمين خلق الناس جميعاً من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء. أحمده — عز وجل — وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون، وأشهد أن سيدنا وهادينا محمدا رسول الله، ناشر الإيمان ومحرر الإنسان، اللهم صل وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين «ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم»[1].

أما بعد: —

فيقول الحق تبارك وتعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر

(١) آل عمران: ١٠١

وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »[1] .

أيها المسلمون :—

إن الإسلام هو الدين ، الذى قرر مساواة النـــاس أمام القانون ، ومساواتهم فى الحقوق العامة ، السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، وغيرها ، فلا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على اسود . ولا لغنى على فقير ، ولا لوجيه على صعلوق ، ولا لحاكم على محكوم ، فالناس جميعاً متساوون فى أصل خلقهم ، ومن هنا قضى الإسلام على نظام الطوائف ، وأساليب التفرقة بين الطبقات فى الحقوق والواجبات .

فالله ـ عز وجل ـ فى الآية السابقة يدعو الناس كافة ، ولا يدعو قبيلة واحدة ، ولا أمة بعينها ، بل الناس بأصلهم الأول وهو آدم وحواء ومن كان ابوهم واحدا وأمهم واحدة فلا محل للافتخار والتعالى من بعضهم على البعض الآخر من ناحية الجنس ، وإنهم وإن تفرقوا فى البلاد واختلفوا فى الأجناس واللغات والألوان ، فإن هذه الأشياء لا تزيل عنهم صفة الأخوة ، بل توجب عليهم أن يتعارفوا ، والتعارف يدعو إلى التآلف والمحبة والتواد والتعاون على تذليل عقبات الحياة .

يقول الرسول — ﷺ — فى الدعوة إلى المساواة فى حجة الوداع : « أيها الناس . إن ربكم واحد وإباكم واحد الا لافضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أبيض ، ولا لأحمر على اسود إلا بالتقوى »[2] .

إن الدولة الإسلامية لا يستعبد فيها القوى الضعيف ، ولا يحقر الغنى

---

(١) الحجرات : ١٣

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده .

الفقير ، ولا يدوس صاحب الحسب والنسب من لا حسب له ولا نسب ، ولا يتخذ العامة الخاصة أربابا من دون الله ، وإنما تتساوى الحقوق وتعم بين الناس ، إلا فيما يفضل به بعضهم على بعض من عقل راجح ، وعمل صالح فالمحسن له جزاؤه مهما كان لونه وجنسه ومقامه ، والمسيء له عقابه على نفس المستوى مهما كان نسبه وحسبه وشرفه فقد قال الرسول — ﷺ — : « وأيم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[1] .

عباد الله : —

لقد أنكر زعماء العرب من قريش على النبي — ﷺ — مبدأ المساواة ، الذى بدأ بتطبيقه فقالوا له معترضين : كيف نجلس إليك يا محمد وأنت تجلس إلى مثل بلال الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وعمار بن ياسر وغيرهم من العبيد وعامة الناس ، إطردهم ونحن نحضر مجالسك ونسمع دعوتك ، فأبى رسول الله — ﷺ — فقالوا : فاجعل لنا يوما ولهم يوما ، فكاد ان يجيب رغبتهم ، فنزل عليه الوحي بقول الله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين »[2] .

وتخاصم مرة أبو ذر الغفاري وبلال الحبشي في حضرة الرسول — ﷺ — فاحتد أبو ذر على بلال وقال له : يا ابن السوداء . فغضب الرسول عليه الصلاة والسلام وقال : ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح ، فوضع أبو ذر خده على الأرض وقال للأسود : قم فطأ على خدي تكفيرا له عن قوله .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) الأنعام : ٥٢ .

والرسول ﷺ كان لا يفرق فى الحقوق والمعاملات بين أبيض وأسود ، ولا بين حر ومولى ، فقد ولى بلالا على المدينة المنورة وفيها كبار الصحابة ، وبلال مملوك اشتراه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وأعتقه .

أيها المسلمون :

إن المساواة فى الإسلام سلوك وتطبيق ، طبقه الصحابة بعد رسول الله ﷺ ، فهذا سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يستأذن عليه أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو ، وعمر رضى الله عنه أمير المؤمنين ، فيأذن بالدخول قبلهم لصهيب الرومى وبلال الحبشى فاستنكر أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو هذا التصرف من أمير المؤمنين حيث قدم عليهما فى الدخول صهيب وبلال وهما من أشراف مكة وسادتها ، ولكن أمير المؤمنين يرد على هذا الاستنكار من جانب أبى سفيان وسهيل بقوله : لقد دعوا إلى الإسلام فأسرعوا ودعيتم فأبطأتم » .

إن التفاضل يكون على أساس الإيمان الخالص ، والعمل الصالح ، والسبق إلى الخيرات ، ولا يكون على أساس الحسب والنسب .

إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه طبق مبدأ التمييز بين السابقين واللاحقين والتفضيل بين المتقدمين والمتأخرين أخذا بحكم القرآن الكريم حيث يقول المولى عز وجل : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا »[1] .

إن النفاق الذى يدارى أخطاء السادة أصحاب الحسب والنسب ، ويجامل جرائم الكبار بينما لا يرحم فى نفس الوقت الضعفاء والفقراء هو

---

(١) الحديد ١٠

الذى أفسد المجتمعات الإنسانية ودمر فيها الأخلاق وحط من القيم وأهدرها ، ومن هنا كان هلاك الأمم والشعوب التى تفشوا فيها هذه الظاهرة .

عباد الله :

إن نظام الطبقات الموجود فى الديانة البرهمية ، التى تقسم الأمة إلى طوائف أربع ، وتجعل أعلى هذه الطبقات البراهمة أو الكهنة وأدناها السفلة أو الأنجاس ، نظام ظالم ويكفى لمعرفة ظلمه أنه جاء فى قوانين أحد مشرعى هذه الديانة : إن البرهمى يجب إحترامه بسبب نسبه وحده ، وأحكامه هى وحدها الحجة ، وإن له عند الحاجة أن يمتلك مال الواحد من السفلة ، لأن العبد وما ملكت يده لسيدة ، وكان محرماً على هذه الطبقة المذكورة أن يتصل أحدهم بشىء من الدين أو العلم وإلا حل به عذاب غليظ،مثل صب الرصاص المصهور فى أذنيه،وشق لسانه وتقطيع جسمه[1] .

كما زعم اليهود أيضا وادعوا أنهم وحدهم أبناء الله وأحباؤه وشعبه المختار ، ومن هنا فرقوا فى تشريعاتهم بين اليهود وغيرهم من الناس ، فحرموا الربا فيما بينهم تحريماً قاطعاً ، وحللوه وجعلوه تجارتهم الرابحة الحلال بالنسبة لمن لم يكن منهم .

والأمم الديمقراطية ، التى تدعى أن العالم الإنسانى مدين لها بمبادىء المساواة ، لا تزال فى قوانينها وسياستها تسير بما يخالف هذا المبدأ كما فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وبعض المناطق الأفريقية الخاضعة للإستعمار الاوربى ، التى تجرد السود من أبسط الحقوق الإنسانية .

---

(١) حضارة الهند .

أيها المسلمون :

إن غاية ما تتطلع إليه البشرية هي أن يسود أرضها السلام وترفرف عليها ألوية العدالة والمساواة ، حيث يتجه كل واحد إلى البناء والتعمير وتنزاح أشباح الحروب التي تدمر ولا تعمر ، وتخرب ولا تبني وإذا كانت مبادىء حقوق الإنسان لم توضع موضع التطبيق في بعض جهات الأرض ، فليس ذلك عن قصور فيها ، وإنما هو نتيجة لتجاهلها وعدم تطبيقها .

هـــذا ويعد الإسلام هضم حقوق الناس والإفساد في الأرض بالعدوان أو الفسوق أو الطغيان أو التخريب من المنكرات التي لا يرتضيها الحق جل جلاله فيقول سبحانه وتعالى : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خــير لكم إن كنتم مؤمنين »[1] .

إن الإسلام يقول : لا تفاضل بين النـاس إلا على أساس أعمالهم وما يقدمه كل منهم لربه ووطنه والمجتمع الإنساني .

هذه هي مساواة الإسلام . فعلى الساعين إلى الأمن والأمان ، والمريدين السعادة والهناء ، والراغبين في العيش بسلام أن يعتصموا بالاسلام ففيه الخير والطمأنينة والرفاهية .

فاتقوا الله عباد الله واحتكموا إلى تعاليم الله فيما بينكم يكتب الله لكم الفوز والفلاح .

وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

---

(١) الأعراف ٨٥

٢٠ — الجهاد فى الإسلام

الحمد لله رب العالمين أنزل فى كتابه الكريم « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » أحمده سبحانه وتعالى وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، أمرنا باتخاذ القوة لحماية الوطن ، ومحاربة المعتدين الظالمين . وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا محمداً رسول الله ، الذى جاهد فى الله حق جهاده ، فكان خير قدوة ، وأعظم أسوة ، اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، ووقفوا المواقف الرائعة مع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، واستعانوا بالله فأيدهم الله على عدوهم فأصبحوا ظاهرين

أما بعد : —

فقد قال الله تبارك وتعالى : « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم ، وماتنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون »[١]

أيها المسلمون : —

إن الدين الإسلامى دين أمن وأمان وعدل وسلام ، ولابد لهذه المبادىء من قوة تؤيدها وتحميها وتدافع عنها ، ومن هنا أمر الله عز وجل المسلمين أن يستعدوا للجهاد فى سبيل الله بكل طاقاتهم ، وبكل مايصل إليه العقل البشرى من وسائل القوة وفنونها وأنظمتها ، مااستطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وقد أمر الله تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ

---

(١) الأنفال : ٦٠

أن يحرض أصحابه على قتال أعداء الله والدين والوطن فقال عز وجل : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون »(١)

ولقد شرفت الأمة الإسلامية حينما اجتباها الله عز وجل لهذا الدور العظيم وكلفها به فكان من الطبيعي أن تكون أمة مجاهدة ، حيث لا يتحمل هذه الرسالة إلا المجاهدون ، ولذلك جاء الأمر الإلهي للمسلمين بالجهاد في القرآن الكريم حيث قال سبحانه وتعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل ، وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس »(٢) .

ويعتبر الجهاد من الإسلام ذروة سنامه رقيته التي تحرسه وترعاه ، لأن الأمم تحيا وتسعد وتسود وتعتز ما دام قائماً فيها ، وإذا ضعف الجهاد في الأمة أصابها الوهن والمذلة وطمع فيها الأعداء ، وما ترك قوم الجهاد إلا خذلهم الله بالذل وسلط عليهم من يسومهم الخسف والهوان ، ويوم تخل المسلمون عن الجهاد وأقبلوا على الدنيا وزينتها والحياة ومغانمها ، ونسوا حق الله وحق العباد ، ذلت نفوسهم وخضعت رقابهم ، وضاع وجودهم وكيانهم ، فتمكن منهم العدو وإن تهدأ الجهاد تارة ، ولن ينتهي أبداً ما دام الخير والشر متجاورين وهذا مصداق لقول الرسول ﷺ : « والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال ، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل والإيمان بالأقدار »(٣) .

---

(١) الأنفال : ٦٥ (٢) الحج : ٧٨

(٣) سنن أبي داود جـ ٢ ص ١٧

عباد الله :

إن التاريخ ليسجل بمزيد من الفخر والإعجاب مواقف البطولة النادرة التى تجلت فى جيوش الإسلام أيام الفتح الإسلامى ، ففى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه اتجهت الفتوحات الإسلامية شرقاً إلى بلاد فارس، وشمالا إلى بلاد الروم ، وموقعة اليرموك التى تجلت فيها روح البطولة ، من جيش الإسلام على قلته . وانتصرت على جيش الرومان على كثرته أكبر شاهد على ما كان عليه المسلمون من اهتمام عظيم بجند الله، وكذلك موقعة القادسية فى بلاد فارس فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، التى دالت بعدها دولة الفرس .

بمثل هذه التضحية انتصر الرسول ﷺ فى المدينة المنورة على المشركين واليهود الخائنين ، وبمثل هذه النفوس العالية انتصر أبو بكر رضى الله عنه فى خلافته على المرتدين ومانعى الزكاة ، وعلى الخونة والمنافقين ، وانتصر كذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه على فارس والروم ، وكان رضى الله عنه يوصى باتخاذ الجنود والجيوش فى جميع الولايات الإسلامية قدوة برسول الله ﷺ .

فعن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته فقال : « الله الله فى قبط مصر فانكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله » رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح[1] .

أيها المسلمون :—

إن الجهاد فى سبيل الله بطولة وفخر ، وعز ونصر ، به تصان الأوطان ويحفظ الدين ويقوى الإيمان ، إن الجهاد فى سبيل الله شعار الأحرار

(١) مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٦٣ .

الذين يفدون بلادهم بدمائهم وأموالهم، يقفون فى ساحة الشرف والكرامة المواقف الرائعة التى اعتبرها الرسول ﷺ من أعظم المواقف فى نظر الدين، حيث يقول صلوات الله وسلامه عليه : «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»[1] .

ويقول فيما رواه ابن عباس رضى الله عنهما «عينان لا تمسهما النار أبداً عين باتت تكلأ فى سبيل الله وعين بكت من خشية الله»[2].

إن الأمة الإسلامية والعربية تجتاز اليوم مرحلة خطيرة من أشد مراحل حياتها ، مرحلة حياة أو موت ، فلقد اعتدى الأعداء على بلادها وأراضيها ودنسوا مقدساتها ، وانتهكوا حرماتها ، وعاثوا فى أرجائها فساداً ، فأصبح الجهاد فرضاً عينياً على كل قادر بالنفس والمال .

لقد استولى الأعداء على هذا كله نتيجة الغدر والخيانة، ونتيجة التآمر والخداع، نتيجة تفرق كلمتنا، وتهاوننا فى إعداد العدة الكافية ، وتقاعسنا عن الدفاع عن أوطاننا وبلادنا بأنفسنا وأموالنا ، ونتيجة ابتعادنا عن الله عز وجل وعن العمل بكتابه وسنة رسوله ﷺ .

فعلى المسلمين فى جميع أقطارهم أن يهبوا هبة رجل واحد ، وأن ينفروا خفافاً وثقالا ، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله لتحرير أوطانهم، وانقاذ المسجد الأقصى المبارك وبقية المقدسات من أيدى اليهود الفجرة الطغاة والصليبيين المعتدين الآثمين، ليذكروا فى رحابها اسم الله، ويقيموا فيها شعائره ، وإن كل تقصير فى هذا السبيل سيؤدى بهم فى النهاية إلى القضاء عليهم جميعاً قطراً بعد قطر ، وإقليما بعد إقليم ، فمطامع العدو

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه أبو يعلى ورواته ثقات .

لا تقف عند هذا الحد ، الذى استولى عليه من أرض العرب والمسلمين ، بل هو يطمع فى مملكة من النيل إلى الفرات ، بل يطمع فى أوسع من ذلك يطمع فى المدينة وما حولها وفى أقطار أخرى عربية وإسلامية .

عباد الله : —

إن الواقع يؤيد ما نقول فما يحدث فى البوسنة والهرسك من قتل وتشريد وإبادة للمسلمين وهتك لأعراض المسلمات لدليل واضح على ما يريده الأعداء ، وكذلك الحال فى الشيشان وغيرها وغيرها من بلاد المسلمين ، إن أعداء الله لا يريدون للإسلام دولة ولا للمسلمين بقاء.

ومن الأمور العجيبة أن يبقى عدو المسلمين والعرب يصول ويجول فى بلادهم ، يتكبر ويتجبر ويعلو ويتيه دون أن يجد أمامه قوة تردعه وتوقفه عند حده ، فى كل يوم يظهر علينا بشىء جديد ، اعتداءات هنا وهناك واجراءات تعسفية للبطش بالآمنين من السكان ، وقوانين ظالمة تصادر فيها أموال المسلمين والعرب، مع أن المسلمين قادرون على إيقاف عدوهم عند حدوده ، إذا اتفقت كلمتهم وصحت عزائمهم وساروا فى الطريق المستقيم التى رسمها الله عز وجل لهم ، فلديهم من القوة العددية الشىء الكثير ، كما أن لديهم من الإمكانيات المادية والمالية ما يتمكنون بها من تزويد جيوش جرارة قوية فى أسلحتها البرية والبحرية والجوية .

إن لديهم من الأموال ما يمكنهم من أن يكونوا أقوى الأمم وأشدها بأساً ، لو استخدموا أموالهم وتصرفوا فيها تصرفاً يعود على مجموع الأمة بالخير والنفع والفائدة .

أيها المسلمون : —

السؤال الذى يتردد اليوم هو : ألسنا مسلمين؟ وإذا كنا مسلمين فلماذا لا ينصرنا الله على أعدائنا ؟.

والجواب عن هذا السؤال : يورده القرآن الكريم بصراحة ووضوح .

قال تعالى : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين »[1] فهل نحن مؤمنون حقاً ؟ .

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »[2] فهل نصرنا الله حقا حتى ينصرنا الله على أعدائنا ويثبت أقدامنا ؟ .

وقال عز وجل : « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »[3] .

فهل أقمنا الصلاة وآتينا الزكاة حقاً ، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر حقاً ؟ .

وقال جل فى علاه : « انفروا خفافاً وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله »[4] فهل نفرنا خفافاً وثقالا فى سبيل الله ، وهل جاهدنا بأموالنا وأنفسنا فى سبيل الله ؟

ومن هنا فالمسلم لا ينفك عن الجهاد فى سبيل الله أبداً ، فهو فى جهاد

---

(١) الروم : ٤٧ (٢) محمد : ٧

(٣) الحج : ٤١ (٤) التوبة : ٤١

مستمر: يجاهد نفسه ليحملها على الطاعة وعلى بذل المال والنفس فى سبيل الله وابتغاء مرضاته، ويجاهد بلسانه وقلمه ليبين معانى الإسلام ويرد على افتراءات المبطلين، ويجاهد فى جميع أحواله : فى الرخاء والشدة، والضعف والقوة ، والفقر والغنى .

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من رضى بالله تعالى رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا وجبت له الجنة» .

فعجب لها أبو سعيد فقال أعدها على يارسول الله ، فأعادها عليه ثم قال : «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، قال : وماهى يارسول الله ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله الجهاد فى سبيل الله» .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

أهم المراجع

القرآن الكريم كتاب رب العالمين

١ ـ إحياء علوم الدين / للإمام الغزالى

٢ ـ أساس البلاغة / العلامة الزمخشرى

٣ ـ أصول الدعوة / د . عبد الكريم زيدان

٤ ـ أسس علم الإجتماع / د . حسن شحاته سعفان

٥ ـ أصول علم الإجتماع / د. مصطفى الخشاب

٦ ـ أسلوب الدعوة فى القرآن الكريم / محمد حسين فضل الله

٧ ـ أسس الدعوة وآداب الدعاة / د . محمد السيد الوكيل

٨ ـ أصول الخطابة العربية / د . عبد الغفار عزيز

٩ ـ البيان والتبيين / للجاحظ

١٠ ـ تلخيص الخطابة / لابن رشد تحقيق عبد الرحمن بدوى

١١ ـ تفسير القرآن العظيم / للإمام ابن كثير

١٢ ـ التفسير الكبير / للإمام الفخر الرازى

١٣ ـ تاريخ الطبرى / للإمام ابن جرير الطبرى

١٤ ـ تذكرة الدعاة / البهى الخولى

١٥ ـ تاريخ الأدب العربى أحمد حسن الزيات

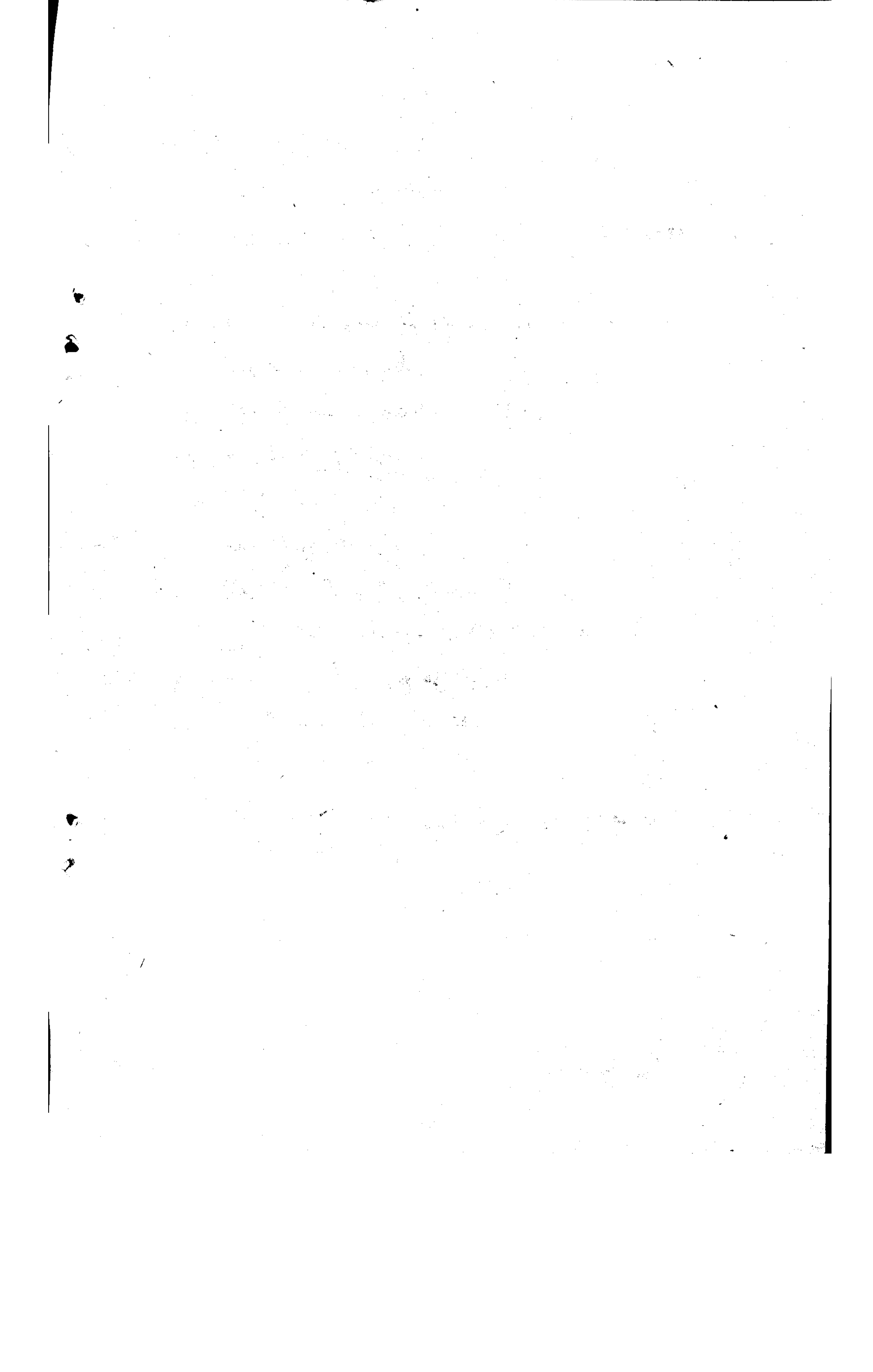
١٦ ـ تاريخ العالم الإسلامى / د . محمد محمود زيادة

١٧ ـ تاريخ الدعوة / د . جمعة الخولى

١٨ ـ الجامع لأحكام القرآن الكريم / للإمام القرطبى

١٩ـ ثقافة الداعية / د. يوسف القرضاوى
٢٠ـ الخطابة / الشيخ محمد أبو زهرة
٢١ـ الخطابة / لأرسطو
٢٢ـ الخطابة فى صدر الإسلام / د. محمد طاهر درويش
٢٣ـ « واعداد الخطيب / عبد الجليل شلبى
٢٤ـ « فى موكب الدعوة / د. محمود محمد عمارة
٢٥ـ « الدينية / د. عبد الغفار عزيز
٢٦ـ « فى الإسلام / د. مصطفى بيومى ، د. جمعة الخولى
٢٧ـ « الدينية نظريا وعمليا / د. محمد رجب الشتيوى
٢٨ـ الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه / الشيخ عطيه صقر
٢٩ـ زاد المعاد / لابن القيم الجوزية
٣٠ـ رسالة الأزهر / د. يوسف القرضاوى
٣١ـ السيرة النبوية / لابن هشام تحقيق مصطفى السقا وآخرون
٣٢ـ سنن النسائى / للإمام النسائى
٣٣ـ سنن أبى داود / للإمام أبى داود
٣٤ـ صحيح البخارى / للإمام البخارى
٣٥ـ صحيح مسلم / للإمام مسلم
٣٦ـ عمدة القارى شرح صحيح البخارى / لبدر الدين العينى
٣٧ـ عيون الأخبار / لابن قتيبة
٣٨ـ العقد الفريد / لابن عبد ربه الأندلسى
٣٩ـ علم الخطابة / د. أحمد غلوش

٤٠ـ فن الخطابة / الشيخ على محفوظ
٤١ـ فن الخطابة / د . أحمد الحوفى
٤٢ـ طريق الدعوة بين الإصالة والانحراف / مصطفى مشهور ١٩٨٤
٤٣ـ كيف ندعو الناس / عبد البديع صقر
٤٤ـ قواعد الخطابة وفقه الجمعة والعيدين / د . أحمد غلوش
٤٥ـ لسان العرب / لابن منظور
٤٦ـ مقدمة ابن خلدون / عبد الرحمن بن خلدون
٤٧ـ مختار الصحاح / الرازى
٤٨ـ المصباح المنير / الرافعى
٤٩ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل
٥٠ـ المفردات فى غريب القرآن / للأصفهانى
٥١ـ مع الله دراسات فى الدعوة والدعاة / الشيخ محمد الغزالى
٥٢ـ هداية المرشدين / للشيخ على محفوظ
٥٣ـ وظيفة المسجد المعاصر / بحث الشيخ عبـــد الله المشد المؤتمر الخامس لمجمع البحوث الإسلامية .
٥٤ـ المدخل لدراسة الخطابة وطرق التبليغ فى الإسلام / د. مصطفى أحمد أبو سمك



الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
المبحث الأول : تعريف الخطابة لغة	٩
تعريف الخطابة إصطلاحاً	١٠
المبحث الثانى : أهمية الخطابة والغاية منها	١٢
« الثالث : أهمية الخطابة للدعوة الإسلامية	١٤
« الرابع : علم الخطابة وصلته بالعلوم الأخرى : ـــ	٢٣
١ ـــ علم المنطق	٢٣
٢ ـــ علم النفس	٢٤
٣ ـــ علم الإجتماع	٢٥
٤ ـــ القرآن الكريم والسنة النبوية	٢٧
٥ ـــ مقارنة الأديان	٢٩
٦ ـــ معرفة الأحكام الفقهية	٢٩
٧ ـــ التاريخ الإسلامى	٣٠
المبحث الخامس : أقسام الخطابة : ـــ	٣١
١ ـــ الخطابة السياسية	٣٢
٢ ـــ « القضائية	٣٥
٣ ـــ « العسكرية	٤١
٤ ـــ « الحفلية	٤٤
المبحث السادس : الخطابة الدينية : ـــ	٥١

الموضوع	الصفحة
بحثا ، أول جمعة أقيمت فى الإسلام أول جمعة صلاها الرسول ﷺ ، أول خطبة خطبها ، فرضية الجمعة ، مشروعية الخطبة للجمعة	٥١ — ٥٦
المبحث السابع : تحصيل الخطابة	٥٧
١ — الفطرة والاستعداد الغريزى	٥٧
٢ — معرفة الأصول والقوانين	٥٨
٣ — الإكثار من مطالعة أساليب البلغاء	٥٨
٤ — كثرة الأطلاع والثقافة	٥٩
٥ — التدريب والتمرين والمماوسة	٥٩
المبحث الثامن : مراحل إعداد الخطبة وتكوينها	٦٠
١ — مرحلة اختيار الموضوع — عقلية المخاطبين — نفسية المخاطبين المناسبة	٦٠
٢ — إيجاد العناصر وتركيبها	٦٢
٣ — إختيار الأدلة	٦٣
٤ — التعبير الخطابى	٦٤
المبحث التاسع : الخطيب :—	
١ — أهمية الخطيب ومكانته فى الإسلام	٦٦
٢ — صفات الخطيب الجيد	٧٠
٣ — اعداد الخطيب الجيد	٩٥
٤ — الصفات العقلية للخطيب	٩٥
٥ — الخصائص النفسية للخطيب	٩٨
٦ — كيف يعالج الخطيب مشاكل مجتمعه	١٠٣
المبحث العاشر : — بين الخطبة وأشباهها من فنون القول : —	

الموضوع	الصفحة

١ — الدرس الدينى — شروطه — فائدته — الفرق بينه وبين الخطبة	١١٤
٢ — المحاضرة — شروطها — الفرق بينها وبين الخطبة	١١٥—١١٦
٣ — المناظرة : تعريفها — الفرق بينها وبين الخطبة	١١٨
٤ — الندوة : فائدتها - خصائصها - الفرق بينها وبين الخطبة	١١٩
٥ — المناقشة : شروطها — الفرق بينها وبين الخطبة — فائدتها	١٢٠
المبحث الحادى عشر : الخطابة فى صدر الإسلام	١٢٤
١ — مميزاتها عن العصر الجاهلى	١٢٥
٢ — دواعى الخطابة فى هذا العصر	١٢٦
٣ — عوامل رقيها فى هذا العصر	١٢٨
٤ — الألفاظ والأساليب والمعانى	١٣٥
٥ — خطباء عصر صدر الإسلام	١٣٧
٦ — نموذج من خطب هذا العصر	١٣٨
المبحث الثانى : الخطابة فى العصر الأموى	١٤٣
١ — دواعى الخطابة فى هذا العصر	١٤٤
٢ — عوامل رقى الخطابة فى ذلك العصر	١٤٨
٣ — عوامل الضعف فى ذلك العصر	١٤٩
٤ — الألفاظ والأساليب والمعانى	١٥٠
٥ — خطباء العصر الأموى	١٥٢
٦ — نموذج من خطب ذلك العصر	١٥٣
المبحث الثالث عشر : الخطابة فى العصر العباسى	١٥٥
١ — دواعى الخطبة فى ذلك العصر	١٥٥
٢ — عوامل رقى الخطابة وأسباب ضعفها	١٥٨

الموضوع	الصفحة
٣ — الألفاظ والأساليب والمعانى	١٦٠
٤ — خطباء العصر العباسى	١٦٢
٥ — نموذج من خطب ذلك العصر	١٦٣
المبحث الرابع عشر : الخطابة فى العصر الحديث	١٦٦
١ — أسباب ضعف الخطابة وتخلفها	١٦٦
٢ — عوامل رقى الخطابة فى العصر الحديث	١٧٠
المبحث الخامس عشر : المستمعون :	١٧٣
١ — منهج الخطيب مع جمهور المستمعين	١٧٦
(أ) الحكمة	١٧٦
(ب) الموعظة الحسنة	١٧٩
(ح) الجدال بالتى هى أحسن	١٨٧
المبحث السادس عشر : رسالة المسجد	١٩٣
١ — رسالة المسجد فى الإسلام	١٩٦
٢ — رسالة المسجد فى العصر الحديث	١٩٦
٣ — مواصفات المسجد	١٩٨
٤ — مواصفات الإمام	١٠٢
المبحث السابع عشر : نماذج من الخطب العملية :	٢٠٥
١ — الإسلام دين العزة والكرامة	٢٠٥
٢ — هجرة الرسول ﷺ	٢٠٩
٣ — التعاطف والتراحم بين المسلمين	٢١٤
٤ — الصيام وتربية النفس فى الإسلام	٢١٩
٥ — سبب الشقاء مخالفة الدين	٢٢٣
٦ — منزلة العمل فى الإسلام	٢٢٧
٧ — الاستقامة وأثرها فى صلاح الفرد والمجتمع	٢٣٢

الموضوع	الصفحة
٨ — خلق الحياء	٢٣٦
٩ — الخمر أم الكبائر	٢٤١
١٠ — الإسلام وبر الوالدين	٢٤٦
١١ — الدعاء سلاح المؤمن	٢٥٠
١٢ — لا يعلم الغيب إلا الله	٢٥٥
١٣ — الإسلام هو صراط الله المستقيم	٢٦٠
١٤ — التحذير من تقليد الأجانب	٢٦٤
١٥ — قوة الأمة الإسلامية فى وحدة صفها	٢٦٨
١٦ — الشهود على الإنسان يوم القيامة	٢٧٣
١٧ — سعادة الإنية بميلاد خير البرية	٢٧٩
١٨ — الحج وحكمته فى الإسلام	٢٨٥
١٩ — المساواة فى الإسلام	٢٩٠
٢٠ — الجهاد فى الإسلام	٢٩٦
أهم المراجع	٣٠٣
الفهرس	٣٠٧

رقم الإيداع بدار الكتب
٩٩٠٤ / ١٩٩٥م
I, S . B: N. - 977 - 00 - 0132 - 5